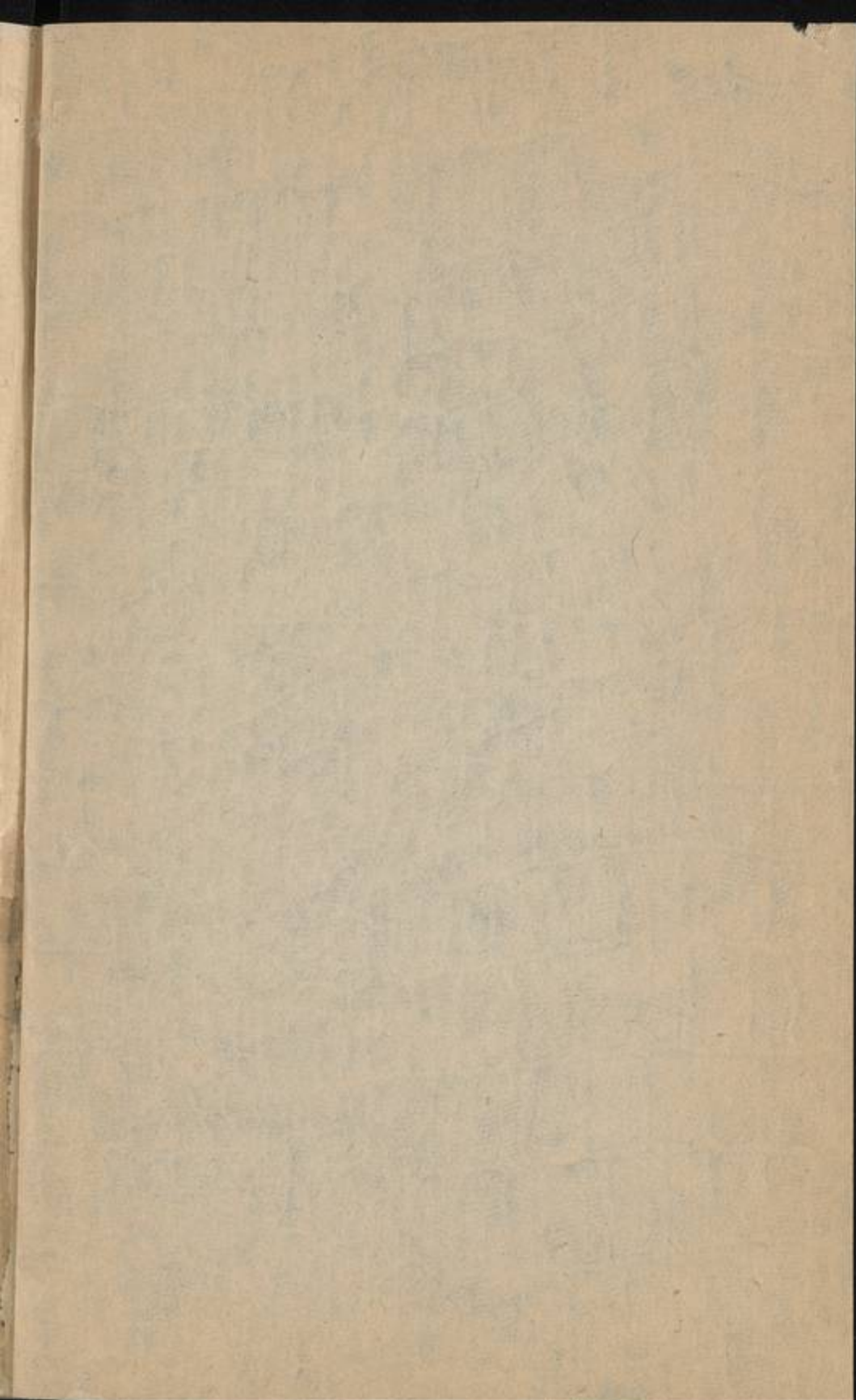


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY





بمحة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

كِتَابٌ

الْإِخْلَاقُ

تأليف

إِخْلَاقِيْنَ

المدرس بمدرسة القضاء الشرعي



(حقوق الطبع محفوظة)

الطبعة الثانية — منقحة وموسعة

المطبعة الرحمانية

بالحرفنفس بمصر رقم ٣٥

٤٩٣.٧٩٩١
AR 515

الطبعة الاولى سنة ١٩٢٠

الطبعة الثانية سنة ١٩٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله
هذا كتاب وضعته للطلبة ليكون مرشداً لهم في حياتهم الاخلاقية،
يلفهمهم الى نفوسهم، ويبين لهم أهم نظريات العلم، ويوسع نظرهم فيما يعرض
عليهم من الاعمال اليومية، ويعددهم للتوسع في علم النفس والاخلاق
والاجتماع

راعت فيه الجهة العملية أكثر مما راعت الجهة النظرية. وفضات
مراعاة المعنى على مراعاة اللفظ، فلم أعمد الى تزويق اللفظ كما عمدت
الى ايضاح المعنى ليكون سهل التناول

كتبته بلغة العصر وبروح العصر، فان لكل زمان لغة هي أقرب
الى الفهم وروحاً تتطلب معاني جديدة، ونمطاً في الكتابة جديداً
وقد قسمته الى ثلاثة اقسام، بحثت في القسم الاول في موضوعات
نفسية لا بد منها للاخلاق كالعادة والارادة — وذكرت في القسم الثاني
أهم نظريات علم الاخلاق وتاريخه — وعانيت في القسم الثالث بالمسائل
العملية التي تعرض للانسان في حياته — هذا مع اقتصار على ما يناسب
الطالب ويليق به

ولعله أول كتاب في اللغة العربية من نوعه. من حيث موضوعاته
ونمطه، على حاجتنا الشديدة الى كثير من الكتب في هذا الموضوع الذي

(د)

عنيت به الام الحية فالت فيه الكتب العديدة ، مطولة ومختصرة ،
تناسب كل طبقة في درجاتها العقلية المختلفة
والله أسأل ان ينفع به ، ويوفق العاملين لمناجاة التأليف في
موضوعه النافع

أحمد أمين

ابريل سنة ١٩٢٠

مقدمة الطبعة الثانية

أن مالقيه هذا الكتاب من اقبال الجمهور عليه ، واهتمام كبير
من الادباء بتقريبه ونقده حماني على بذل الجهد في توسيعه وتنقيحه
فزدت فصولاً رأيت الحاجة ماسة اليها كالغريزة والوراثة والبيئة. وتوسعت
في موضوعات رأيت خيراً أن أوسعها ، كالحرية وضبط النفس والمحافظة
على الزمن ، وانتفعت بنقد الناقدین فأصلحت من الكتاب ما رأيت
صواباً في تقديم

فاتقدم الى القراء بهذا الكتاب في شكله الجديد وأرجو أن يقع
عندهم موقفاً حسناً

اكتوبر سنة ١٩٢١

فهرست الكتاب

| الصفحة | الموضوع |
|--------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١ | مقدمة : في تعريف علم الأخلاق وموضوعه |
| | الكتاب الاول |
| | في مباحث نفسية لا بد منها في الاخلاق |
| ٦ | أسس السلوك |
| ٨ | الغريزة |
| | غريزة حفظ الذات ٨ حفظ النوع ٨ الخوف ١٠ تعريف الغريزة وخصائصها ١١ تربية الغريزة ١٣ |
| ١٥ | العادة |
| | تكوين العادة ١٥ العادة فسيولوجيا ١٦ خصائص العادة ١٧ قوة العادة ١٩ تغير العادة ٢٢ الفكر والعادة ٢٥ أهمية العادة ٢٨ |
| ٣٠ | الارادة |
| | قوة الارادة ٣٢ علاج الارادة ٣٤ حرية الارادة ٣٥ |
| ٣٨ | الوراثة والبيئة |
| | تعريف الوراثة ٣٨ قوانين الوراثة ٣٩ — وراثة الصفات المكتسبة ٤٢ البيئة ٤٢ العلاقة بين الوراثة والبيئة ٤٥ |

(و)

| الصفحة | الموضوع |
|--------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٤٨ | الخلق |
| ٥١ | تربية الخلق ٤٩ علاج الخلق |
| ٥٢ | الوجدان |
| | نشوة الوجدان ٥٣ اختلاف الوجدان ٥٤ خطأ الوجدان ٥٦ تربية الوجدان ٥٨ درجات الوجدان ٥٩ أهمية الوجدان ٦١ |
| ٦١ | المثل الأعلى |
| | اختلاف المثل ٦٣ - مم يتكون المثل ٦٤ - نمو المثل ٦٤ |

الكتاب الثاني

نظريات العلم وتاريخه

| | |
|-----|-----------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٦٦ | مقياس الخير والشر |
| | العرف ٦٦ مذهب السعادة ٦٨ - السعادة الشخصية ٧٠ - السعادة العامة ٧٣ اللقائنة ٧٩ - النشوء والارتقاء ٨٣ |
| ٩٤ | الحكم الاخلاقي |
| | هل يصدر الحكم باعتبار النتائج أو الغرض ٩٥ - نشوء الحكم الاخلاقي وارتقاؤه |
| ٩٨ | |
| ١٠١ | خضوع الانسان للقوانين |
| | القانون الطبيعي ١٠١ - القانون الاخلاقي ١٠٤ - القانون الوضعي ١٠٥ |
| ١٠٥ | الفروق بين القوانين الاخلاقية والوضعية |

(ز)

| الصفحة | الموضوع |
|--------|------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١٠٧ | تاريخ البحث الاخلاقي |
| | علم الاخلاق عند اليونان ١٠٧ - في القرون الوسطى ١١٣ عند العرب ١١٣ - في العصور الحديثة ١١٦ |

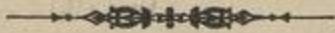
الكتاب الثالث

القسم العملي

| | |
|-----|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١١٩ | وحدة المجتمع وعلاقة الفرد به |
| | وحدة الاسرة ١١٩ - وحدة الامة ١٢١ - وحدة العالم ١٢٣ - منزلة الفرد من المجتمع ١٢٥ |
| ١٢٧ | القانون والرأى العام |
| | القانون ١٢٨ - القانون والحرية ١٢٩ - احترام القانون ١٣٠ - الرأى العام ١٣٥ - سلطانه ١٣٧ |
| ١٣٩ | الحقوق والواجبات |
| | معنى الحق والواجب ١٣٩ - حق الحياة ١٤٠ - حق الحرية ١٤٢ - حق الملك ١٥١ - حق التربي ١٥٤ حقوق المرأة ١٥٧ |
| ١٦٢ | الواجب |
| | تقسيم الواجب ١٦٢ - أداء الواجب ١٦٤ - التضحية ١٦٥ - أهم الواجبات ١٦٨ - الواجب علي الانسان لله ١٦٨ - واجب الانسان لامته (الوطنية) ١٧٠ |

(ح)

| الصفحة | الموضوع |
|--------|------------------------------------------------------------|
| ١٧٥ | الفضيلة |
| ١٧٨ | معنى الفضيلة ١٧٥ اختلاف قيمة الفضائل ١٧٦ أقسام الفضيلة ١٧٨ |
| | — أم الفضائل ١٨٢ — الصدق ١٨٢ الشجاعة ١٩٠ — الشجاعة |
| | الادبية ١٩٢ — ضبط النفس ١٩٩ الاقتصاد ٢٠٨ — المحافظة على |
| | الزمن ٢١٤ العدل ٢٢٢ العدل والمساواة ٢٢٥ العدل والرحمة ٢٣٠ |
| ٢٣٢ | الامراض الاخلاقية وعلاجها |
| | ممن تنشأ الشرور ٢٣٢ — الآثام والجرائم ٢٣٣ — علاج الجريمة |
| | ٢٣٤ — العقوبة ٢٣٤ |
| ٢٣٨ | مراجع الكتاب |



مقدمة

في تعريف علم الاخلاق وموضوعه

تعريفه : كلنا يحكم على الأعمال بأنها خير أو شر ، صواب أو خطأ ، وهذا الحكم متداول بين الناس رفيهم ووضيعهم ، كبيرهم وصغيرهم ، في جليل الاعمال وحقيرها ، على لسان القاضى في المسائل القانونية ، وعلى السنة الصناعات في صنائعهم بل والاطفال في ألعابهم

فما معنى الخير والشر ؟ وبأى مقياس أقيس العمل فأحكم عليه بأنه خير أو شر ؟ وبعبارة أخرى ما الغاية التي أسعى للوصول اليها حتى إذا قربني العمل منها كان خيراً وإذا أبعديني كان شراً ؟ هذه كلها أسئلة يجيب عنها علم الأخلاق

فعلم الأخلاق علم يوضح الخير والشر ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً، وينير السبيل لعمل ما ينبغي ، وكثيراً ما يرد على الذهن هذا السؤال : هل في استطاعة علم الاخلاق أن يجعلنا صالحين أخياراً ؟ والجواب أن علم الاخلاق بمنزلة الطيب فهو يستطيع أن يخبر المريض بضرر شرب المسكرات ويصف له تأثيرها في العقل والجسم ثم المريض بعد بالخيار ان شاء ترك لتحسن صحته وان شاء تعاطى ، وليس في استطاعة الطيب منعه . كذلك علم الأخلاق ليس في مقدوره

أن يجعل الانسان صالحاً ولكنه يفتح عينيه ليريه الخير والشر
وآثارهما . فلم الأخلاق لا يفيدنا في العمل ما لم تكن لنا ارادة
تنفذ أوامره وتجنبنا نواهيه

نعم يمكن لمن لم يدرس الأخلاق أن يحكم على الأشياء بأنها
خير أو شر ويمكنه أن يكون صالحاً حسن الخلق . ولكن مثل
دارس الأخلاق ومن لم يدرس كتاجر الصوف ومن ليس بتاجر
إذا أراد كلاهما أن يشتري نوعاً من الصوف . كل يقع نظره على
ما يقع عليه نظر الآخر وكل يلمس ويمتحن ولكن ممارسة الأول
وأكثره تجاربه تجعله أصدق حكماً وأحسن تقويماً

موضوعه : يؤخذ من هذا أن علم الأخلاق يبحث في أعمال
الناس فيحكم عليها بالخير أو الشر ولكن ليست كل الاعمال سالحة
لأن يحكم عليها هذا الحكم وليبيان ذلك نقول
تصدر من الانسان أعمال غير ارادية كالتنفس ورمش العين
عند الانتقال فجأة من ظلمة الى نور ، فهذه ليست من موضوع
علم الاخلاق ، فلا نحكم عليها بخير ولا بشر كما لا نحكم على فاعلها
بأنه خير أو شرير ولا يحاسب الانسان عليها

وتصدر منه أعمال بعد تفكير في نتائجها و ارادة لعملها كمن
يرى أن بناء مستشفى في بلده ينفع قومه ويخفف مصائبهم فيفعل ،
وكن يعزم على قتل عدوه فيفكر في الطريق لذلك وهو هادي ،
الفكر ثم ينفذ ما عزم عليه ، فهذه الأعمال تسمى أعمالاً ارادية

وهي التي يحكم عليها بأنها خير أو شر ويحاسب الانسان على ما أتاه منها
وهناك نوع من الأعمال آخذ بشبهه من الطرفين قد يغمض
الحكيم فيه : هل هو من موضوع علم الاخلاق أولا وهل صاحبه
مسئول عنه أولا كما في الأمثلة الآتية

(١) من الناس من يأتي أعمالا وهو نائم فلو أن أحدهم أشعل
ناراً بمنزله وهو في هذه الحالة أو أطفأ ناراً كادت تحرق المنزل فهل
يكون مسئولاً عن عمله خلقياً ويحكم عليه بأنه مجرم في الحالة
الاولى خير في الثانية ؟

(٢) قد يصاب الانسان بالنسيان فيترك عملاً كان يجب عليه
أن يعمل في وقته

(٣) قد يستغرق الفكر في عمل كمن يشتغل بحل مسألة
هندسية أو يقرأ في رواية لذيدة فيفيتها ذلك وعداً أو درساً

هذه الاعمال كلها بالتأمل فيها نرى أنها أعمال غير ارادية فليس
النائم في المثال الاول قد تعمد احراق المنزل وقدر نتأجه ، لذلك لم
يكن مسئولاً وقت أن أتى بهذا العمل لانه لا ارادة له وانما يسأل
ويحاسب اذا كان يعلم انه مصاب بهذا المرض وأنه يأتي أعمالاً خطيرة
وهو نائم ثم لم يحتط وقت صحوه وانتباهه لما قد يحصل عند نومه
بأن يحول بين نفسه وبين النار وأدواتها . فنحن مسئولون خلقياً
عن عدم الاحتياط للاوقات التي نكون فيها غير مسئولين .

وكذلك الشأن في الامثلة التي ذكرناها، فلو انك نمت وتركت النار مشتعلة في موقد ثم طارت شمارة أحرقت المنزل لم يسمع اقولك « ان هذه ليست خطيئتي ولست قادراً أن أمنع النار أن ترمى بالشرر وأنا نائم » اذ يقال لك أنك عالم أن ستنام وقد أردت النوم وعالم أنك ستكون في حالة عدم شعور فكان ينبغي أن تستعد وقت شعورك لما قد يطرأ وقت عدم شعورك وذلك باطفاء النار ومثل ذلك الاتيان بعمل مع الاعتذار بجهل النتائج التي تصدر عنه ، وكمن كان يعلم من نفسه أنه حاد الطبع غضوب لا يضبط نفسه عند سماع كلمة تؤلمه فيخرج عن وعيه ويسب أو يضرب - فلو أنه غشى الجمعيات التي هي مظنة لاثارة غضبه وأتى بما يستنكر كان مسئولاً عن عمله لما ذكرنا، وكذلك الاعمال التي اعتيدت حتى صار يأتيها صاحبها لا عن إرادة فانه يسأل عنها لان الاعتياد نتيجة عمل ارادى متكرر

حكى دانتي^(١) أنه عند ما زار الجنة وجد في أحط درجاتها سيدة كانت قد عرفت في حياتها بالصلاح والتقوى حتى كادت تبلغ مبلغ القديسين - وكانت تفضل المعيشة في الدير والانقطاع للعبادة ثم أكرهت على الخروج منه وأرغمت على الزواج وعيشة

(١) دانتي Dante شاعر ايطالي مشهور (١٢٦٥ - ١٣٢١) وله تأليف كثيرة كان لها أثر كبير في نهضة ايطاليا ومن أشهرها رواية تسمى « ديفينا كوميديا » وصف فيها جهنم والفردوس ومن فيهما

الاسرة . فعجب دانتى أن لم تكن فى أعلى عليين وسأل عن سبب ذلك فأجيب بانها وان أكرهت على الخروج ومعيشة الزوجية إلا أن هذا الاكراه لم يستمر طول معيشتها بل قدرضيت بعدد بمعيشة الزوجية مع انها كانت تعتقد أن عيشة الدير خير منها -
ففى ليست مسئولة عن خروجها من الدير مرغمة ولكنها مسئولة عن رضاها فيما بعد واستمرارها فى معيشتها بارادتها
وخلصه هذا أن موضوع علم الاخلاق هو الاعمال التى صدرت من العامل عن عمد واختيار، يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل . وهذه هى التى يصدر عليها الحكم بالخير أو الشر وكذلك الاعمال التى صدرت لاعن إرادة ولكن يمكن الاحتياط لها وقت الانتباه والاختيار، وأما ما يصدر لاعن إرادة وشعور ولا يمكن الاحتياط له فليس من موضوع علم الاخلاق



الكتاب الاول

في مباحث نفسية لا بد منها في الاخلاق

X أسس السلوك

كل عمل يرادى يسمى «سلوكا» ، كقول الصدق والكذب
 وأعمال الكرم والبخل ، وسلوك الانسان أسس نفسية يصدر
 عنها كالغريزة والعادة، ولا تقع حواسنا على هذه الاسس ولكن
 على آثارها وهى السلوك فنحن لانحس بالغريزة مثلا ولكن
 نحس بما يصدر عنها

فكل سلوك لا بد أن ينبع من مصدر نفسى ، وليس يقنع
 الباحث في الاخلاق بالنظر إلى ظواهر الأعمال كما لا يقنع الطبيعى
 بالنظر إلى ظواهر الجو، بل لا يقنع إلا إذا عرف عللها وأسبابها ،
 وبمعرفة أسس السلوك نستطيع أن نعالجه ان كان سيئاً ونشجعه
 إن كان حسناً ، فلو أنك قلت للكاذب لا تكذب وكررت ذلك
 على سماعه مراراً ولكنك تركت حالته النفسية التى يصدر عنها
 الكذب كما هى لم يكن لقولك أثر، ولكن لو بحثت عن حالته
 النفسية وعرفت السبب الذى من أجله يكذب ثم عالجت ذلك
 بما يناسبه كان هذا علاجاً ناجحاً

أثبت العلم أن أخلاق الانسان ليست حظاً يمنح حسب

المصادفة والاتفاق، ولكنها تصاح وتفسد وترقى وتنحط تبعاً لقوانين ثابتة لا تتخلف، وأنا إذا عرفنا هذه القوانين وعملنا على وفقها استطعنا أن نصالح أخلاق الإنسان بقدر ما تسمح طبيعته

وهذه القوانين - سواء منها ما يتعلق بنفس الإنسان أو ما يتعلق بالبيئة التي تحيط بها - معقدة مركبة، لم تستكشف

استكشافاً تاماً حتى الآن، وهذا لا يمنعنا من السير على ما علم منها لم نكشف والجد في تعرف ما لم يكشف

ان الناس مع الاختلاف الكبير فيما بينهم عندئذ جميعاً -

إلا الشواذ - ميل إلى الشرف والحق والصدق وسائر الفضائل وإن كان هذا الميل يختلف فيما بينهم قوة وضعفاً، والتربية الصحيحة تقوى هذا الميل وتصل بالإنسان إلى أقصى ما يمكن أن يصل

إليه كما أن التربية السيئة تضعف هذا الميل وقد تفنيه - من الخطأ أن يقرر الأب أن ابنه سيكون طبيباً أو مهندساً أو قاضياً ثم

يرغمه على السير في السبيل الذي يحدده فقد لا يكون عند الناشئ استعداد طبيعي للطب أو الهندسة أو القانون ولكن من

الصواب دائماً أن يقرر الأب أن يجعل ابنه أميناً شجاعاً مجداً لأنه ولد وعنده استعداد لذلك الى حد ما، ودراسة الأسس النفسية

ومعرفة قوانينها تمكن الإنسان من التربية الصحيحة. ونحن

نكتفي هنا بذكر أهمها

أهمها...
تتعلق...
هذه القوانين...
التي تحيط بها...
مركبة...
لم تستكشف...
والجد في تعرف ما لم يكشف...
ان الناس مع الاختلاف الكبير فيما بينهم عندئذ جميعاً -
إلا الشواذ...
وإن كان هذا الميل يختلف فيما بينهم قوة وضعفاً...
تقوى هذا الميل وتصل بالإنسان إلى أقصى ما يمكن أن يصل...
إليه كما أن التربية السيئة تضعف هذا الميل وقد تفنيه - من الخطأ...
أن يقرر الأب أن ابنه سيكون طبيباً أو مهندساً أو قاضياً ثم...
يرغمه على السير في السبيل الذي يحدده فقد لا يكون عند...
الناشئ استعداد طبيعي للطب أو الهندسة أو القانون ولكن من...
الصواب دائماً أن يقرر الأب أن يجعل ابنه أميناً شجاعاً مجداً لأنه...
ولد وعنده استعداد لذلك الى حد ما، ودراسة الأسس النفسية...
ومعرفة قوانينها تمكن الإنسان من التربية الصحيحة. ونحن...
نكتفي هنا بذكر أهمها

الغريزة ^x

اعتادت الفلسفة القديمة أن تقول أن الانسان يولد صحيفة بيضاء ينقش فيها الربى ما يشاء ، أو تقول أنه كالعجينة المرنة يصورها الربى حسب ما هوى - وقد تبين خطأ هذه النظرية وظهر أن الانسان يولد صحيفة منقوشة نقشها أسلافه ، لانه يخرج إلى هذا الوجود وسرعان ما يعمل أعمالاً بالغريزة كما يفعل الحيوان ونحن نذكر لك أمم الغرائز :

(١) حفظ الذات - نرى كل حيوان كبيراً كان أو صغيراً ، راقياً أو دنيئاً ، يسعى - دائماً من يوم أن يولد - في أن ينمو ، ويجاهد ما أمكنه للحصول على قوته ، ويمعن في الهرب من الموت ، ونرى الانسان يحاول أن يعيش في أية بيئة مهما ساءت ولا يألو جهداً في أن يعدل نفسه لتلائم مع البيئة التي يعيش فيها -
وانه لياً أخذك العجب حين تلاحظ أن الجسم الحي اذا صادفته حالة حرجة تكاد تقضى عليه قد تسلاح بأساحة عديدة يتقى بها الخطر ، بل أكثر من هذا ترى في نفسه ميلاً طبيعياً يدعوه لان يعيش عيشة أرقى من عيشته

هذه الغريزة هي التي ملأت وجه البسيطة بالملايين التي لا تعد من الاجسام الحية فهي تعيش لان في غريزتها أن تعيش
(٢) غريزة حفظ النوع - هي من أقوى الغرائز وأكثرها

مظاهر في الحياة، ومن أكبر مظاهرها الميل الجنسي أعنى الميل المتداول بين الذكر والانثى، وهو منبع لكثير من السلوك، فأكثر أعمال الشباب - من جد في الدرس ورغبة في نيل شهادة ومحافضة على حسن سمعة وسعي في الكسب - الفرض منه - على الاكثر - خدمة هذا الباعث الغريزي وهو الميل الجنسي، وهو السبب أيضاً في حياة العواطف من أدب وفن - وهذا الميل اذا نظم واعتدل كان منبعاً للسعادة والافلاشقاء

ومن مظاهر هذه الغريزة أيضاً العاطفة الابوية وهي في المرأة أقوى منها في الرجل، وهي شديدة التأثير في الحياة الاخلاقية، فهي تحول الفتاة المرحلة الملول الأثرية الى أم رزينة صبور مؤثرة كما تحول الشاب المستهتر الماجن الى رجل مفكر يشعر بالتبعة (المسئولية)

وتقوى غريزة حفظ النوع أحياناً حتى لتضعف امامها غريزة حب الذات، فقد يهجر الابوان راحتهم لراحة اولادهم ويحرمان أنفسهما ليتمتع نسلهما، بل قد تضحي الام نفسها لتحفظ ولدها بهذه الغريزة والتي قبلها عمر العالم وحفظت الاشخاص والانواع، وبها أيضاً كان العالم ميداناً للتزاحم والعراك ومجزرة تسفك فيها دماء الاشخاص والانواع وهاتان الغريزتان أساس لكثير من أعمال الانسان حتى

لقد ذهب بعض علماء النفس الى حصر سائر الغرائز فيهما
(٣) غريزة الخوف - هذه الغريزة متأصلة في الانسان ، تصعبه
من أيام طفولته الى أن تسلمه الى القبر الخفيف ، وكثيراً ما تنصدم
هذه الغريزة مع الغرائز الاخرى كالغضب وحب الابتكار
وحب الاستطلاع والميل الجنسي فتمنعها من الظهور أو تكون
سبباً في التردد

وان رقى الانسان العقلي ومدنيته أزلت كثيراً من أسباب
الخوف التي كان يخاف منها المتوحش ولكنها أوجدت أيضاً أسباباً
أخرى أصبح يخاف منها المتمدين ، كان المتوحش يخاف من الرعد
والبرق والمذنبات والخسوف والكسوف ونحوها فلما علم الممدن
بأسباب هذه الاشياء زال خوفه منها ولكنه أصبح يخاف من
الامراض والميكروبات ومن أن يمس شعوره ومن أن يتعدى
على أمته الى كثير من أمثال ذلك

فالخوف ملازم للانسان في وحشيته ومدنيته ، يخاف على
نفسه وعلى ملكه وعلى صحبه ، يخاف من الاوهام ويخاف من
الفقر ومن كبر السن ومن الموت فهو عبد للخوف أبداً
حتى يموت

ومن جهة أخرى فالخوف من أكبر عوامل التربية ، ولا بد
من الخوف المعتدل اصلاح الحيوان والانسان ، فحولنا أنواع من
الاعداء تود الايقاع بنا في أنفسنا وأموالنا وأخلاقنا وليس

ينجينا منها الا الخوف من الألم المتوقع من حدوثها، وكثيراً ما
يحملنا على النجاح في أعمالنا خوفاً من ألم الفشل، وان أخلاقنا
وحسن سلوكنا لتكون عرضة للفساد اذ لم تكن محصنة بالخوف
من ذم من حولنا واحتقارهم ايانا. أضف الى ذلك أن الخوف
من النتائج السيئة المستقبلية هو الذي ملأ المصلحين غيرة على أهمهم
وجعلهم يتحملون كل مكروه في سبيل تنفيذ اصلاحهم -



وهناك غرائز أخرى لا يتسع المجال لشرحها تفصيلاً فوضع
ذلك علم النفس كغريزة الملكية أو الحيازة - وتظهر في ميل
الانسان الى الادخار واقتناء الثروة وهي كثيراً ما تكون باعثاً
للانسان على أنواع من السلوك، وكغريزة حب الاستطلاع وهي
تدفع الذهن الى استكشاف خفايا المسائل وتحصيل المعلومات،
وكغريزة حب الاجتماع وهي السبب في تكوين الاحزاب والجمعيات
والنقابات ووضع النظم المختلفة لها، وكل هذه الغرائز وأمثالها منبع
خفي لأعمال الانسان الظاهرة

تعريف الغريزة وخصائصها - اختلف علماء النفس اختلافاً
كبيراً في تعريف الغريزة، وأقرب التعاريف الى الصواب ما عرفها
به الاستاذ جيمس فقال «الغريزة ملكة يقتدر بها على عمل يوصل الى
غاية من غير سابق نظر الى تلك الغاية ومن غير سابق تدريب على
هذا العمل»

ويكفيها هذا تعريف من غير مناقشته، وان ذكر
خصائص الغريزة أكثر ابانة لها من ذكر التعاريف المختلفة
فأولاً — أن قوة الغرائز تختلف باختلاف الاشخاص
والامم، وهى تقوى وتضعف بنسبة الرقى العقلى للشخص والامة،
وبنسبة الظروف المحيطة بها، وهذه الغرائز المختلفة — مع عوامل
رقيا وانحطاطها المختلفة — هى السبب فى الخلاف بين الناس
(٢) موعد ظهور الغرائز المختلفة ليس محدوداً ولا منظماً
فى الانسان انتظامه فى الحيوان

(٣) كثيراً ما تتعارض الغرائز وينشأ عن ذلك اضطراب
فى السلوك أو تردد، كالذى عنده غريزة حب الملك شديدة قوية
وعنده أيضاً ميل غريزى قوى نحو تحصيل الخير للمجتمع فتراه
يقف أحياناً مواقف اضطراب تتنازعه فيها الغريزتان

(٤) تظهر الغرائز فى شكل بواعث على العمل فغريزة الغضب
تبعث على القول الحاد أو الانتقام أو نحو ذلك، وغريزة حب
الاستطلاع تبعث على كثرة السؤال وقراءة الكتب والبحث
عن المجهول وهكذا

(٥) الغريزة أساس الاعمال الانسان، فهو يأتى باعمال عديدة
فى يومه من قيام من النوم ولبس وافتار وعمل فى شؤون مختلفة
وأشياء من الاعمال يسر بها نفسه الى كثير من أمثال ذلك وهو
يكبر ذلك كل يوم، ومهما كثرت هذه الاعمال وتعددت فانها

عند التحليل يمكن رجوعها الى غرائز معدودة تبعث عليها ،
وبهذه الغرائز يمكن شرح كل سلوك الانسان فهو يأكل لان
الجوع الغريزي يبعث على الاكل وتأتى العادة بعد ذلك فتتنظم
أكله في أوقات معينة وباشكال مخصوصة ، وهو يعمل ويتحمل
الصعاب في عمله ليحصل على نقود، وهو انما يحصلها لينفقها على
نفسه وأهله يسد بها أميالا غريزية دعا اليها حب الذات وحب
النوع وهكذا يمكن رجوع كل عمل الى الغريزة مباشرة أو
بالواسطة مهما دق العمل، فحب الآباء والابناء والاصدقاء وحب
الغنى والمال والخوف من الموت والاستيحاش من الوحدة والرغبة
فيما يسر والنفور مما يؤلم كلها ناشئة عن غرائز طبيعية، وهى تشكل
سلوك الانسان باشكال خاصة

وما أبعد عن الصواب المذهب القديم القائل بان الحيوانات
تصدر أعمالها عن غرائزها أما الانسان فتصدر أعماله عن عقله،
والحق أن الانسان يعمل عن غريزته وعقله معاً ولا يمكن انفصال
أحدهما عن الآخر، فالغريزة تعين الغاية المطلوبة والعقل يوجد
الوسائل لتحصيل تلك الغاية

تربية الغريزة - الغريزة قابلة لان تثبت وتنمى بالتربية كما
أنها قابلة لان تضعف بل تفنى بالاهمال، وليست الغريزة من الثبات
بحيث لا تنمحى ولا تضعف، فكثيراً ما يرث الانسان استعداداً

خاصاً ثم يفقده لانه لم يُنمَّ في الوقت المناسب كالأوز والبط فانه إذا أبعدهن الماء - بعد الفقس - بضعة أشهر يفقد ميله الغريزي إلى الماء بل يخاف منه

الغرائز هي المادة الأولى التي تتكون منها الاخلاق ولكنها مادة خام لا يصح أن تهمل وتترك على طبيعتها ولا أن تُحطَّم وتسحق، بل يجب أن تربي وتهذب، وتربيتها بمقاومة البواعث التي تبعثها الغريزة ومنعها أحياناً والترحيب بها وتشجيعها أحياناً أخرى، فالناشئ، الكثير الحركة اللعوب يجب أن يقاوم ميله حتى يعتدل كما يجب تشجيع الميل إلى الحركة واللعب عند الناشئ الهادئ هدوءاً أكثر مما ينبغي

وهنا يرد علينا هذا السؤال متى تشجع البواعث ومتى تقاوم؟ والجواب عن ذلك: أن العمل الذي تبعث عليه الغريزة إذا كانت نتائجه حسنة فالباعث عليه يجب أن يشجع والعمل يجب أن يكرر وإذا كانت نتائجه سيئة وجب أن يقاوم الباعث عليه ولا يسمح بتكراره - وكل أنواع المثوبة والعقوبة من أبسط أشكالها إلى أقصى درجاتها مبنية على هذه النظرية نظرية تشجيع الباعث على الخير وردع الباعث على الشر

وإن الغرائز تختلف عند الناس إختلافاً كبيراً كما قدمنا فقد يمنح انسان قوة في إحدى الغرائز وضعفاً في أخرى على حين أن آخر قد قوى عنده من الغرائز ما ضعف عند الآخر والعكس، وعند

كثير من الناشئين استعداد غريزي للنبوغ في فرع من فروع الحياة المختلفة، ويظهر هذا النبوغ عندما يوفق المرء إلى من يتعهد أمياله الطبية ويعرف كيف يشجعها وينمها ويرشده إلى ما ينبغي أن يعمل وما ينبغي أن يترك حتى تنضج غرائزه، وهم ممن نعدّم اليوم من سقط المتاع من لو عني بهم وريت غرائزهم لكانوا نابغين على اختلاف فيما بينهم ففنان ماهر وقائد مدرب ومدير حاذق وذو قلب كبير لا يهاب الشدائد ولا يخاف الموت

العادة ×

العمل إذا تكرر حتى صار الاتيان به سهلاً يسمى عادةً وأكثر أعمال الانسان من قبيل العادة كالمشي والجري وطريقة اللبس والكلام الى كثير من أمثال ذلك

تكوين العادة : كل عمل خيراً كان أو شراً يصير عادةً بشيءين: ميل النفس اليه واجابة هذا الميل باصدار العمل ، مع تكرار ذلك كله تكراراً كافياً، أما تكرار العمل الخارجى وحده أعنى مجرد تحريك الاعضاء بالعمل فلا يفيد في تكوين العادة - فالمرضى يتجرع الدواء المر مراراً وهو في كل مرة كاره له ، يتمنى اليوم الذى يشفى فيه فلا يتجرعه ، ولا يصير شرب الدواء عادة له . والتلاميذ الكسول الذى يذهب الى المدرسة بضغط والده عليه

فحسب لا يعتاد الذهاب الى المدرسة حتى اذا زال هذا الضغط لم يذهب . ولكننا نرى المدخن بتكريره للتدخين يعتاده ويصعب عليه العدول عنه . والسبب في هذا أن المريض لم تمل نفسه الى شرب الدواء وانما مالت الى كسب الصحة ، فالميل النفسى الى العمل وتكرير هذا الميل لم يتحققا فلم تتكون العادة، وكذلك التلميذ لم يعل الى المدرسة وانما مال الى ارضاء والده أو نحو ذلك فلم يعتد، أما المدخن فقد رغب في التدخين وتكرر ميله وتكرر العمل الخارجى وهو اشغال اللقافة وتدخينها فتكونت العادة

كذلك تكرير الميل النفسى وحده ليس بكاف فمن مال الى التدخين مراراً ولكنه لم يجب هذا الميل لا يصبح التدخين له عادة فلا بد اذن من الميل النفسى والعمل الخارجى وتكرارهما

العادة فسيولوجيا : (من علم وظائف الاعضاء) - كل

ما يشعر به الانسان وما يعمله مرتبط ارتباطاً تاماً بمجموعه العصبى ولاسيما المخ، ولو أن خبرتنا بالمخ كافية لاستطعنا - اذا نحن نظرنا الى مخ انسان لم نره قط - أن نخبر بواسطة تركيبه وحجمه وشكله عن صفات كثيرة من صفات هذا الانسان

واذا فهم هذا الارتباط بين الاعمال والمجموع العصبى أمكننا أن نفهم كيف تتكون العادة

ان من خصائص المجموع العصبى «قابلية التشكل»، ويسمى الجسم قابلاً للتشكل اذا كان يمكن تشكيله شكلاً جديداً وكان

الميل النفسى الى العمل

إذا تشكل به استمر عليه، كلورقة تثنيها فتحس بشيء من المقاومة
فاذا ضغطت عليها اتخذت شكلاً جديداً واستمرت عليه حتى أنها
لتعود إليه إذا بسطت

كذلك الشأن في الأعصاب فكل عمل وكل فكر يؤثر فيها
ويشكلها بشكل خاص، ويتخذ فيها مجرى معيناً حتى إذا أريد أن
تفكر الفكرة أو يعمل العمل ثانية كان ذلك أسهل، لأن الأعصاب
استعدت للعمل وتشكلت به، كمن اعتاد وضع يده في جيبه أو
وضع رجل على أخرى فإنه يميل إلى إعادة ذلك وترتاح أعصابه إذا
هو فعل لأن ذلك يتفق مع الشكل الذي تشكلت به الأعصاب—
وكما تكرر العمل أو الفكرة تعمق الأثر في الأعصاب واتسع
المجرى وألف الإنسان العمل أو الفكرة لسهولة عليه كما هو
الشأن في الماء فإنه يرسم لنفسه طريقاً في الأرض وكلما مر عمق
مجره ووسعه وسهل عليه أن يجرى بعد في طريقه المعتاد

خصائص العادة : إذا تكونت العادة كان لها خصائص: فمنها

(١) سهولة العمل المعتاد، ومن الأمثلة على ذلك المشي وهو
من التمرينات الشاقة . يستغرق تعلمه شهوراً فأولاً نتعلم كيف
نقف، ووقوف الإنسان صعب لأنه يرتكز على عدة ليست
بالعريضة وعلى نهاية واحدة، لذلك كان وقوفه أصعب من
ذوات الأربع وكان انكفاؤه أسهل من انكفاؤها — وبعد

أن تتعلم الوقوف تتعلم الارتكاز على رجل واحدة عند اتجاه الأخرى
إلى الإمام ثم تغيير الارتكاز من رجل إلى رجل عند تقدم الأولى -
ومع هذه الصعوبات نجد أن العمل بتكريره واعتياده يصير في
غاية السهولة ويكفي توجيه فكرنا إلى المكان الذي نريده لتتحرك
أرجلنا وتسير من غير صعوبة ومن غير تفكير في كيف نمشي
وأعجب من هذا وأصعب «الكلام» فإنا نقضى سنين في تعلمه
ونحتاج إلى استعمال عضلات الحلق والشفة والحنك واللسان وقد
نحتاج في النطق بالكلمة الواحدة إلى استعمال كل هذه العضلات،
ويتدرج الطفل من النطق ببعض الحروف السهلة إلى الصعبة حتى
تكون العادة فيصبح قادراً على التكلم من غير احساس بصعوبة ما
(٢) توفير الزمن والانتباه - العادة توفر الزمن والانتباه فعند
ما يتكرر العمل ويصير عادة يعمل في زمن أقل ولا يحتاج إلى
تنبيه كثير، مثال ذلك الكتابة فعند تعلمها كانت كتابة سطر واحد
تستغرق زمناً طويلاً وتحتاج إلى انتباه تام واستحضار للفكر كما
فما صارت عادة استطاع الإنسان أن يكتب صفحات في زمن
كان يكتب فيه سطرًا أو أقل كما أنه استطاع أن يكتب وفكره
مشغول بشيء آخر، ومثل الكاتب الموسيقى وكل صانع، فحياتنا
تتضاعف مئات من المرات بالاعتقاد

ويوضح ذلك المقارنة بين اليد اليمنى واليد اليسرى، فالعادة هي التي
جعلت اليد اليمنى أمرن، وقصرت زمن ما تعمله، ولو فقدتها الإنسان

لاستطاع أن يعمل يسراه ما كانت تعمله يمانه ولا سيما إذا فقدتها قبل أن تتصاب أعضاؤه بل كثيرون يفقدون كلتا يديهم فيتعودون أن يعملوا بأقدامهم بعض ما كانوا يعملون بأيديهم

قوة العادة : كثيراً ما يعبرون عن قوة العادة بقولهم « العادة طبيعة ثانية » يعنون بذلك أن لها من القوة ما يقرب من « الطبيعة الاولى » والطبيعة الاولى هي ما ولد عليه الانسان وفطر عليه فكل انسان خرج من هذا العالم كآلة مجهزة بكثير من العدد ، عين تبصر وأذن تسمع ومعدة تهضم وغرائز فطرية وهكذا. فهذا الذي ولدنا عليه وورثناه من آباءنا وأجدادنا هو طبيعتنا الاولى ولها سلطان كبير على الانسان فلو حاول أن يبصر بأذنه ويسمع بعينه ما استطاع فهو لابد خاضع لسلطانها

وما يدخله الانسان على الطبيعة الاولى من التحسين والتقبيح هو ما يسمى « الطبيعة الثانية » أو العادة - ولها كذلك سلطان كبير فالطريق الذي نختطه لانفسنا في الحياة ونعتاد السير فيه له من السلطان علينا ما يقرب من سلطان الطبيعة ، فنحن أحرار في السنين الاولى من حياتنا لا سلطان للعادة علينا حتى اذا نمونا كان نحو التسعين في المائة من أعمالنا - من لبس وخلع وطريقة أكل وشرب ونمط في الكلام والسلام والمشى والمعاملة - معتاداً نعمله بقليل من الفكر والانتباه ويصعب علينا العدول عنه وتصبح حياتنا مجرد تكرير لافكار وأعمال كسبناها في مستقبل

الحياة ، فاذا نحن عينا بتكوين العادات الصالحة من صغرنا عنيت هذه العادات بنا في بقية حياتنا وجيننا من ورائها ربحاً عظيماً .
فتحن كالنساج ننسج اليوم بايدينا ما نلبسه غداً ، وكالمصور يعمل صورة من جبس لين لا يلبث بعد ان يتصلب ، فان اعتنى بالصورة وجمالها كانت - مدة بقاءها - زينة تسر الناظرين ، وان لم يعتن بها وخرجت مشوهة جمدت على شكلها وكانت غصنة للرائين
فواجب أن نجمع في سنينا الاولى من صالح العادات ما يجلب علينا طول عمرنا الراحة والسعادة ، وان ندخر في شبابنا من العادات الطيبة أكبر ما يمكن من رأس المال لتتمتع بارباحه في أيامنا المقبلة

والعادة كما قال الاستاذ « چيمس » هي التي تسهل على المعدنين العمل في ظلمات المناجم وعلى الفواصين عملهم في البحر الهائج البارد والامواج المضطربة والملاحين في الريح العاصف والفلاحين في حقولهم يقاسون ألم الحر والقر

العادة هي التي تكسب كل ذى حرفة سحنة خاصة ونمطاً خاصاً في الافكار والعقائد والاميال والحديث ثم هو بعد أن ينطبع بهذه الطوايع يأنس بحرفته ولا يستطيع ان ينتقل منها الى غيرها الا بصعوبة

وقوة العادة هي التي تجعل المسنين يرفضون الآراء الجديدة والمستكشفات الحديثة على حين ترى الاحداث يسرعون في

اعتناقها والعمل بها ، ذلك لان المسنين ألفوا نوعاً خاصاً من الآراء واعتادوا السير عليه حتى صاروا يكرهون ما يخالفه ، أما الشبان والاحداث فلم يألفوا نوعاً خاصاً من الآراء ، لذلك كانوا على استعداد لقبول ما تقوم البراهين على صحته ومن الامثلة على ذلك ما حدث للطبيب الشهير هارفي (١٥٧٨ - ١٦٥٧) الذى استكشف الدورة الدموية في الانسان فقد أعلن استكشافه وأيده بالبراهين ولكن ظل الاطباء يرفضون القول به نحواً من أربعين سنة لانهم اعتادوا أن يفكروا على أن لا دورة. ورحب بالاستكشاف الاحداث لمرونتهم وعدم الفهم القديم ، وهذا ما يعلل ما نراه من تمسك العجائز بالخرافات مع وضوح البراهين على بطلانها

قال « روسو » « يولد الانسان ويموت مستترقاً مستعبداً ، يشد عليه القمط يوم يولدو السكفن يوم يموت » يريدان بين قوتى العادة واستعبادها للانسان ويحرض على الثورة على العادات ، والحق أن ليست كل عادة يثار عليها وان أحسن شئ ، في الدنيا قد يكون منبعاً للشروع اذا اسيء استعماله ، كالخيال القوي فهو منبع للفن والشعر والادب وقد يكون أيضاً منبعاً للجرائم واختلاط العقل ، كذلك العادة قد تستعبد الانسان وتكون مصدر شقاء له اذا ساءت ، كعادة شرب المسكرات والدعارة وقد تكون منبع السعادة اذا حسنت كعادة النظافة والمحافظة على الزمن والصدق في القول - ومن الخطأ أن

نشور على كل العادات كما يفهم من كلام روسو، فما اتعس انساناً
ليس له عادة، أنه يتردد في كل شيء، مهما تفه وصغر: في ذهابه
لينام ليلاً وقيامه صباحاً وأكله وشربه بل في كل لقمة يأكلها
وجرة يشربها وبذلك يضيع أكثر من نصف عمره في تردد
وابرام عزم

تغيير العادة: كثيراً ما يصاب الانسان بعادات ضارة يود
تغييرها أو التخلص منها ومن المفيد أن نعرف كيف نصل الى ذلك
ان معرفتنا كيف نكون العادة يعيننا على فهم كيفية التخلص
منها فللتخلص منها يجب أن نعمل عكس ما يكونها، وقد ذكرنا
قبل أن لتكوين عادة يجب الميل الى الشيء واجابة الميل وتكرير
كل من الميل والاجابة تكراراً كافياً، فللتخلص منها يجب أن نقاوم
الميل الى العمل وكلما ملنا اليه لا نجيب الميل فنستطيع أن نثبت
العادة باهمالها كما نستطيع أن نحيمها بالميل واجابته، ويجب لتغيير
العادات السيئة مراعاة القواعد الآتية^(١)

« القاعدة الاولى » اعزم عزمًا قويا لا يشوبه تردد. وضع
نفسك في المواضع التي لا تلتئم مع العادة القديمة التي تريد التخلص
منها وارتبط ارتباطات كثيرة منافية لها، ولا تأت ما كان من
الأعمال مناسبة لها وإذا رأيت أن اعلان عزمك على تركها مما

(١) وضع هذه القواعد الاستاذان « بين » وجيمس وعربها الاستاذ

عاطف بك بتصرف

يبعدك عن العودة اليها فافعل وبالاختصار يجب عليك أن تحيط
عزمك الجديد بكل شيء، تعلم أنه يقويه فان إحاطته بذلك من
دواعي النجاح - وكلما مضى يوم واحد من غير رجوع إلى العادة
القديمة ثبتت العادة الجديدة وتمكنت

« القاعدة الثانية » لا تسمح لنفسك بمخالفة العادة الجديدة
مطلقاً لأى سبب من الاسباب إلا بعد أن تتمكن جذورها
من نفسك وحياتك فان كل مخالفة لها تبعد الانسان بعداً كبيراً
عن النجاح ويكون مثله مثل من يطوى خيطاً على بكرة، فاذا
سقطت البكرة منه مرة واحدة انحل من الخيط ما يحتاج لاعادة
طيه إلى عشرات من اللفات، وإن استمرار التربية والتمرين هو
أكبر واسطة في جعل المجموع العصبي يفعل في طريق مخصوص
على الدوام، لان في تربية الخلق عاملين متضادين - الفضيلة
والرذيلة - ولا تتمكن الفضيلة من الانسان تمام التمكن إلا
اذا غلبت الرذيلة في كل معركة تحدث بينهما، وان تغلب الرذيلة
مرة واحدة قبل جفاف البناء وثبوتة يهدم ما بنته الفضيلة في كثير
من مرات تغلبها - إذا ثبت هذا كان من اللازم أن يضع الانسان
هاتين القوتين بحيث يستمر تغلب الفضيلة حتى يتم بنائها ويقوى
قوة لا تؤثر فيها الرذيلة في أى حال من الاحوال

اتفق أهل الخبرة على أن أولى الطرق في التخلص عن عادة
مذمومة أن يتركها الانسان مرة واحدة فيتألم لذلك ويلاقى من

تركها المشاق مدة محدودة من الزمن ثم تزول المشقة ويتحرر من رِق تلك العادة، قال عليه الصلاة والسلام (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)، ولكن يشترط ألا يعزم الإنسان على الاتيان بشيء، أو على ترك عادة له إلا إذا كان يعلم أن تحمل ذلك من مقدوره لانه إذا عزم على عمل ما هو خارج عن قدرته كان حقيقاً بالخيبة، وفي الخيبة أضعاف للعزيمة فتعجز عن الاتيان بالأعمال السهلة — والدواء في حال عدم القدرة أن يأخذ الإنسان نفسه بالتدرج في الامر فإذا كان يشرب الخمر مثلاً فليعزم على تقليل شربها شيئاً فشيئاً على قدر استطاعته حتى ينتهي به الامر تدريجاً إلى عدم شربها بل إلى بنقضها وبنقض مجاسها

وأن رجلاً يغير عزمه في كل يوم ولا ينفذه إنما هو كمن يريد أن يثب قناة فيجري لها من بعيد حتى إذا وصلها غير عزمه وعاد ليجري من جديد وهكذا فلا هو يثب ولا هو يريح نفسه

« القاعدة الثالثة » انهمز أول فرصة لتنفيذ ما عزمت عليه واتبع كل انفعال نفسي يعين على ذلك التنفيذ فان الصعوبة ليست في العزم وإنما هي في تنفيذه، ومهما حفظ الإنسان من الحسب وكانت رغبته صالحة فان تحسن أخلاقه وتقوى إلا إذا انهمز كل فرصة تسنح له، وليس هناك أحقر من رجل ممتلىء بالأحلام يصرف حياته في إحساسات وانفعالات من غير أن يعمل بمقتضاها. وان كل من أحس منا أو انفعلت نفسه بأن عمل كذا خير ولم يفعل

شيئاً على مقتضى ذلك الاحساس قد أمات في نفسه خلقاً من
أكبر الاخلاق وهو قوة العزم وتنفيذ الرأي

« القاعدة الرابعة » حافظ على قوة المقاومة واحفظها حية
في نفسك وذلك بان تتبرع بعمل صغير كل يوم لا لسبب الا
لخالفه نفسك وهواك لان هذا يعينك على مقاومة المصائب اذا
حان حينها ويكون مثلك مثل رجل يدفع في كل سنة مبلغاً صغيراً
تأميناً على بيته ومتاعه (اه

الفكر والعادة : قرر علماء النفس أن الفكر في الشيء
يسبق العمل به حتماً ، فالعمل الاختياري انما يعمل بعد التفكير
فيه — فاذا نحن أردنا اعتياد عادة أو العدول عنها وجب النظر
في أساس ذلك وهو الفكر

من القوانين النفسية أن الفكرة إذا عرضت المخ فقبلها
ورحب بها زماناً طويلاً أثرت فيه أثراً كبيراً ثم تحولت الى عمل ،
وأن الفكرة لاول عرضها تؤثر في المخ أثراً كبيراً وكلما تكررت
كبر أثرها وسهل ورودها وأنتجت العمل لاجلها ثم يصير ذلك
عادة بالتكرار

قد ترفض الفكرة لاول مرة ولكن كثرة ورودها على
المخ تجعله يقبلها ويعمل على مقتضاها ، ولنطبق ذلك على الحياة
العملية فنقول : —

هب أن شاباً مستقيماً دعاه مرة رفقته السوء ليشرب معهم
ففرى أن ذلك الشاب عند سماع هذا الرأي يرفض الفكرة بتاتاً
ويقول « لا » بملء فيه ولكنه قد يدعو رفقاًؤه لأن يصحبه
من غير أن يشرب ويزينون له هذا الرأي بما أو توامن حيل ومهارة
فيرى بعد طول القول وكثرة الاغراء أن هذا الرأي لا يضره مادام
في عزمه أن يذهب ولا يشرب — وقد يتم ذلك حقيقة فيذهب
معهم ولا يشرب ، وقد يكرر ذلك ولكنه في كل ذهاب معهم
تقل قوة الممانعة وتأتي فكرة الشرب في كل مرة فتعمق مجراها
في المخ ، ولا تزال تضعف قوة المقاومة عنده حتى لا يرى له قدرة
على الامتناع فيشرب الكأس الأولى معتقداً انه يستطيع أن
يضرب عن الشرب في أي وقت شاء ، وهو في كل مرة يشرب
يثبت عادة الشرب واذا به سكير

ينال العار من عمله ويخسر ماله من المنزلة بين الناس ويسفل
ويرغب أن يعود الى حالته الأولى فتخونه ارادته ، وقد كان عدم
البدء في الشرب وعدم الترحيب بالفكرة أسهل عليه من العدول
عنه بعد أن تمكنت العادة من نفسه

فوجود الفكرة في المخ والترحيب بها معناه ايجاد شعله فيه ،
فاذا تركها تشتعل ولم يطفئها من وقتها عمّت النار المخ كله وذهبت
ارادته سدى وضاعت كل مقاومة ونفذ فعل الشر — وأما أن هو
يرفض الفكرة بادىء بدء ولم يسمح لها بالبقاء في المخ فقد أمن من

شرها وأمن من تحولها الى عمل

وطريقة اطفاء هذه الشعلة شيئان : أولها طريقة مباشرة ، وهي عدم السماح لهذه الفكرة أن تحل بالمخ ونبذها بتأناً وعدم سماعها ممن يجذبها أو يدعو اليها ومجانبة من يعيل اليها . والثاني شغل المخ بشيء ينسيه الفكرة الاولى ، فليس أضرب على الانسان من فكر فارغ ، وكما يقال « ان الشيطان يسكن حيث يجد المكان فارغاً والمحل نظيفاً » فالمخ أن لم يشغله جد اشتغل باللهو

ومثل ما قلناه عن السكرير نقوله عن كل المجرمين الذين اعتادوا أى نوع من الاجرام كالقاتل والسارق ، فالقاتل المتعمد انما يقتل بعد سكنى الفكرة في مخه وسماحه بالبقاء حتى تملك عليه نفسه وتستحيل الى عمل

حكى « الفونس سكيروس » في كتابه التربية الاستقلالية أن امرأة عليها سمة الاحتشام والحياء دخلت أحد الحوانيت وانقعت منه ما أرادت وأخرجت من جيبها ورقة « بنك » قيمتها خمسة جنيهات ، ولكن صراف الحانوت وجد أنها مزورة فبهتت المرأة وأخرجت له أخرى ولكنها لم تكن خيراً من الاولى ، فارتاب الرجل في أمرها وسامها الى الشرطة ، و بعد التحقيق تبين أن هذه المرأة خادمة أمينة ، كان عند مخدومها ورقتان مزيفتان وقعتا في يده اتفاقاً فتركهما في بيته من غير أن يمزقهما ، وكانت الخادمة تدخل الحجره التي فيها الورقتان كل يوم لتنظفها فتقع عينها عليهما

ولا تعباً بهما، ولكن تكرر حضورهما في ذهنها من يوم الى يوم
ومن شهر الى شهر حسن لها أخذها، فرفضت ذلك في أول الامر
بتأناً، وبعد مدة لمستهما بيدها وقلبتهما ثم ردتها فوراً وكأن فيهما
ناراً تحرق أصابعها، وما زال بها هذا الاغراء حتى غلبها
وأوقعها في السرقة) اهـ

فالذي أوقع هذه المسكينة في الجنابة سماحها للفكرة أن ترد
على ذهنها كل يوم وتلهب فيه النار من غير اسراع في اطفائها
فيجب ملاحظة ذلك وعدم ترديد الفكرة في المخ حتى
لا تتكون العادة

أهمية العادة : الآن فهمنا أن الانسان يكاد يكون مجموع
عادات تمشي على الارض، وان قيمته تعتمد كثيراً على عاداته فطريقة
الشخص في لبسه ونظافته ونغماته في كلامه ومشيته وطريقته
في أكله ونومه، وعنايته بحاجات بدنه من رياضة واستحمام، وعنايته
بعقله من تهذيب وتربية ونحو ذلك كلها عادات تقوّم الشخص
وتحدد درجة نجاحه في الحياة

بل الانسان سعيد أو شقي بالعادة، أمين أو خائن بالعادة،
شجاع أو جبان بالعادة بل هو - لدرجة كبيرة - صحيح الجسم
أو سقيم بالعادة - ذلك لان كثيراً من الامراض يمكن اتقاؤه
باعتياد النظافة والاعتدال في المأكل وانتظام المعيشة ونحوها، كما
أن كثيراً من الامراض يمكن الوقوع فيها باعتياد أضدادها حتى

لقد قال بعضهم « من مرض فقد أجرم » ذلك لانه بمرضه يزيد في شقائه وشقاء من حوله ، ولكن ليست هذه الجملة صحيحة على اطلاقها فبعض الامراض يصيب الانسان ولا يكون له طاقة بدفعه



ومما يستوجب الأسف أنا في السنين الاولى — سنى تكون العادات — لا نكون قد بلغنا حد التفكير الصحيح — ولا تكون لنا قوة على التمييز بين الاشياء تمييزاً صحيحاً واختيار خبرها لاعتاده ، فاذا بلغنا هذه السن وأدركنا عيوبنا وشاهدنا ما نعتاده من عادات سيئة صعب علينا العدول عنها لتصلبها ورسوخها وان كان ذلك ممكناً — ولنضرب لذلك مثلاً عادة التدخين وشرب الخمر فليس كلاهما جذاباً محبوباً بل أن النفس تنفر منهما بطبيعتها لكراهة طعمهما وإضرارهما ، ولكنهما يعرضان للمرء في أيام طيشه وشبابه فيرى بعض من حوله يدخنون ويشربون ويحمله الولوع بتقليدهم وظنه أن ذلك يزيد في قدره عندهم على أن يعمل مثل عملهم — ولو لم يتعودها حتى نما عقله ونضجت قوة حكمه على الاشياء لندر أن يعتادها — ومن هذا تعلم عظم مقدار ما يستفيد الانسان اذا رزق بمرب صالح والضرر الجسيم إن هو أهمل أو أصيب بمرب فاسد

الارادة x

قدمنا أن الاعمال قسيمان : أعمال غير ارادية أعنى لاعمل فيها
للارادة كضربات القلب وعملية التنفس وعملية الهضم — وأعمال
ارادية وهى التى تكون الارادة سبباً في وجودها كالكتابة والخطابة
والاعمال المعتادة كالمشى والصلاة والقراءة تحتاج الى الارادة
لاخر اجها من حيز الوجود فاذا بدى فيها لم تحتاج الى الارادة لتكميلها
ولنضرب الآن مثلاً لعمل ارادى ثم نحمله لنعرف موضع
الارادة فيه

هب أنك كنت تكتب فقررت أن تقطع الكتابة وتذهب
الى المائدة لتأكل — هذا عمل ارادى لو حللناه لوجدناه يشتمل على
أشياء (١) شعور بألم الجوع ، وهذا الشعور بالألم — أو اللذة
فى بعض الامثلة — نجده أساساً للأعمال فما لم يوجد لا يوجد
العمل (٢) ميل إلى الأكل نشأ من تصور لذة الشبع المستقبلية
ومقارنتها بألم الجوع الحاضر

ويجب أن يلاحظ أن هذا الميل غير الارادة ، فكثيراً ما يوجد
الميل ولا توجد الارادة وكثيراً ما تحدث أميال متعارضة كما فى مثلنا
هذا فقد يميل إلى الأكل فى لحظة عند تصور لذة الشبع
والاحساس بألم الجوع وقد يميل فى اللحظة التى تليها الى الاستمرار
فى الكتابة إذا هو تصور اللذة التى تحدث من تنميم الموضوع

الذي يكتبه وألم النقص الحاضر وهذه الحالة تسمى (٣) « حالة التروى » وهي التي يتردد فيها الفكر بين ميلين أو أميال متعارضة ويوازن بين نتائج الاميال المختلفة

وبعد ذلك يترجح أحد الاميال ويقبل العقل أحدها ويرفض الباقي ويسمى الميل المتغلب « رغبة » ثم يأتي (٤) العزم أو التصميم على العمل وهذا العزم هو المسمى بالارادة ثم يتبعها العمل

وليس العمل يتبع الارادة دائماً، فالإنسان قد يعزم على شيء قريب أو بعيد ففي الاشياء القريبة المباشرة للعزم يتحول العزم الى عمل كما إذا أراد أن يحرك يده الآن ويأخذ الكتاب الذي امامه وأما إذا كان الشيء المراد بعيداً كما إذا عزم أن يذهب غداً إلى مكان كذا أو يتعلم في أول السنة القادمة لغة كذا فقد يتحول هذا العزم إلى عمل إذا لم يتغير العالم المستولى على فكره وقد لا يتحول لان الاحوال التي كانت موجودة وقت العزم قد تغيرت والصورة التي كانت مرسومة في الذهن عند الارادة قد دخل عليها تعديل ، فوجد العزم ولكن لم يوجد العمل عند مجيئه ، وقته

فترى من هذا أن العمل الارادى يتضمن (١) شعوراً و (٢) ميلاً و (٣) تروياً و (٤) عزمًا وهو المسمى بالارادة ثم العمل بعد ذلك قد يكون وقد لا يكون

ولسنا الآن بصدد تشريح هذه الحركات النفسية تشريحاً دقيقاً تفصيلياً فوضع ذلك علم النفس ، وانما غرضنا أن نبين هنا

ما الذي يسمى بالارادة حتى لا تختلط بغيرها من أعمال النفس
الارادة قوة : الارادة قوة من القوى كالبخار أو الكهرباء ،
فهي المحرك للانسان وعنها تصدر كل الاعمال الارادية وجميع
ملكات الانسان وقواه تكون في سببات حتى توقظها
الارادة ، فهارة الصانع وقوة عقل المفكر وذكاء العامل وقوة
العضلات والشعور بالواجب ومعرفة ما ينبغي وما لا ينبغي كل
هذه لا أثر لها في الحياة ما لم تدفعها قوة الارادة ، وكلها لا قيمة
لها ما لم تحولها الارادة إلى عمل

والأرادة نوعان من العمل فقد تكون دافعة وقد تكون
مانعة ، أعني أنها تارة تدفع قوى الانسان إلى عمل كأن تحمله
على القراءة أو التأليف أو الخطابة وتارة تمنع القوى عن السير
كأن تحرم عليه القول أو الفعل

وهي بنوعها منبع لكل الخيرات والشرور ، فجميع الفضائل
والرذائل ناشئة عن الارادة فالصدق والشجاعة والعفة ناشئة
أما عن ارادة تدفع قوى الانسان إلى السير في طريق خاص
أو من أخري تمنعها عن السير في طريق معين وكذلك الشأن
في الكذب وغيره من الرذائل

قوة الارادة : نعني بالارادة القوية إرادة تنفذ ما قصدت
اليه مهما كلفها من المشاق ، لا تحجم أمام العقبات تعترضها وإنما

تبذل مافي وسمها لتذليلها ، لاشيء أصعب عندها من عدولها
عن قصدها

هذه الارادة القوية هي سر النجاح في الحياة وهي عنوان
عظماء الرجال ، إذا أزمعوا أمراً لم يثنهم شيء ، يسلكون اليه
كل سبيل ، ويركبون فيه كل صعب وذلول ، قد كان أحد الحكماء
يقول لكل من فشل في عمله « إنك لم تكن ذا إرادة تامة »
وكانت أثقل الالفاظ على سمع نابليون « أنا لا أعرف » « أنا
لا أستطيع » « مستحيل » فكان إذا سمعها يصيح « تعلم »
« اعمل » « اجتهد » وكانت حياته مظهراً من مظاهر عظم
الارادة ، قيل له يوماً « أن جبال الالب ستقف في طريق
جيشك » فقال « سوف لا تكون ألب » واختط له طريقاً لم
يسلك من قبل ، وكانت قوة إرادته وقوة روحه تؤثران فيمن
حوله حتى لقد قال « إني لاصنع قوادى من طين » يريد أن
روحه توحى الى روعهم النشاط والقوة حتى لا يعرفون الملل كالجماد
وقد يعترى الارادة مرض كالذى يعترى الجسم ، من هذه
الامراض

(١) ضعف الارادة بالآتستطيع أن تقاوم الاهواء والشهوات
فيستسلم صاحبها للغضب أو شرب الخمر أو المقامرة متى وجدت
المغريات - ومن مظاهر ذلك أن يرى الانسان الخير في شيء

ويرى وجوب عمله ويعزم ثم تخونه ارادته فيستسلم للكسل والحول
(٢) وهناك نوع آخر من المرض وهو أن تكون الارادة
قوية ولكنها متجهة نحو الشرور كما نشاهد في بعض المجرمين ،
يعزمون على نوع الاجرام فلا يثنى عزمهم شيء ، هؤلاء قد تظهر
فيهم قوة الارادة بأقوى مظاهرها وقد تفضل ارادتهم في قوتها
كثيراً من الخيرين ، ولكن عيهم سوء وجهة ارادتهم ، فاذا
حوالت كانت ارادة قوية في الخير كما هي قوية في الشر

علاج الارادة : يمكن علاج الارادة المريضة بانواع من العلاج

(١) اذا كانت الارادة ضعيفة يمكن تقويتها بالمران كما يمكن
أن يقوى الجسم « بالرياضة البدنية » والعقل بالبحث العميق الدقيق ،
فبالزام النفس بالاعمال التي تتطلب جهداً ومشقة تتقوى الارادة
وتعود أن تغلب على المصاعب ، وتشعر النفس بالارتياح من
مغالبة الصعاب والتغلب عليها كما يشعر ذو الجسم القوى بالارتياح
عند اتيانه بتمرين من الالعاب شاق ونجاحه فيه ، وكل مجهود يبذل
في مقاومة هوى أو شهوة ثم يؤول الى التغلب عليها يكسب الارادة قوة
(٢) يجب أن لا تترك ارادتنا تتبخر من غير أن ننفذ ما عزمنا
عليه فان ذلك يضعف الارادة ويكسبها عادة الفشل في التنفيذ
فاذا عزمنا عزيمة يجب أن نحاول — ما استطعنا — تنفيذها ولا
نسمح لانفسنا بتبخرها من غير ان تتحول الى عمل

(٣) اذا كانت الارادة قوية ولكن مرضها في اتجاهها أعني أن

اتجاهها انما هو نحو الجرائم والشرور فعلاجها أن نعرف النفس طرق الخير والشر ونزودها ببيان نتائجهما ونلزمها باطاعة بواعث الخير ونحيطها بكل ما يجب اليها الخير حتى تتجه الجهة الخيرة ، ويجب أن تدرع بالصبر في مقاومة ميها الى الشرور حتى تهتدي الى الصراط المستقيم كما نفعل بالشجرة الفتية اذا نحن آسنا منها اعوجاجاً فأنا نحيطها بكل ما يصلح وجهتها ونقاوم اعوجاجها مدة حتى تستقيم قناتها ولا يستطيع شيء تعويجها

حرية الارادة : من المسائل التي شغلت عقول الناس قديماً وحديثاً وثار بسببها الجدل بين الفلاسفة بعضهم مع بعض وبين رجال الدين وبين علماء الاخلاق مسألة « حرية الارادة » وبعبارة أخرى مسألة الجبر والاختيار أعني : هل ارادتنا حرة في اختيار العمل الذي نعمله ؟ . هل العامل مختار في أن يفعل والا يفعل ويستطيع ان يشكل عمله بما يشاء . ؟ هل نحن أحرار في اتباع ما تأمر به الاخلاق فنستطيع أن نطيع ونستطيع أن نعصى ؟ هل الارادة حرة أمام القضاء والقدر ؟ أو نحن مجبورون على السير في طريق خاص لا يمكننا أن نتعداه وأن ما حصل ما كان يمكن أن يحصل غيره وان ارادتنا معلولة بعلة فاذا حصلت العلة حصل المعلول لا محالة ؟

انقسم الباحثون في الاجابة على هذه المسئلة الى قسمين ،
وقديماً اختلفوا ولا يزالون مختلفين الى اليوم ، ففلاسفة اليونان

كان بعضهم يرى أن الإرادة حرة في الاختيار كالرواقين وبعضهم كان يرى أنها مجبورة على السير في طريق لا يمكنها أن تتعداه ولما بدأ العرب يبحثون في العلم اعترضتهم هذه المسألة، فغلا قوم وقالوا أن الانسان مجبور وليس له ارادة حرة بل ان القدر يصرفها حسب ما يرسم لها والانسان كالريشة في مهب الريح أو كالقشرة بين يدي الامواج، لا ارادة له ولا اختيار وانما يجري الله العمل على يديه؛ وغلا آخرون فقالوا أن ارادة الانسان حرة وفي استطاعته أن يعمل الشيء وضده وهو يفعل ما يختار، واشتد الجدل بين الفريقين وأدلى كل بحججه مما لا محل لذكرها هنا وفي العصور الحديثة عادت المسألة الى الظهور وعاد الخلاف فذهب بعض الفلاسفة كسبينوزا وهيوم ومايبرانش الى الجبر وذهب أكثر الفلاسفة الى حرية الارادة واثبات الاختيار وقد اتخذ البحث في الايام الاخيرة شكلا جديداً فذهب بعض غلاة الجبر كروبرت أون^(١) الى أن الانسان مجبور، يجبره ما حوله من الظروف، فمن نشأ بين مجرمين وسمع أحاديثهم وكان كل ما حوله يدفعه الى الاجرام كان مجرماً لا محالة ولم يكن له اختيار في أن يكون مجرماً أولاً، ومن نشأ في بيئة طيبة وربى تربية صالحة وأحيط بكل ما يحمله على الخير كان لا شك خيراً،

(١) روبرت اون مصلاح اشتراكى انجليزى (١٧٧١-١٨٥٨) وصف سوء حالة العمال ودافع عنهم وأعد الاذهان للنظر في شؤونهم والعطف عليهم وله كتابات في ذلك وتطبيقات عملية على نظرياته

ومن ثم كان أكبرهم « أون » في الاصلاح موجهاً الى اصلاح الظروف التي تحيط بالانسان

وغلا آخرون في الطرف الآخر فقالوا ان ارادة الانسان حرة حرة مطلقة لا تقيدتها الظروف ولا غيرها

والذي نميل اليه أن الانسان مجبور نوعاً من الجبر وحر نوعاً من الحرية، أما نوع الجبر فان الارادة خاضعة لعاملين عامل نفسي وعامل خارجي فالعامل النفسي هو ما ورثه الانسان من آبائه فانها تشكل الارادة بشكل خاص بحيث لا تستطيع التخلص منها، فلو أمرك أمر أن تحب عدوك لكان أمراً غير داخل في مقدورك لانه ينافي غريزة حب الذات ولكن في الاستطاعة أن يأمرك ألا تتعدى على عدوك، ومن ثم كان فشل كثير من المصلحين « السكاليين » سببه أن نوع اصلاحهم خيالي لا يتفق مع الغرائز الموروثة كالذين يدعون الى الغاء ملكية الافراد دفعة واحدة واحلال الملك العام محلها، فان هذا يتنافى مع ما ورثه الناس من قرون من الميل الى الملك الخاص، والاصلاح النافذ هو الاصلاح الذي يتمشى مع الغرائز ويرقيها ترقية لا تتناقض دفعة واحدة مع طبيعتها، والعامل الخارجي هو قوة التربية والبيئة وما قرره علماء الاجتماع من ان الانسان يتأثر في أعماله

— الى درجة كبيرة — بأعمال المجتمع الذي يعيش فيه

هذان العاملان يقيدان الارادة ويرسمان له طريقاً للعمل

حتى نستطيع أن نتنبأ بما سيعمله الانسان الذي تكونت أخلاقه
أما نوع الحرية فان الغريزة والبيئة والتربية لا تسلبه اختياره
بدليل ما نشعر به من انفسنا من حرية الاختيار ولولا ان ارادة
الانسان حرة في اختيار الخير والشر لكانت التكليف الاخلاقية
والامر والنهي ضرباً من العبث ، ولما كان هناك معنى للشواب
والعقاب والمدح والذم

الوراثة والبيئة

كانت العقيدة الفاشية قديماً أن الناس يولدون على السواء
في نفوسهم وفي استعدادهم وانما التربية هي التي تخالف فيما بينهم،
ولكن العلم الحديث يرى أن ليس شخصان يخرجان إلى هذا
الوجود متساويين لاجسماً ولا عقلياً ولا خلقياً، وهذا الاختلاف
بين الاشخاص قد يدق حتى يقرب من التماثل وقد يبعد حتى
يصل إلى التباين حتى ترى هذا الاختلاف بين التوأمين، وهذا
الاختلاف يرجع أولاً إلى « الوراثة » ثم إلى « البيئة »

ما الوراثة ؟ من القوانين الطبيعية أن الفرع يشبه أصله
وأن الاصل ينتج مثله، فنرى الاطفال يشبهون أصولهم، ويحملون
خصائصهم وإن بعدت الأصول — وانتقال الخصائص من
الأصول إلى الفروع هو ما يسمى بالوراثة
أصبح قانون الوراثة على الاجمال من القوانين الثابتة الصحيحة

التي لا مجال للشك فيها، وان كان هناك خلاف كبير بين العلماء فيما يورث وما لا يورث وفي القدر الموروث، وان كان أيضا لا يزال هناك غموض في بعض قوانين الوراثة لم يستكشفه العلم إلى الآن ونحن نبسط هذه النظرية بذكر أنواع ما يورث

(١) وراثة الخصائص الانسانية - في كل مكان يرث الناس من أصولهم صفات مشتركة كالشكل والحواس والشعور والمواطف والعقل والارادة، فهي تنزل للانسان من أسلافه جيلا عن جيل وبهذه الخصائص الانسانية الموروثة تغلب الانسان على الطبيعة في أمور فشل فيها سائر الحيوان

(٢) الخصائص القومية - أن وراثة عادات كل أمة خصائص يتوارثها خلف عن سلف، وهذه الخصائص تجعل افراد كل أمة تخالف أفراد الامة الاخرى لافي سجنها بحسب بل في صفاتها العقلية أيضا كما قرره علماء مميزات الاجناس البشرية Ethnologists فالزنج والمغول والاجناس اللاتينية وغيرهم لهم صفات يشاركون فيها سائر الناس ولكن لكل منهم فوق ذلك صفات خاصة تمتازون بها عن غيرهم، وكما انك اذا رأيت انسانا عرفت بالمران اشرقى هو أم غربي وانجليزي أم فرنسي فكذلك إذا أنت بحثت عرفت أن هناك صفات عقلية وخالقية لكل أمة، وهذه الصفات الخاصة تحدد مقدار استعداد الامة للرقى والنجاح في الحياة

(٣) خصائص الابوين - كل ولد يرث من أبويه صفاتهما ولست

أعنى عاداتهما ولا صفاتهما المكتسبة في حياتهما ولكن أعنى الصفات الأساسية كالغرائز — فنحن نرث طباع آبائنا وكفائتهم كما نرث قامتهم وشكلهم ولذلك قيل « إن أردت ولداً صحيحاً قويا فتخير له آباءً أصحاء أقوياء » ويقول الشاعر العربي في وصف ابنته

أعرف فيه قلة النعاس وخفة في رأسه — من راسي

فليس الطفل الذكي ذكياً اتفاقاً ولا الكسول ولا جامد العواطف بل كل هذه الأوصاف لها علاقة كبيرة بالمجموع العصبي الموروث من أسلافه ، وكل غرائزنا صدى لغرائز آبائنا

وليس من المعقول أن يرث الولد كل الصفات الأساسية لابويه معاً فقد يكون لابويه صفات متناقضة كأن يكون الأب جباناً أو أبلاً والام جريئة وذكية وان كان لما يصل العلم إلى تحديد المقدار الناتج — بالوراثة — من امتزاج كميتين مختلفتين

و مع أن الولد يرث من آباءه صفات لهم فانه يحفظ شخصيته بصفات خاصة لا يشارك فيها آباءه وبها يمتاز عن غيره في شكله وسخنته ولونه وعواطفه وعقليته وأخلاقه، وهذه الصفات الخاصة يورثها الأولاد للجيل الذي بعده مع محافظة كل فرد من أفراد هذا الجيل على شخصيته أيضاً

وكثيراً ما يحدث في الوراثة أن الابوين تكون لهما صفات خاصة ولا تظهر هذه الصفات في نسلهما ولكن تظهر بعد ذلك في الاحفاد أو أبناء الاحفاد وبعبارة أخرى قد تظهر في

الاجيال التالية للجيل الاول كما شوهد في أب مصاب بعمى اللون
يلد بنات ليس لهذه العاهة أثر فيهن حتى اذا نسل هؤلاء البنات ذكوراً
ظهرت فيهم هذه العاهة - وأيضاً قد تلد الام الصحيحة ابناً يموت
بمرض قد أصيب به جده الاكبر الاذنى أو الاعلى - ويقال مثل ذلك
في الامور العقلية والخلقية - وعلى الجملة فان الوراثة مع الجزم بصحتها
لا يزال كثير من قوانينها غامضاً الى اليوم والعلم يجد في استكشافه
ويجب ان نلاحظ أننا اسنا نرث من آبائنا غرائز نامية ولا
ملكات ناضجة انما نرث منهم استعدادات وجراثيم فقط، فلم يولد
سحبان فصيحاً ولا الحجاج سفاكاً ولا نابليون حريماً ولكنهم
ولدوا وفيهم استعدادات كامنة صادفها بيئة صالحة لنموها فنمت
وذلك علة النبوغ - وكثير من هذه الاستعدادات والقوى
الكامنة تتأخر في الظهور وقد لا تظهر الا بعد سنين، اما لان
البيئة لم تكن صالحة لنموها أو نحو ذلك



ويختلف الناس في القدر الموروث من هذه الاستعدادات
والجراثيم كما يختلفون في صفة الموروث مثلاً «ا» يرث حب الذات بمقدار
٦٠ وخوفاً بقدر ٤٥ وغضباً بقدر ٥٠ بينما «ب» يرث من حب الذات
بمقدار ٨٠ ومن الخوف ٢٠ ومن الغضب ٦٥، وصفات القدر الموروث
عند ا قد يخالف صفاته عند ب وهكذا، وقد يمنح بعض الناس كمية
كبيرة من غريزة حتى تضعف بجانبها الغرائز الاخرى، فترى مثلاً

في سقراط حب الاستطلاع والبحث نامياً نمواً لم يجبل مجالاً
اظهار غريزة أخرى فيه ظهوراً ييناً وهكذا

الصفات المكتسبة - ومع أن العلماء يكادون يتفقون على
أن الصفات الأساسية - جسمية كانت أو عقلية أو خلقية - تنتقل
من الاصول الى الفروع فقد اختلفوا في الصفات المكتسبة التي
حصلها الانسان في حياته ولم يرشها عن أب وجد، فذهب بعض العلماء
ومنهم دَرُون ولامارك وهربرت سبنسر الى ان الاوصاف
المكتسبة قد تورث الى حد محدود، فابن المصاب بعاهة عرضة لأن
يصاب بها وابن من اكتسب فرعاً من فروع العلم أو خلقاً من الاخلاق
أقرب لان يتصف به ممن لم يولد من أب كذلك اذا استوى المولودان
في الصفات الأساسية، وانكر اكثر علماء الحياة انتقال ما يكتسبه
الفرد في حياته الى فروعه كما هو الشأن في الامراض والعاهات الطارئة
فكما أن من فقد ذراعاً أو احدى عينيه أنتج اولاداً غير متأثرين
بتلك العاهة فكذلك من اكتسب صفة من الصفات لا يورثها بنيه
وليست الوراثة هي العامل الوحيد في تكوين الانسان فيجبانها
البيئة عامل آخر قوى يعمل معها ويصلحها أو يفسدها كما سنبين ذلك

البيئة - تطلق البيئة على الاشياء التي تحيط بالجسم الحي فينمو
فيها، فبيئة النبات تربته وجوه الخ وبيئة الانسان الوسط الذي يعيش
فيه من بلد وبحار وأنهار وجو وقوم

وهي اما بيئة طبيعية (مادية) واما اجتماعية أو (روحية)

أما البيئة الطبيعية فقد عني الكتاب من عهد أفلاطون الى
يومنا هذا بشرحها بيان تأثيرها وكتب عنها ابن خلدون في مقدمته،
فالجسم الحي يتوقف نموه بل وحياته على حالة البيئة التي يعيش فيها
فإن لم تكن صالحة له ضعف ومات، فللهواء والضوء والجو ومعادن
الارض وموقع البلاد وما فيها من بحار وأنهار ومرافق، وكل المرافق
تأثير في صحة السكان وحالتهم العقلية والخلقية، فالجسم الحي إذا لم تنده
البيئة بمحاجاته المناسبة له وقف نموه، وليست حياة الجسم الا تفاعلا
بينه وبين بيئته، كذلك الشأن في الحياة العقلية فهي ليست الا تفاعلا
بين العقل وما يحيط به، فالعقل لا يبقى ولا يرقى الا بتفكيره فيما حوله
واستفادته من البيئة التي تحيط به، قال أحد الكتاب الحديثين « أن
المؤرخين من عهد بعيد أبانوا ما للاقليم وسائر الاشياء
الجغرافية من عظم التأثير في رقي الشعوب، فالجبال وطول الشواطىء
في بلاد اليونان والهضاب السبع في رومه والشتاء القارس والليل
الذي لا يحتمل في جرينلند والشمس المحرقة والحر الشديد في افريقيا
والحقول الخصبية في امريكا استغرقت من المؤلفات فصولا لبيان
تأثيرها في حال السكان — ولو أنك غيرت بيئة الاسكيميين
بيئة سكان نيو انجلندا وغيرت بيئة البريطانيين بيئة الحبشى لاشاهدت
تغيراً في الاخلاق كبيراً، وانا نستطيع أن نقول أن مكان ولادة
الانسان ليحدد — الى درجة ما — كثيراً من صفاته أعامل أم حالم
وكسول أم مجد ومتوحش أم متمدين »

وليس الانسان مكتوفاً امام البيئة لا يستطيع تعديلها والتغلب عليها بل هو بما منح من عقل و ارادة يستطيع ان يستخدم ما حوله في مصلحته، وبعبارة أخرى أن الصفات الموروثة تجدد الفرص سانحة لرقبها في البيئة التي حولها، ومقياس نجاح الاشخاص في الحياة أو فشلهم هو قدرتهم على استخدام ما حولهم والتسلط على ما يحيط بهم ليحولوه الى نفعهم — ومن أهم أغراض التربية اعداد الشخص في الحياة لذلك

والنوع الثاني من البيئة «البيئة الاجتماعية» وهي تشمل النظم الاجتماعية التي تحيط بالشخص من منزل و مدرسة، ومهنة و حكومة وشعائر دينية، ومعتقدات، وأفكار، وعرف، ورأي عام، ومثل أعلى، ولغة، وأدب، وفن وعلم وأخلاق، وبالجملة كل ما أنتجته المدنية والانسان في بداوته أكثر تأثرًا بالبيئة الطبيعية فاذا نال حظاً من المدنية كان للبيئة الاجتماعية عليه السلطان الأكبر وصار أقدر على تغيير البيئة أو التسلط عليها أو تعديل نفسه على وفقها، ففي الجو الحار يتخذ رقيق الثياب وأيضا يتقى بها أذى الحر ويبني بيوته على نمط خاص يرطب الجو، واذا لم يكن لبلده مرفأ على البحر يتخذ مرفأً صناعياً، واذا لم تكن أرضه صالحة للزراعة استخدم العلم في اصلاح الارض، واذا قصرت القوة الطبيعية في شئ، استخدم قوة أخرى طبيعية كالبخار والكهرباء لتعوضه عما فقد وعلى الجملة فالانسان وان كان يتأثر ببيئته طبيعية كانت أو اجتماعية الا أنه بما منح من

عقل يستطيع — الى حد ما — أن يعين البيئة التي تناسبه ثم يجتهد في خلق تلك البيئة

والبيئة بنوعها أثران متضادان فقد تغذى الانسان وترقيه وقد تضعفه وتغنيه، كالنبات في المنبت السوء لا تزال يبيته به حتى حتى تضعفه أو تميته وفي المنبت الصالح يربو وينبت من كل زوج بهيج « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً »، كذلك الانسان أن نشأ في بيئة صالحة من بيت طيب ومدرسة راقية ورفقة مؤدبة، يحكمه قانون عادل ويدين بدين صحيح، نبت خير منبت وكون أحسن تكوين والافأ أحرأه أن يكون شريراً — وكثير من الامراض الاجتماعية والاخلاقية سببه البيئة فالفقر وكثرة التسولين والعجزة وسوء الخلق نتيجة تربية فاسدة — غالباً — ونشأة في وسط غير صالح وسوء نظام المجتمعات ولذلك ترى المجرمين من سرقة وكسالى وقتلة من أولاد الشوارع والحارات الذين لم يتخرجوا من بيت طيب ولا مدرسة صالحة، أهملوا فأثرت البيئة فيهم أسوأ الأثر

العلاقة بين الوراثة والبيئة — لم يبق مجال للشك في أن الوراثة والبيئة معاً يحددان قيمة كل جسم حي ونجاحه أو خيته، وانما موضع الخلاف الآن القيمة النسبية لكل من الوراثة والبيئة أعني أيهما أكبر تأثيراً في الكائن الحي وأعمل في رقيه، وقد اهتم الباحثون المصريون بهذا الموضوع لما يترتب عليه من الاصلاحات

الاجتماعية وذهبوا فيه مذهبين: فذهب بعض العلماء وعلى رأسهم فرنسيس جالتون Francis Galton و كارل بيرسن Karl Pearson الى ان الوراثة أكبر مؤثر في الانسان، وليست البيئة الا عاملاً ضعيفاً إذا قيست بالوراثة — قالوا — « بالوراثة يقدر على الانسان نوع نفسه من يوم ولادته، وبها تصاغ أخلاقه وبها تحدد بنيته وبها يعين مقدار عقله، وأهم ما يساعد على رقي النوع الانساني هو اصلاح الوراثة باصلاح الانتخاب بين الزوجين ومنع التوالد بين من لا يصلحون للانتاج طبيعياً أو خلقياً »

وذهب كثير من علماء الحياة والاجتماع — وخاصة المحدثين منهم — الى أن ما نسب الى الوراثة من القيمة الكبرى اكثر من الحقيقة، فكثر العيوب الجسمية بسببه البيئة لا الوراثة، وان أكثر من ثمانين في المائة من الاطفال يولدون صحيحي البنية والبيئة هي التي تمرضهم وكذلك الطفل يولد مسلحاً بالعقل المرن القابل للنمو وحسن الاستعداد وهذا هو ما يمنحه بالوراثة ولكن رقى هذه المواهب يعتمد على البيئة، واذا نحن أزلنا الظروف السيئة التي تحيط بالاشرار صلح أكثرهم، وليس الاجرام كما يقول بعضهم مسألة وراثه، بل هو اكثر ما يكون نتيجة البيئة — وليس أدل على قوة أثر البيئة مما يشاهد من أن أبناء الحارات والشوارع إذا انتزعوا وهم صغار من بيئتهم الفاسدة تغيرت أخلاقهم تغيراً كبيراً وشبوا شباباً حسناً، وهم لو تركوا في بيئتهم لشبوا متشردين أو

مجرمين حتى قال بعضهم « لا أثر للأباء مهما ساءوا اذا أخذت
الاولاد منهم قبل أن يدنسوا بهم واحيطوا ببيئة طيبة ». ولوان
سقراط نشأ في بيئة لا تساعد عقله على النمو ما كان فيلسوفاً
بل كان رجلاً خاملاً وكذلك كل نابغ، وكثير مما ينسب الى الوراثة
يجب - اذا دقق فيه - أن ينسب الى البيئة ولا سيما ما يسمونه
بالوراثة الاجتماعية ويعنون بها النظام الاجتماعى للامة والنظم
السياسية والافكار والآراء العامة فهذه تؤثر في عقول الافراد
وتصوغها في قالب خاص ثم يرثها الخلف من السلف - وهذه في
الاصل لم تكن الا بيئة

ومعها يكن من الخلاف فان البيئة والوراثة هما العاملان

المكونان للجسم والعقل واخلق كما يقول الشاعر العربي

رأيت العقل عقاين فطبوع ومصنوع

ولا ينفع مصنوع إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء الشمس ممنوع

وكما يقول بعضهم هما كالمضروب والمضروب فيه اذا كان أحدهما
صفرأ كان الناتج صفرأ ويتضاعف أحدهما بالآخر، ولا تستطيع البيئة
ومنها التربية أن تخلق شيئاً لم يكن ولا أن تجعل من الابله فيلسوفاً
ولا من حرم خفة اليد مصوراً ماهراً ولو لكان يجب أن يحاط كل ناشئ
بالبيئة الصالحة لتصلحه على قدر استعداده، ومن المستحيل أن يوزن
كل من الوراثة والبيئة بالميزان الدقيق وتوضع نسبة دقيقة بينهما

الخلق X

عرف بعضهم الخلق بأنه « عادة الارادة » يعنى أن الارادة اذا اعتادت شيئاً فعاتتها هى المسماة بالخلق، فاذا اعتادت الارادة العزم على الاعطاء سميت عادة الارادة هذه خلق الكرم، وقريب من هذا التعريف قول بعضهم هو تغلب ميل من الاميال على الانسان باستمرار، فالكريم هو الذي يتغلب عليه الميل الى الاعطاء، وبوجد عنده هذا الميل كلما وجدت الظروف الداعية اليه الا في أحوال نادرة، والبخيل من يغلب عليه الميل الى التقود ويفضله على البذل

وعلى هذا يكون الرجل الطيب هو الذي تتغلب عليه الاميال الطيبة باستمرار، وعكسه الرجل الخبيث أو الشرير أما من لا يتغلب عليه ميل خاص باستمرار فلا خلق له، فالذي يميل الى الاعطاء فيعطي مرة ويميل الى الادخار في ظرف مثل ظرف الاعطاء فيبخل فليس كريماً ولا بخيلاً، وليس له خلق ثابت، وكثير من الناس لا أخلاق لهم بهذا المعنى، تختلف أميالهم وأعمالهم من آن لآخر، يقابلهم الكريم فيجب اليهم الكرم فيبذلون ويقابلهم البخيل فيدعوم الى الشح فيضنون من هذا نفهم أن الخلق صفة نفسية لاشى، خارجى، أما المظهر الخارجى للخلق فيسمى « سلوكاً » أو معاملة، والسلوك دليل

الخلق ومظهره ، فاذا رأينا معطياً يعطى باستمرار في الظروف المتشابهة استدللنا من ذلك على وجود خالق الكرم عنده وهكذا ، أما العمل الفذ الذي يحصل مرة أو مرتين فليس دليلاً على الخلق تربية الخلق — هناك أمور تعين على تربية الخلق وترقيته ، نذكر لك أهمها

(١) توسيع دائرة الفكر وقد علق عليه هربرت سبنسر أهمية كبرى في ترقية الخلق ، وحقاً أن الفكر الضيق مصدر لكثير من الرذائل ، وإن العقل المخرف لا ينتج عنه خلق راق ، انظر الى جبن كثير من الناس ترسببه خرافات ملأت أدمغتهم من عفاريت وغيرها ، وكثير من القبائل المتوحشة يعتقدون ان العدل انما يجب عليهم نحو أفراد قبيلتهم ، أما نحو غيرهم فليس من الظلم أن تسلب أموالهم ولا أن تهدر دماءهم

دائرة الفكر ان كانت ضيقة انبعثت عنها أخلاق منحطة كالذي نشاهد في الأثر (الاناني) الذي لا يجب الخير الا لنفسه ولا يرى في الوجود من يستحق الخير الا هو ، وعلاج هذا أن يوسع نظره ليدرك قيمته في أمته وليعلم أنه ليس الاعضواً من جسم ، وليس هو كما يزعم مركز الدائرة بل هو كغيره نقطة على المحيط

ضيق النظر يشل العقل ويصدده عن رؤية الحق ويجعل أحكامه

التي يصدرها - سواء أكانت أحكاماً علمية أو خلقية - ناقصة أو باطلة - ألقى أستاذ محاضرة في جامعة كاليفورنيا ذكر فيها أن بعض جبال « ألسنكا » أعلى من جبال « كاليفورنيا » فتقدم إليه طالب بعد اتمام المحاضرة وقال له « انى الأخط شيناً في محاضرتك ألم عواطفى فأنا معشر الكاليفورنيين لانشاء أن نسمع أن جبالا أعلى من جبالنا » هذا مثل من ضيق العقل ، فان حبه لبلده جعله لا يسمح لاحد أن يذكر أن جبلا أعلى من جبل بلده ، وكثير من الناس أنظارهم في الحياة مثل هذا أو قريبة منه ، وعن هذا النظر القاصر تصدر أعمالهم وتكون أخلاقهم ، اعتبر ذلك فيما جرى بين المتدينين بالاديان المختلفة كيف سالت الدماء بينهم أنهاراً وكيف كان النظر الضيق والتعصب الدينى مثاراً للفتن والنزاع والقتال ، بل تأمل في نظر كل أمة الى اعمال الامم الاخرى والى ما يحكم به كل فرد من أمة على عادات الامم الاخرى وأعماله أترانه يتحزب لامته ولا يعدل في حكمه حتى قد يجره ذلك الى عد الظلم عدلاً والعدل ظلاماً - ولا يمكن للانسان أن يتخلص من هذا التحيز إلا اذا أحب الحقيقة أكثر مما يحب رأيه وأمته ، وشغف بالبحث عنها ، إذن يتسع نظره ويصح حكمه ويتبع ذلك رقى خلقه

(٢) صحبة الاخير - مما يربى الخلق صحبة الاخير ، فالانسان مولع بالتقليد ، فكما يقلد من حوله في أزيائهم يقلد في أعمالهم ويتخلق بأخلاقهم قال حكيم « نبئنى عنن تصاحب أنبئك من

أنت « فعاثرة الشجعان تلقى الشجاعة في نفوس الجبناء. وهكذا، وكثير من النابغين يعززون نبوغهم الى أنهم وفقوا الى اختيار صاحب أو أصحاب أثر أو فيهم أثراً صالحاً ونهوا فيهم قوى كانت خاملة. (٣) مطالعة سير الابطال والنابغين، فان حياتهم تمثل أمام القارىء، وتوحى اليه بتقليدهم والافتداء بهم، ولم تخل كل أمة من أبطال لا يقرأ القارىء ترجمة حياتهم إلا يشعر بأن روحاً جديدة دبّت فيه وحرركته للآتيان بمعظم الأعمال، وكثيراً ما دفع الناس الى العمل الجليل حكاية قرءوها عن رجل عظيم أو حادثة رويت عنه ويتصل بهذا النوع الامثال والحكم فانها أفعل في النفس، وأقرب حضوراً الى الذهن، وفيها تتركز المعاني المنبسطة كما يتركز البخار المنتشر، في قطرات المطر.

علاج الخلق: كان أرسطو يقول « اذا تعدى خلق امرئ حده فليقومه بالميل الى ضده » فاذا أحس من نفسه بأفراط في نوع من الشهوات فليضعف هذا الميل بشيء من الزهد وليلاحظ أنه خير للانسان اذا أراد التخلص من خلق سيء، ألا يديم التفكير فيه وألا يطيل محاسبة نفسه، بل يجتهد أن ينشئ محله خلقاً جديداً كريماً، فان اطالة التفكير والمحاسبة قد تؤدي الى انكماش النفس والاحساس بضعفها ونقصها وفقدان الثقة بها، أما أن هو أخذ ينشئ محل القديم السيئ جديداً صالحاً نشطت نفسه وانفتح امامها باب الرجاء، فمن كان سكيراً مثلاً فلا يطل

التفكير في أنه سكير الا بمقدار ما يتحول عن هذا العمل، وليوجه
همه وميله الى عمل جديد كطالعة كتاب لذيذ أو القيام بعمل عظيم
يستغرق فكره، وينسيه سكره، ومن اعتاد أن يضيع أوقاته في
محال الملاهي وفي أندية اللعب فلا يرسم لنفسه خطة جديدة، ويحبب
اليها عملاً مفيداً فبذلك يتحول عنده الميل السيء الى ميل آخر
صالح وهكذا

الوجدان

أو

الضمير (١)

يلاحظ الانسان أن في أعماق نفسه قوة تحذره من فعل الشر
إذا أغرى به، وتحاول أن تصده عن فعله، فإذا هو أصر على
عمله وأخذ يفعل أحس بعدم ارتياح أثناء الفعل لعصيانه تلك القوة،
حتى إذا أتم العمل أخذت هذه القوة توبخه على الاتيان به وأخذ
يندم على ما فعل

كذلك يحس بأن هذه القوة تأمره بفعل الواجب، فإذا بدأ
في عمله شجعتة على الاستمرار فيه، فإذا انتهى منه شعر بارتياح
وسرور، وبرفعة نفسه وعظمتها

هذه القوة الآمرة الناهية تسمى «الوجدان» وهي كما رأيت

(١) كلمة الوجدان أو الضمير موضوعة لكلمة Conscience

تسبق العمل وتقارنه وتلحقه ، فتسبقه بالأرشاد الى عمل الواجب والتحذير من المعصية ، وتقارنه بالتشجيع على اتمام العمل الصالح والكف عن العمل السيء ، وتلحقه بالارتياح والسرور عند الطاعة ، والأحساس بالألم والوخز عند العصيان

هذا الوجدان نشعر به كأنه صوت ينبعث من أعماق صدورنا ، يأمرنا بعمل الواجب ويحذرنا من المخالفة ولو لم نرج مكافأة أو نخش عقوبة خارجية ، ركبت سيدة باخرة فلما وصلت الى المكان الذي تقصده ساعدها انسان في حمل متاعها فأعطته نوعاً من العملة ظنته قطعة من ذات القرشين فبعد قليل أدركها وأخبرها أن ما أعطته إنما هو نصف جنيه ، لم تر السيدة هذا الانسان من قبل ولا تتوقع أن تراه من بعد ، وما كان يخشى أحداً يعلم بما حصل ، فما الذي حمله على أن يرد ما أخذه خطأ ؟ لاشيء ، الا الوجدان يأمر صاحبه بعمل الواجب لالمثوبة ولا لعقوبة الا مثوبة نفسه بارتياحها وعقوبتها بالندم والتأنيب

نشوء الوجدان : كثير من الحيوانات التي تعيش جماعات تخضع لعادات تعورفت فيما بينها ويكون مخالفتها محلاً للعقوبة من سائر القطيع ، ويظهر أن كل فرد منها يشعر نوعاً من الشعور أن هناك أشياء يجب أن تعمل وأشياء يجب أن تترك

والكلاب من هذا القبيل ، عندها نوع ادراك طبيعي للواجب ، ويرقى هذا الشعور بمخالفتها للانسان حتى لترى الكلب

قد يفعل في الخفاء جرماً كأن يسرق شيئاً من سيده ، أو يخالفه في أمر أمره به ، فيظهر على السكاب نوع من الاضطراب والقلق يعد جرثومة للوجدان . فاذا رقى كان هو الذي نشاهده في الانسان ، ولما كان الانسان بطبعه ميالاً لأن يعيش عيشة اجتماعية خلق وفي طبيعته الميل الى عمل ما يرضى مجتمعه ، والنفور مما يخالفه ، حتى لنرى جرثومة ذلك في الطفل الصغير ، يعلوه الخجل أحياناً فنتبينه في نظراته ، ويدلنا اضطرابه وقلقه على انه ارتكب خطأ ، وينمو هذا الشعور بنمو الانسان حتى يصل به الى حد أن يملأه الفرح والغبطة اذا هو أدى الواجب ، ويدوب أسفاً وندماً اذا عصا ما يأمره به الوجدان

هذا الشعور طبيعي عند الناس حتى عند من لم يتعلم ، والتربية ترقيه كما ترقى كل قوى الانسان وملكانه ، فالمتوحش عنده الشعور في حالة السذاجة كشأنه في حديثه وعرفه وحالته الاجتماعية ، والتمدين عنده هذا الشعور في حالة راقية ، حتى قد يدفعه الى بذل نفسه دفاعاً عن حرية قومه

اختلاف الوجدان : من هذا يمكن أن نفهم أن الوجدان مختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم حتى المتمدينة منها ، فهي مختلفة في تقويم الخير والشر ، ويتبع ذلك اختلافها في الوجدان . فالسكسل في البلاد الباردة أشد مقتناً منه في البلاد الحارة وكذلك الصدق والشجاعة والعدل وسائر الفضائل ، فانها وان اتفقت الامم

في عدها فضائل الا أنها لا ترتبها ترتيباً واحداً . ولا تشعر أمة بأهمية كل فضيلة منها كما تشعر الاخرى . ويتبع ذلك اختلاف الوجدان ، فاذا شعرت أمة بعظم فضيلة كان الوجدان أكثر إيجاباً للآتيان بها وأقوى أمراً في اتباعها .

كذلك يختلف الوجدان باختلاف العصور فاذا قارنت وجدان أمة الآن بوجدانها منذ قرنين أو ثلاثة مضت وجدت فرقاً كبيراً ، فمن قرون كان الاسترقاق مألوفاً وكانت المرأة تعامل معاملة قاسية وما كان الوجدان يستنكر ذلك . واليوم تستهجن الامة كل ذلك وتعيب من ارتكب شيئاً منه

بل الشخص الواحد يختلف وجدانه باختلاف زمانه فقد يرى شيئاً خيراً في زمن حتى إذا رقى فكره رآه شراً والعكس . كالذي شاهدناه في عصرنا هذا : قد كنا منذ سنين قلائل نرى أفراداً من كبار الامة المصرية يوسعون مجال الخلف بين المسلمين والاقباط حتى عقدوا لذلك مؤتمراً للمسلمين وآخر للاقباط يقوم في كل مؤتمر عطاء ملته فيؤيدون مطالبهم ضد الفريق الآخر وفريقهم يصفق لهم . واليوم نرى هؤلاء المفرقين بين الطائفتين من أكبر دعاة الوثام وأصبحوا هم يرون الدعوة الى التفريق من أكبر الجرائم وأعظم الشرور . ذلك لان نظرهم اتسع فرأوا الشر فيما كانوا يرونه خيراً ونهاهم وجدانهم عما كان يأمرهم به من قبل

خطأ الوجدان : مما تقدم نستنتج أن الوجدان ليس بالهادي المعصوم ، فقد يخطئ في ارشادنا إلى الحق والواجب فيما نأبى عمل ما ليس بحق ولا واجب . ذلك لأن الوجدان إنما يأمر باتباع ما يعتقده الانسان حقاً . فاذا كان هذا الاعتقاد خطأ كان الوجدان لا محالة مخطئاً — وكثيراً ما يروى ، لنا التاريخ أعمالاً فظيعة عملت بأرصاد الوجدان . ومن أوضح الامثلة على ذلك محكمة التفتيش في اسبانيا وذلك أنه في عهد فردينند وايزابلا (ملكي اسبانيا) كان يقيم في تلك البلاد كثير من اليهود وقد دخل بعضهم في دين النصرانية أما لا اعتقادهم بصحتها وأما مقصداً إلى سهولة قضاء أعمالهم وما ربهم . وقد اغتنى كثير من هؤلاء المنتصرين وكانوا ممقوتين من اليهود والنصارى جميعاً . كرههم اليهود لانهم خرجوا من دينهم والنصارى لا اعتقادهم أنهم منافقون يبطنون اليهودية ويتظاهرون بالنصرانية . فرجا راهبان الملك والملكة أن يعينا مفتشين يكشفون عن أمر هؤلاء ، فان عرفوا أنهم ليسوا انصارى حقا قتلوهم أو عذبوهم فقبل الملك وتوقفت الملكة حتى أفهمها الراهبان أن النصرانية أصبحت في خطر من المنتصرين فسمحت ، وعينت مفتشين سنة ١٤٨٠ م وابتدأ بفحص اليهود المنتصرين ثم اتسعت سلطتهما فشملت المسلمين والنصارى جميعاً ، فكان يأتي بمن يتهم بأنه ليس كاثوليكياً ويسجن ثم يسأل : فان أجاب بما يتفق مع الكتلكة لم يقبل منه ويعذب حتى يضطره العذاب ان يقول ما ينافي الكتلكة

فيأمر المفتشان بأحراقه حياً أو تعذيبه عذاباً شديداً، فكان مجموع ما أحرق في السنة الأولى ٢٠٨ في اشبيلية وأكثر من الفين في البلاد الأخرى وبعد أن كانت إزابل مترددة في تعيين المفتشين كانت تشجعهم على أعمالهم . وطلبت من البابا أن يوسع سلطتهم وينحهم الحرية في تدخلهم في أسرار الناس ، فحبسوا كل من يتهم بالزندقة ، وأهملوا المتهمين في السجن ماشاءوا من غير أن يحاكموهم وكان أخلص الناس للكثلكة عرضة للتهمة ، ولا يقال للمتهم عن اتهمه . وبذلك عذب مئات الآلاف ، وكان أكثر القائلين بهذا التعذيب معتقدين الحق فيما فعلوا وانهم إنما يطيعون وجدانهم فيما يفعلون ومع أن الوجدان قد يخطئ فلا بد من اطاعته لأن الانسان ما مور بعمل ما يعتقد أنه الحق لا بعمل ما هو حق في الواقع ، فالذي يرى شيئاً حقاً ويأمره وجدانه بعمله ملزم بالطاعة . وهو معذور لو تبين بعد أن العمل كان ضاراً . وسدبين في « الحكم الاخلاقي » أن العمل يحكم عليه بأنه خير أو شر نظراً لغرض العامل لانظراً لنتائجه ، فالذي يطيع وجدانه دائماً خيراً ولو تبين خطؤه فيما بعد ، أعنى ولو كان عمله ضاراً — ولكن يجب علينا أن ننسى السبيل أمام الوجدان بتوسيع العقل وتقوية الفكر فليس الوجدان الا تابعاً للعقل ، فايراه العقل خيراً يأمر به الوجدان . فاذا نحن قوينا عقلنا ووسعنا نظرنا في حكمنا على الاشياء بالخيرية أو الشرية كان الوجدان هادياً مرشداً

يجب أن نسمع لصوت الوجدان ونأتمر بأمره ولو خالف رأى
من حولنا ووجدانهم . ولا نجعل للخجل وخشية كلام الناس
سلطاناً علينا . فان الحق الذى يلزمنى اتباعه ما أراه الحق لا ما قال
الناس أنه الحق

تربية الوجدان : — الوجدان — ككل ملكات الانسان
وقواه — يمكن ان ينمى بالتربية ويضعف بالاهمال ، فبأهمال الوجدان
أو عصيانه يضعف أو يموت كمن منح ذوقاً حسناً فى سماع الغناء
ثم أهمل السماع مدة طويلة فإنه يضعف ذوقه أو ينعدم كالذى حكى
عن « دارون » انه كان فى صباه مغرماً بالشعر ولكنه أهمل قراءته
والنظر فيه ففقد هذا الميل فى آخر حياته ولم يعد يشعر بما للشعر
من جمال — وهذا هو الشأن فى الوجدان بأمر لكسرة بعمل فتعصيه
فتحس بلذع أهون منه لذع الحريق ، فاذا عدت إلى عصيانه أحسست
بألم دون الألم الذى تشعر به عند أول مخالفة ، ولا يزال الانسان
يتبع السيئة السيئة حتى لا يشعر بأى نوع من اللوم والتأنيب لان صوت
الوجدان قد خفت ، وسلطانه قد ضعف ، وكما يضعف الوجدان
بالاهمال أو العصيان يضعف بصحبة الاشرار أو اطالة القراءة
فى الكتب السافلة ، فكلا الامرين يخدر الوجدان كما تفعل العقاقير
المخدرة بالجسم

ويربى الوجدان بالطاعة ، فيعظم سلطانه ويرق احساسه .
ومن أجل هذا كان قانون البلاد مما يساعد على نمو الوجدان .

فانه اذا كان صالحاً وأمر بما يأمر به الوجدان كان الانسان أقرب الى الطاعة فيعظم سلطان وجدانه وكبار المصلحين في كل أمة يتقوون الوجدان ويزيدون في إحساسه ويشعرون الناس بالمشيء الذي يصاحونه من خطر وأهمية فيلتهبون وجدانهم بما يقولون أو يكتبون

درجات الوجدان : لالوجدان درجات ثلاث

الدرجة الاولى : شعور بعمل الواجب خوفاً من الناس ويكاد لا يخالو انسان من هذا النوع حتى لنجدده في المتوحشين والمجرمين والاطفال وبعض الحيوانات . وهذا الشعور يحمل كثيراً من الناس على عمل الواجب ، ولولاه ما عملوا فكثير من الجنود لا يفرون من ساحة القتال خوفاً أن يعيروا ، وكثير من الناس يصدقون خشية ان يعرف عنهم الكذب فيسقطوا من عين من حولهم ولهذا النوع من الوجدان عيبان : - الاول أن أمثال هؤلاء عرضة للوقوع في الرذائل إذا أمنوا رؤية الناس لهم وخلوا وانفسهم . والثاني أنهم اذا أصيبوا بوسط سافل لم ينجوا من عمل الشر ولم يخشوا رأى أحد فيندفعوا في ارتكاب الجرائم وتسوء عاقبتهم

الدرجة الثانية : شعور بضرورة اتباع ما تأمر به القوانين سرّاً وجهراً . سواء اكانت قوانين اخلاقية أو وضعية . وهذا النوع من الوجدان أرقى من النوع الاول ، صاحبه يلزم نفسه بالخضوع للقوانين ولو أمن العقوبة ، يؤدي الامانة إلى أهلها ولم

تكن شهود عليها ، يحافظ على وعده والكلمة تصدر منه كما يحافظ على تنفيذ عقد امضاه لان القانون الاخلاقي يأمر بالوفاء بالوعد ، والقانون الوضعي يلزمه بتنفيذ العقد . وهو خاضع لكلا القانونين ، الطالب من هذا النوع لا يغش أحداً وان أمن العقوبة ، ولا يكذب وان نال من الكذب فائده ولا يحاول الغش في امتحانه وان غفلت عنه عين الرقيب لانه ملزم نفسه باتباع القوانين سرراً وجاهراً ، بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس ، واكثر الاخير من هذا الصنف

الدرجة الثالثة : لا يصل اليها الا عظماء الناس وكبار المصلحين

وهي شعور بضرورة اتباع ما تراه نفسه حقاً ، خالف رأي الناس أو وافقهم ، خالف القوانين المتعارفة عند الناس أو وافقها . وهذا النوع أرقى أنواع الوجدان ، يأمر صاحبه باتباع ما يوحيه اليه رأيه مهما كلفه من الصعاب . لا يتقيد الا بما يراه هو حقاً . ينفذ نظره وراء القواعد والقوانين المتواضع عليه ليعرف أساس الحق فان وصل اليه عمل به ولو خالف رأي الكبراء والعظماء . بل ولو خالف رأي الأمة بأجمعها — وقد يصل الامر بهذه الطبقة من الناس الى عشق الحق والهيام به فهون عليهم انفسهم وأموالهم في سبيل نصرته الحق وتأييده . وهذه مرتبة الانبياء وخيرة المصلحين لا يخافون في الحق لومة لأثم . ويدعون الناس الى الحق ولو جر ذلك عليهم الموت . ويعملون وفق عقيدتهم وان عذبوا واهينوا . قال (فرعون لاصحاب موسى) آمنتم له قبل أن آذن لكم انه أكبركم الذي علمكم السحر

فلا تقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولا أصابنكم في جذوع النخل
ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى قالوا إن نؤثرك على ما جاء من اللينيات
والذي فطرنا، فاقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا »
وهذه الدرجات الثلاث يسلم بعضها الى بعض ، وليس من كان في
درجة قد حكم عليه ألا يفارقها، بل بتربية الوجدان يتدرج في الرقي
أهمية الوجدان :— أن حياتنا وسعادتنا في هذه الدنيا متوقفتان
على أمانة العمال واثقان عملهم ، فصناع السفينة أو القاطرات اذا لم
يتقنوا عملهم عرضوا حياة أنفس كثيرة للاخطار ، وقل مثل ذلك
عن الاطباء والمهندسين والمدرسين وكل ذى مهنة
وان الامة لا تكون سعيدة حتى يقوم رجال الأمان بواجبهم
ويعنى رجال الصحة بأعمالهم ، وهكذا
وانما يحمل الناس على أداء واجبهم واثقان صناعتهم ومهنتهم
وجدانهم المركوز في طبائعهم وأعماق نفوسهم ، فهو الذي يطالبهم
بالدقة فيما يعملون لا رغبة في مثوبة ولا خوفاً من عقوبة ، فاذا
فقدت أمة وجدانها فقد فقدت سعادتها بل وحياتها

المثل الأعلى

قبل أن نشرع في بناء بيت يضع المهندس له رسماً ، وقبل أن
يضع هذا الرسم كان في ذهنه صورة كاملة للبيت يستعمل منها
صورته التي يرسمها . وكذلك الشأن في واضع الرواية . قبل أن

يخرجها الى الوجود كانت مرسومة في ذهنه
وكل انسان يجب ان تكون عنده صورة كاملة لما يود أن
تكون عليه حياته المستقبلية. وكثيراً ما يسائل الانسان نفسه ماذا
أكون؟ فالصورة التي في ذهننا نود تحقيقها ونستملي منها النجيب على
هذه الاسئلة تسمى في عرف الكتاب الحديين المثل الاعلى

وهو يميز الانسان عن غيره من الحيوان فانا نرى الحيوانات
تعيش على نمط واحد، ليست في رقي مستمر، فعيشة القط قديماً
هي معيشته اليوم، وكان النحل يبني خلاياه على أشكال مسدسة
كما يبنيها الآن، أما الانسان فدائم الرقي لان أمامه « مثلاً أعلى » يجد
في الوصول اليه وكلما قرب منه سبقه المثل

ويجب أن يكون لكل انسان « مثل أعلى » يسمى لتحقيقه
ويوجه أعماله للوصول اليه، ذلك لان الانسان في هذه الحياة
كقائد السفينة في البحر المتلاطم الامواج لا يمكن أن يصل إلى
المرفأ حتى يعرف أين المرفأ ويرسم خطة للوصول اليه والا
تنكب وكانت سفينته عرضة للارتطام — وكذلك يحيط بالانسان
قوى مختلفة : شهوات تتجاذبه وصعوبات تعترضه ومؤثرات
متباينة فان لم يحدد غرضه ويعين مثله الاعلى تقسمته هذه القوى
واضطربت مسالكه

وللمثل الاعلى تأثير في النفوس فهو دائم الشخوص أمام
نظر الانسان يجذبه نحوه ويدعوه لان يحققه . وان اعمال الانسان

وطريقته في الحياة لتدل على مثله الاعلى ماهو . - وكل المؤثرات في الاخلاق من بيئة ومنزل وتعليم انما تصلح الانسان بواسطة اصلاح المثل الاعلى اما المؤثر الوحيد مباشرة فهو ذلك « المثل »
اختلاف المثل الاعلى : تختلف المثل العليا عند الناس اختلافاً

يكاد يكون بعدد رؤوسهم فهذا مثله الاعلى رجل غني متمتع بكل ملذات الحياة ، وذلك مثله انسان كامل العقل قد تفوق في العلوم وتضلع من المعارف . وآخر مثله وطني يدافع عن حقوق وطنه ويرفع مستوى أمته . كذلك يختلف بساطة وتركباً فقد يكون مثل شخص صورة بسيطة رسمها مما يسمعه من والديه ، وقد يكون مثل آخر صورة مركبة قد رسمها بعد أن بحث الاخلاق بحثاً علمياً وعرف الفضائل ورتبها حسب ما صح عنده من مقياس الخير والشر - والانسان الواحد يختلف مثله من حين لآخر والامة الواحدة تختلف مثلها كلما تدرجت في معارج الرقي ، وليست الصعوبة أن يجد الانسان أو الامة مثلاً أعلى ، فالمثل كثيرة لاعداد لها . وانما الصعوبة اختيار أحسنها وأنسبها

وليس في وسع الاخلاق ولا الفيلسوف أن يرسم مثلاً أعلى دقيقاً يوافق كل انسان وكل أمة ، فالمثل الذي يتفق مع غرائز أحد ودرجة عقله من الرقي والبيئة التي تحيط به قد لا يوافق الآخر لاختلافه فيما ذكرنا الالهم إلا اذا رسم الاخلاق أو الفيلسوف صورة عامة انتصر في رسمها على ما يوافق سواد الناس كالتخياط

يعمل ثوباً واسعاً ليصح أن يلبسه كثيرون مع تعديل بسيط
وكل الذي نستطيع أن نقوله أنه ينبغي أن يكون المثل الاعلى
للشخص صورة كاملة تمثل خير انسان يستطيع الشخص أن يكونه
في كل شأن من شؤون حياته ، ففي عمله مثله أن يكون أحسن
ما يستطيع من جد وأمانة واثقان ومهارة ، وفي سياسته لنفسه مثله
أن يكون ضابطاً لنفسه يعمل بأرشاد عقله ، وفي معاملته للناس
مثله أن يعاملهم كما يجب أن يعامل وان يجب الخير لهم كما يحبه لنفسه
مم يتكون المثل الاعلى : أهم عامل في تكوين المثل المنزل
والمدرسة والدين فترية الناشئ ، المنزلية وما يسمعه من أبويه والنظام
الذي يسير عليه بيته ، وما يراه في المدرسة وما يسمعه من مدرسيه
وما يلزمونه بقراءته من الكتب وما يحببونه اليهم من عظماء الرجال ،
والدين الذي يتدين به وما يحويه من نظام وما يرسمه من شكل
الحياة الاخرى كل ذلك له أكبر الاثر في تكوين المثل الاعلى ،
وكذلك غرائز الانسان الطبيعية لها أثر كبير في انتخاب الصورة
التي تتخذ مثلاً ، فالاميال الموروثة من شجاعة وهمة أوجبن وخمول
تعين على تحديد المثل الاعلى ، وهي عامل قوى في تكوينه

ليس هو المنزل
المدرسة

غرائز الصبي

نمو المثل : يكاد يكون لكل انسان مثل أعلى ولكن لا
يشعر من أين أتاه . وسبب ذلك أن المثل يتكون مع الانسان
في نشأته وينمو بنموه ، فلم يكن شيئاً جديداً منفصلاً عن الانسان
حتى يشعر به ويعرف متى أتاه ومن أين جاءه . يتكون المثل جزئياً

في أثناء التربية المنزلية، ويكون لما يسمعه من القصص ولو خرافية
دخل في تكوينه، ثم يتوارد عليه التغيير كلما وجد مؤثر جديد،
من رواية يقرأها أو حكاية يسمعهها، أو تمجيد لعمل عظيم، أو ذم
لعمل حقير، وان في طبيعة الناشئين في أول حياتهم ميلا إلى سماع
قصص الابطال، وكبار الاعمال، وعجائب الحوادث، وذلك -
ولاشك - مما يساعد على تنمية المثل عندهم، فاذا خرج الشاب
إلى معترك الحياة كان لتجاربه في عمله وتبادل الاخذ والعطاء مع
الناس ما يحدد غايته في الحياة وينير أمهه، ويوضح مثله، وباتساع
نظر الانسان في الحياة وكبر عقله يكمل المثل وتم اجزاؤه

وكما أن المثل عرضة للكمال والاتساع كما بينا كذلك هو
عرضة للنقص والضيق، فالعمال الذين يقضون حياتهم في عمل
يدوي محدود ثم لا يصادفون بعد قضاء نهارهم ما يفيد عقلهم أو يوسع
نظرهم يضيق مثلهم؛ ويتحدد أمهم، وذلك شأن طائفة كبيرة
من العمال كعمال الترام وكتبة الدواوين الذين لا يؤدون في الحياة
غير عملهم الآلى فلا يرقون مداركهم، ولا يوسعون أنظارهم،
وحياتهم ليست إلا يوماً متكرراً. وفي ضيق المثل خطر عظيم، فالمثل
هو الذي يبعث في الانسان روح العمل، ويزيد في نشاطه وقوته، وهو
الذي يصحح حكمه على الاشياء، فالانسان عادة عند الحكم على شيء أو
نقده يقيسه بمثله ثم يحكم بالخطأ أو الصواب وبالخير أو الشر؛ فاذا تحدد
المثل وضاق قل نشاطه وساء حكمه، وعلى العكس من ذلك إذ ارق مثله

نحو المثل
صاحب

قد نقض المثل
عند بعض
يعملونه
العمال الترام
الدواوين

الكتاب الثاني

في

نظريات العلم وتاريخه

X مقياس الخير والشر

إذا أردنا أن نعرف طول حجرة عمدنا إلى وحدة المقياس وهي المتر مثلاً فعرفنا به مقياس الحجرة ، وكذلك الشأن إذا أردنا أن نعرف وزن الشيء ، أو كيله ، فما المقياس أو الميزان الذي نعرف به الخير والشر ؟ إن الناس كثيراً ما يختلفون في نظرهم إلى الشيء ، فمنهم من يراه خيراً ومنهم من يراه شراً بل الشخص الواحد قد يرى الشيء خيراً في آن ثم يراه شراً في آن آخر ، فما هذا المقياس الذي بملاحظته نصدر حكمتنا على الأشياء بالخيرية أو الشرية ؟ في الإجابة على هذا السؤال اختلفت الآراء ونحن ذاكرون أشهرها

X (١) العرف

الإنسان في كل زمان ومكان متأثر بعادات قومه لأنه ينشأ في أمته فيرى قومه يعملون بعض الأعمال ويتجنبون بعضاً آخر ولم تكن نمت عنده قوة الحكم على الأشياء فيقدم في كثير مما يعملون أو يحتنبون

ومنشأ هذه العادة القومية — وبعبارة أخرى العرف — أن الناس الأوائل جربوا كثيراً من الأعمال فأوا في بعضها منفعة

لهم فاعتادوها وحضوا على اتباعها، وزادت قوة اتباع الاجيال
التالية لها وسيرهم عليها حتى صار يعد منتهكها مجرمًا
وقد أتى على الناس زمان كانوا يرون فيه اخير ما وافق العرف
والشر ما خالفه، وما لم يكن فيه عرف فالناس فيه أحرار يفعلون
ما يشاءون، بل كثير من العامة وأشباههم في زمننا هذا يرون
ذلك فيعملون ما يعملون لالشيء، إلا انه يتفق مع عوائد قومهم
ويجتنبون ما يجتنبون لان قومهم لا يعملون، فمقياس الخير والشر
في نظرهم عرف قومهم، ترى كثيراً من العامة يمرض أحد أفراد
أسرته فلا يستدعى له طبيباً لان وسطه لا ينتقد ذلك، ولكن
إذا مات انفق النفقات الكثيرة في عمل المأتم ونحوه لانه ان لم
يفعل غيره وسطه لمخالفته مألوفهم وهكذا

ولكن بالبحث يتبين أن العرف لا يصح أن يتخذ مقياساً،
ذلك لان كثيراً من الاعمال التي يتضح لنا الآن خطأها ووضوحاً
جلياً كان بعض الامم يبرر عملها ويأمر بها، فوآد البنات عند
بعض قبائل العرب في الجاهلية لم يكن معيباً ولا خطأ « واذابشر
أحدكم بالاثني ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم
من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الأساء
ما يحكمون » فلما جاء الاسلام نهام عن هذه العادة وأبان خطأهم،
وعند الرومان كان للأب الحق في اماتة أولاده وأحيائهم — والرق
مع ما كان يغلب فيه من المعاملة القاسية لم يبطل من مستعمرات

أوروبا إلا في القرن الماضي — وفي أواسط أفريقيا لا يأمن السالك
السير بين سكانه المتبربرين لانهم يعتقدون أن ليس عليهم في الجانب
سبيل فلا يرون خطأ قتالهم، ولا من الواجب عليهم حفظ حياتهم
ونحن نحكم الآن بخطأ هذه العادات ونستنكرها — واذا
كان العرف كثيراً ما يكون خطأ فلا يصح أن نتخذه مقياساً
لاعمالنا نعرف به الخير من الشر

وأيضاً — لو أن الناس جروا على هذا المبدأ لم يتقدم العالم
عما كان عليه من قديم، لانه انما يتقدم بأولئك القوم الذين يرون
خطأ ما عليه قومهم وعندهم من الشجاعة ما يمكنهم من أن يخالفوا
العرف ويدعوا للحق، فيجاهرون بالمخالفة، وينددون بالقديم،
ويعرضون أنفسهم للاذى، فيلتف حولهم كثير من الناس ويأخذ
رأيهم في الانتشار حتى يحل الجديد الحق محل القديم الخطأ
على أن جرى الناس على هذا المقياس مع عدم صلاحيته كان
له بعض الفائدة، فقد منع الناس أن يصادموا العادات الصالحة فكم
من ممتنع من السرقة وشرب الخمر ليس إلا جرياً مع العرف وخوفاً
من وسطه ينتقده ويحتقره

× مذهب السعادة^(١)

بعد أن بحث الفلاسفة في مقياس الخير والشر بحثاً علمياً ذهب
بعضهم إلى أن المقياس هو السعادة أي أن السعادة هي الغاية

(١) يسمى هذا المذهب Hedonism

الاحيرة للحياة، وان شئت فقل هي غاية الغايات للإنسان ويعنون
بالسعادة اللذة والخلو من الألم، فاللذة عندهم هي مقياس العمل فالعمل
خير بمقدار ما فيه من اللذة وشر بمقدار ما فيه من الألم
وليس مذهب السعادة يقول أن الانسان ينبغي أن يطلب
اللذة فحسب - لان كل عمل لا يخلو من لذة - بل يقول ينبغي أن
يطلب أكبر لذة فاذا خير الانسان بين جملة أعمال وجب أن يختار
أكبرها لذة

وينبغي عند تقدير اللذة مراعاة شيئين: الشدة والمدة، وكذلك
الألم فانه يعتبر لذة سالبة، فاذا كن عندنا ثلاث لذات تقدر على
التوالي بـ ٣ و ٤ و ٥ فان اللذة التي مقدارها ٥ تفضل التي مقدارها
٣ أو ٤ + ٣ = ٤ تفضل ٥ وهكذا، واذا كانت آلام تقدر بـ ٣،
و ٤ و ٥ فان ٣ تفضل ٤ و ٥ - ٥ - ٤ تفضل ٥ وهكذا واذا
كان في عمل لذة قدرها ٤ وألم قدره ٤ كان الايمان بالعمل وعدمه
سيين - واذا استوت لذتان في الشدة فضلت أطولهما مدة

والذين ذهبوا هذا المذهب انقسموا إلى قسمين فهم من
قال أن المقياس هو لذة العامل الشخصية ويسمى هذا مذهب
السعادة الشخصية ومنهم من قال ان المقياس هو لذة كل المخلوقات
الحساسة ويسمى مذهب السعادة العامة ونشرح لك المذهبين

١- السعادة الشخصية^(١)

هو المذهب القائل أن الانسان ينبغي أن يطلب أكبر لذة لشخصه ويجب أن يوجه أعماله للحصول عليها
فلي هذا المذهب اذا تردد انسان بين عمالين أو تردد في عمل
أيعمله أم يتركه فليحسب ما فيه من اللذائذ والآلام لشخصه
ويوازن بينهما، فما رجحت لذائذه فخير، وما رجحت آلامه فشر
وما تساوت فيه اللذائذ والآلام كان فيه مخيراً
وقال أصحاب هذا المذهب ان كل انسان يجب أن يبحث
وراء لذائذه هو وسعادته ويعمل ما يوصله إلى ذلك، والعمل الذي
يوصل إلى تلك الغاية أو يقربه منها يكون خيراً
ومن أكبر زعماء هذا المذهب « أبيقور » (فيلسوف يوناني
شهير عاش ٣٤١ - ٢٧٠ ق م) وهو يرى أن ليست تقاس
الاعمال باللذات والآلام الوقتية فحسب، بل الواجب أن يرى
الانسان بنظرة على جميع حياته ويحسب ما يستتبعه العمل من
لذة وألم في الحياة، فشرب الدواء المر يسبب الماء ولكن لانه قد
يذهب الماء أكبر منه وهو الم المرض يكون خيراً - والعامل
في استطاعته ان يرفض لذة حالة للحصول على لذة أكبر منها
مؤجلة، ومن اجل هذا فضل اللذة العقلية على اللذة الجسمية،

(١) يسمى هذا المذهب Egoistic Hedonism

فان اللذائذ الجسمية السريعة الزوال لاتعد شيئاً إذا قيست بتلك اللذة الباقية لذة العقل وتحصيل العلم التي بها تطمئن النفس ومنها يتخذ الانسان عدة لحوادث الدهر وصروف الزمان ، وعلى هذا المذهب انما كانت الفضائل فضائل لانها تسبب للعامل لذة كبرى فالعفة مثلاً فضيلة والدعارة رذيلة لانه لو دقق في حساب ما يجده العفيف من اللذة في رضائه عن نفسه وبعده عن الآلام التي تنتجها الدعارة واحترام الناس له وثقتهم به لو وجد أنه يرجح ما يجده الداعر من لذة وقتية يتبعها ألم النفس ، وفقد الثقة ، وتعريض الصحة والمال والشرف للضياع ، وهكذا القول في الصدق والكذب والامانة والخيانة

وقد غلط بعض الناس ففهموا ان مذهب ابيقور يدعو إلى الانهماك في اللذات الجسمية والجري وراء الشهوات حتى أطلقوا كلمة « ابيقورى » على الداعر الفاجر مع ان تعاليم ابيقور بعيدة عن ذلك ، وقد ندد هو نفسه في بعض كتبه بمن يفهم من قوله هذا الفهم السقيم

وقل من قال بهذا المذهب في العصور الحديثة ومن قال به هو بز (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م) واتباعه. وقد رجعوا كل عواطف الخير في الانسان الى حبه لنفسه وطلبه لذته هو ، وقالوا ينبغى الانحكم على عمل بأنه خير إلا بمقدار ما فيه من اللذة للعامل ولا ثمر إلا بمقدار ما فيه من الألم

وعيب هذا المذهب انه يجعل صاحبه اثراً (انانياً) لا ينظر في اعماله الا الى نفسه ، مات الناس او عاشوا . انتفعوا أو تضرروا ، اذا رغب في وصول منفعة للناس فانما ذلك لانها تجر المنفعة اليه ، واذا تألم من شر نال احداً فانما يكون لان جزءاً من الشر يناله هو ، وفي الناس في كل زمان قوم يسرون في حياتهم العملية على هذا المذهب وان لم يسموا به ولم يعرفوا شيئاً عنه ، تراهم في كل طبقة من طبقات الناس ، في الاغنياء والصناع والعمال والموظفين والتجار ، أولئك لا يلاحظون في أعمالهم الا انفسهم ، ينظرون إلى غيرهم من الناس كما ينظرون إلى متاع يستخدمونه لمصلحتهم ، عندم الانسانية والوطنية والتضحية ونحوها سخافات ، إنما الفضيلة في نظرهم أن يبحثوا وراء لذتهم وينشدون مع الشاعر « إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر »

وقد جاءت الاديان من نصرانية وإسلام فأوجبت التضحية عند الحاجة ، وحببت إلى الناس الايثار والاحسان ، فكان في انتشار هذه التعاليم ما عاق هذا المذهب عن الانتشار ، فان الشرف والتضحية والايثار لا تتفق مع الأثرة وحب النفس وقد اعترض على هذا المذهب بجملة اعتراضات

- ١ اذا كانت اللذة الشخصية هي المقياس فمن الصعب إن لم يكن من المستحيل عد الاحسان فضيلة مع اجماع الناس على عده كذلك
- ٢ لا معنى لفضيلة ولا رذيلة ولا خير ولا شر إلا إذا روعيت

علاقة الناس بعضهم ببعض ، وبعبارة أخرى إلا إذا عد الفرد عضواً في جمعية ، وهذه العضوية تجعل له حقوقاً وعليه واجبات وهذه الحقوق والواجبات ملحوظ فيها مصلحة الناس ومضرتهم أو لذتهم وألمهم ، وهذا يناقش أن تكون اللذة الشخصية مقياساً ٣ هذا المذهب يستلزم احتقار من ضحوا لذتهم وحياتهم لمنفعة الناس وتكريم من ضحى سعادة الناس وحياتهم لمصلحته هو — ولا قائل بهذا —

ب- مذهب السعادة العامة^(١)

جملة هذا المذهب أن ما ينبغي أن يطلبه الانسان في الحياة هو أكبر سعادة للنوع البشرى بل لكل حساس ، ولتوضيح ذلك نقول عند الحكم علي عمل بأنه خير أو شر يجب أن ننظر فيما ينتجه العمل من اللذائذ والآلام لا لأنفسنا فحسب بل للنوع البشرى جميعه ، بل لكل حيوان ، ولكل كائن يناله اذة من العمل أو ألم — وينبغي ألا نقصر نظرنا على اللذائذ غير المباشرة والحاضرة بل ينبغي أن يشمل نظرنا كذلك اللذائذ غير المباشرة والبعيدة. ثم نجمع ما ينتجه العمل من اللذائذ وما ينتجه من الآلام فان رجحت لذائذه آلامه فخير ، وان رجحت آلامه لذائذه فشر

(١) يسمى هذا المذهب Universalistic Hedonism
أو Utilitarianism

واللذة التي يقول بها أصحاب هذا المذهب ليست لذة العامل وحده كما يقول الابيقوريون بل لذة كل من لهم علاقة بالعمل ويجب على العامل عند حساب نتائج عمله ألا يتحيز لنفسه بل يجعل خيره وخير غيره سواء

وسعادة الجميع يجب أن تكون مطمح نظر كل انسان لاسعاده هو وحده . والفضائل انما عدت فضائل لانها تنتج لذة للناس أكثر مما تنتج من الآلام ، فهي فضائل ولو آلمت بعض الافراد ، ولو آلمت العامل نفسه ، وكذلك كانت الرذائل رذائل لان آلامها للناس ترجح لذاتها

فالصدق مثلا انما كان فضيلة لانه يزيد سعادة المجتمع وبه يرقى ويبقى ، ذلك لاننا محتاجون في الحياة إلى طيب يرشدنا إلى ما فيه حفظ صحتنا وإلى مهندسين نعتمد على أفعالهم في بناء الجسور ونحوها ، وإلى كيمائي يبين لنا خواص الاجسام ، وإلى مدرس يتقن عقول المتعلمين بما ينفعهم ، ولولا الصدق ما كان لنا أن نتق باقوال هؤلاء ، ولا أن ننتفع بأرائهم ، فلما رأينا ما ينجم عنه من السعادة للمجتمع حكمنا بأنه فضيلة وأوجبنا على الافراد أن يصدقوا وان كان في الصدق ألم لبعضهم

ورشوة القاضي مثلا انما كانت رذيلة لان القاضي إذا ارتشى أطلق سراح المجرم ، وهذا يشجعه هو وأمثاله على ارتكاب الجرائم ، لا اعتقاده أنه يستطيع الفرار من العقوبة بالرشوة ، وبذلك

تكثر المظالم ، ويضيع كثير من الحقوق . وفي هذا آلام كثيرة للمجتمع . فخرمت وان انتفع بها القاضى المرتشى وهكذا الشأن في جميع الاعمال ، فان أردت الحكم على عمل بأنه خير أو شر فابحث عما يجلبه من اللذائذ والآلام للمجتمع مع بعد النظر ودقة البحث ثم وازن بين لذائذه وآلامه

قالوا - ووزن الاعمال بهذا الميزان بطي ، إلا أن النتيجة موثوق بصحتها - على أن أصول الفضائل والرذائل قد وزنت بهذا الميزان وحكم عليها بالخير أو الشر ، مثل الكرم فضيلة ، والبخل رذيلة ، والصدق خير ، والكذب شر ، فان أردنا أن نحكم على جزئية فلنرجعها الى أصل من تلك الاصول التي حكم عليها ، كأن يكون العمل من قبيل الصدق أو الكذب ، ولا حاجة حينئذ الى هذا المقياس ، وإنما نحتاج اليه فيما لا يرجع الى تلك الاصول كالعادات التي اختلف الناس في استحسانها واستقباحها مثل السفور والحجاب ، فان أدك بحثك الدقيق الى أن آلام العمل أكثر من لذائذه فاحكم بشره وان حكم الناس عليه بالخير ، وإن رأيت من الاعمال مالا ضرر فيه أو ما آلامه أقل من لذائذه فاحكم بأنه خير وان عده الناس جريمة

ويسمى هذا المذهب « مذهب المنفعة » ومن أكبر دعائه الفيلسوفان الانجليزيان بنتام Ben'tham (١٧٤٨ - ١٨٣٢ م)

وچون ستورت ميل - (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م) ^(١)
واللذة التي يتخذها المنفعيون مقياساً هي اللذة بأوسع معانيها
فهي تشمل اللذات الحسية والمعنوية ، الجسمية والعقلية
واللذة أو السعادة التي يطمح اليها الناس تختلف باختلاف
الاشخاص، فكما أن سعادة الاتسان تختلف عن سعادة الحيوان
فكذلك تختلف سعادة العاقل عن سعادة الجاهل، فلا يقبل الذكي
والمتعلم أن يستبدل بما عندهما من الذكاء والعلم أكبر اللذات الجسمية،
واختلاف الناس في السعادة يتبع درجة رقيهم وحالتهم العقلية،
فكلما كان الشخص أرقى كانت لذائذه التي يطمح في تحصيلها أصعب
نيلا قال « ميل » (ان الرجل الذي يتطلب اللذات الوضيعة يجد
فرصاً كثيرة للحصول عليها، أما الرجل الراقى فإنه يشعر بأن كل
ما يتوقعه من اللذات في هذه الحياة ناقص لا يفي بغرضه ولكنه
يعتاد الالم من هذا النقص، ولا يحسد من لا يشعر به لانه يعلم
أن من لم يشعر لم يدرك الخير الاكبر، ولان يكون الشخص
انساناً غير راض خيراً من أن يكون خنزيراً راضياً) ^(٢)

(١) كثيراً ما يوصف مذهب المنفعة بأنه المذهب القائل (بأ أكبر لذة
لا أكبر عدد) وهذه العبارة منتقدة لأنها تشعر بأننا إذا خیرنا بين لذة كبرى
بعدد قليل ولذة صغرى لعدد أكبر نختار الثانية لأنها أكبر لذة لا أكبر عدد
وهذا خطأ فان المذهب يرى تفضيل الاولى لان المدار عنده هو اللذة فيحسب
كانت اللذة أكبر كان العمل أفضل ولو نالت شخصاً واحداً
(٢) ميل في رسالته « مذهب المنفعة »

ولم يسلم هذا المذهب من النقد، فقد اعترض عليه باعتراضات
عدة منها

١ ان هذا المذهب يقتضى أنه للحكم على عمل بالخيرية أو الشرية
ينبغي حساب كل ما ينشأ عن العمل من لذة وألم لكل كائن
يتلذذ أو يتألم من العمل، وبعبارة أخرى لاهل المملكة والاجانب،
للاحياء وأعقابهم، وإذا كان كذلك فمن الصعب الوقوف على نتائج
العمل وحسابها، فقد نرى عملاً ينفع أمتنا ويضر الاجانب، وقد
ينفع معاصرنا ويضر الاجيال المستقبلية، وقد تكون الاجيال
المستقبلية كثيرة العدد فيصعب الحساب ويدق النظر، فمثلاً هل
تنتفع الامة الآن بما عندها من معادن اذا كان ذلك يضر بابنائها؟
وهل تستدين الحكومة اذا خيف أن يكون الدين حملاً ثقيلاً
على الخلف؟

وأكثر من هذا أننا إذا أدخلنا في حساب اللذائذ والآلام
الحيوانات فهل نفاضل بينها أولاً. فان لم نفاضل بأن ساوينافى حساب
اللذة والألم بين الكلب والقط والخروف والانسان فبأى حق
نذبح الدجاجة ليمتتع بها الانسان، ونشرح الكلب حياً لنتمتع
بتشريحه في معالجة الانسان؟ وان نحن فضلنا بعض الحيوان على
بعض فها هي قاعة التفضيل وكيف تعمل؟ أو ليست تكون مجالاً
للخطأ ومظنة البعد عن الصواب؟

٢ ليس مقياس السعادة العامة مقياساً ثابتاً محدوداً — وهذا

يجعل الحكم بأن العمل خير أو شر مجالا للخلاف الكثير ، ذلك بأن مدار الحكم هو اللذة والالم ، وتقدير مافي العمل من اللذة والالم يختلف باختلاف الاشخاص ، فقد يرى أحد في عمل لذة كبيرة ويرى آخر فيه لذة أكبر أو أقل فيترتب على ذلك اختلافهم في الحكم على الشيء ، بالخيرية أو الشرية فمثلا قد يستمتع أحد بلذة استمتاعاً لا يستمتع الآخر من الشيء نفسه ، كصوت الموسيقى يطرب منه سامع طرباً يخرج عن عقله حتى يضحكه أو يبكيه بينما تجد الآخر بجانبه لا يأبه لهذا الصوت ولا ينفعل منه أى انفعال ، فكيف تتخذ اللذة بعد مقياساً تقاس به الاعمال ؟

٣ ان القول بأن الحياة غايتها الوصول إلى اللذة والفرار من الالم فحسب حط من شرف الانسان ولا يليق إلا بالعجموات وقد أوجب عن هذه الاعتراضات بأجوبة لا يتسع المقام لذكرها ^(١) غير أننا نقول ان هذا المذهب من اكثر المذاهب انتشاراً في العصور الحديثة وكان له فضل كبير في ايقاظ العقول ومطالبتها أن تكون غير متحيزة في أحكامها ، قد طلب من الشخص أن ينظر الى لذائذ الناس كما ينظر الى لذاته ، وعلم المشرعين أن يلاحظوا عند تشريعهم خير الناس لاخير أفراد مخصوصين فإعد جرائم يعاقب عليها القانون ومالا يعد انما يرجع فيه إلى كمية مافي

(١) اجاب جون ستورت ميل عن هذه الاعتراضات وغيرها في رسالته المسماة

العمل من آلام للمجموع ، والعقوبات التي توضع بأزاء الجريمة
يجب أن يلاحظ فيها أنها تأتي بلذائذ للناس أكثر مما تسبب من
الآلام وهكذا

(٣) مذهب اللقانة^(١)

يرى هذا المذهب أن في كل انسان قوة غريزية باطنة يميز
بها بين الخير والشر بمجرد النظر ، وقد تختلف هذه القوة اختلافاً
قليلاً باختلاف العصور والبيئات ولكنها متأصلة في كل انسان ،
فهو إذا نظر إلى العمل حصل عنده نوع من الالهام يعرفه قيمته
فيحكم عليه بأنه خير أو شر ، ومن أجل هذا اتفق أكثر الناس على
الفضائل من صدق وكرم وشجاعة كما اتفقوا على عدأضدادها رذائل
وهذه القوة غريزية فينا لا مكتسبة ، منحناها لتمييزها الخير
من الشر كما منحنا العين لنبصر بها والاذن لنسمع بها ، فكما
نستطيع بمجرد النظر الى شيء أن نقول انه أبيض أو أسود ،

(١) جاء في لسان العرب « غلام لقن سريع الفهم ولقن الشيء والكلام
فهمه والاسم اللقانة » فأثرنا أخذها ووضعها لكلمة Intuition كما فعل
الفرنجة فان هذه الكلمة عندهم كان معناها في الاصل النظر إلى الشيء ثم
استعملوها في المعنى الجديد وهو « القوة الباطنة التي تدرك أن الشيء خير
أو شر بمجرد النظر اليه من غير إعمال عقل في نتائجها » فلنصطلح على
تسمية هذه القوة (اللقانة)

وبمجرد سماع صوت أن نقول انه جميل أو قبيح ؛ كذلك نستطيع
اذا رأينا عملاً من الاعمال أن نقول انه خير أو شر
ولسنا نحكم على الشيء بأنه خيراً أو شرّاً نظراً إلى غاية كتحصيل
لذة أو فرار من ألم كما يقول أصحاب مذهب السعادة ، ولكننا
نحكم عليه لان غريزتنا ترشدنا إلى ذلك بقطع النظر عما ينتج من
النتائج ، فالصدق خير في ذاته ولو أنتج الماء ، والكذب شريزنا
اجتنابه ولو وصلنا إلى لذة ، فليست الاعمال الاخلاقية وسائل
بل مقاصد

ويمتاز هذا المذهب عن مذهب السعادة بنوعيه بأنه
١ يرى أن الفضائل فضائل في جميع الظروف ، وفي كل زمان
ومكان وليس كونها فضيلة تابعاً لغاية اذا وصلت اليها كان خيراً
والا كانت شرّاً
٢ ان الفضائل أمور بديهية ليست في حاجة الى البرهنة على صحتها
٣ وأنها ليست محلاً للشك فمن المحال أن نرى يوماً ما أن ضدها
هو الخير وانها هي شر

وممن ذهب هذا المذهب طائفة من الفلاسفة الاقدمين
يسمون (الرواقيين) وهم اتباع زينون . فيلسوف يوناني (٣٤٢ -
٢٧٠ ق م) كان يعلم أصحابه في رواق مزخرف في أثينا ، ومن
ثم سمي أصحابه بالرواقيين Stoics وقد كان زينون معاصراً
لايقور ومعارضاً له في تعاليمه . فيينا يرى أبيقور أن الغاية من

الحياة هي الوصول إلى أكبر لذة ممكنة للعامل وانه يجب احياء الشهوة وارواؤها كان زينون يرى أنه يجب ضبط النفس وفتح الشهوات كان هؤلاء الرواقيون يرون أن اللذة ليست هي الغاية للانسان ولا هي بالخير دائماً وانما الغاية نيل الفضيلة لانها فضيلة . وطلبوا من الناس أن يكفوا عن اتباع الشهوات . وأن يمرنوا أنفسهم على تحمل الآلام في سبيل الفضيلة . وأن يتوقعوا أسوأ معيشة من فقروني وكرهة من الرأي العام ثم يعدوا أنفسهم لتحملها حتى إذا كانت لم تنزعج منها نفوسهم

والرواق لا يجعل أكبر همه أن يكون غنياً ولا متلذذاً انما أكبر همه أن يعيش حكيمافاضلا في أى وسط كان، في فقر أو في غنى مبعجلا في قومه أو محقراً وان يستعمل ما حوله من الاشياء خير استعمال، ومثلوا الناس في الدنيا بالممثلين على مراسم التمثيل قالوا ان منهم من يمثل الملك ومنهم من يمثل السائل الفقير ولسنا نثنى على الممثل لانه يلبس تاج الملك ونذمه لانه يرتدي ثياب الفقر، انما نثنى على من أجاد دوره ملكاً أو فقيراً ونعيب من لم يجد ملكاً أو فقيراً — كذلك الشأن في الحياة ، فالانسان يجب أن يمدح أو يذم لاجادته في عمله أو عدمها ، لا لمنصبه الذي يشغله وماله الذي يملكه

و ضرب أحد رؤساء هذا المذهب وهو « ابيكتيتس » « ٥٠ - ١٢٥ ؟ ب م » مثلاً لذلك من لاعبي الكرة ، قال انهم

لا يلعبون للكرة نفسها ولا يهتمهم ملكها ولا من ملكها، وإنما
يعدح اللاعب لأنه عرف كيف يلعبها وكيف يجيد رميها — يريد
بذلك أن الأشياء الخارجية لا قيمة لها في أنفسها وإنما يعدح الانسان
على حسن استعمالها لا على ملكها

والغريون الآن يطلقون « رواقى » على من اعتاد أن يقابل
الأشياء بهدوء وطمأنينة رغم ما يحيط بها من خطر وآلام
وقد صبت تعاليم الرواقيين في قالب النصرانية والاسلام
فكان لها تأثير كبير في حياة النصارى والمسلمين في القرون الوسطى،
فالليل إلى الرهبانية، والمبالغة في الزهد والتقشف عند الصوفية
لا يخلوان من أثر رواقى كبير

ومن القائلين باللقانة في العصور الحديثة « كانت » (١٧٢٤ —
١٨٠٤) فقد كان يقول أن عقل الانسان هو أساس الاخلاق
ولسنا في حاجة إلى تعلم قواعد للسلوك تكتسب من الملاحظة
والتجربة والتربية بل أن عقلنا يعلمنا ويأمرنا فوراً بما ينبغي أن نعمل،
وذكر أن عقلنا يأمرنا باتباع مبدأ سماه « الأمر المطلق » أى الذى
لا استثناء فيه وهو « اعمل فقط العمل الذى يمكنك أن تريد أن
يكون عاماً » أى اعمل ما تحب أن كل أحد غيرك يعمله: فالسرقة محرمة
لأنك لا تحب أن يسرق كل الناس، والكذب محرم لأن الناس
كلهم لو كذبوا ما كان تفاهم وأنت لا تحب أن الناس كلهم يكذبون،

وتسديد الدين واجب لانه يمكن أن يكون عاماً وأنت تحب أن يسدد كل الناس ديونهم، ومن أجل هذا حرم عليك السرقة والكذب ووجب تسديد الديون، وقال ان هذا المبدأ يحمل سلطانه معه أى أنه في نفوس الناس وطبيعتهم ومنه يمكننا أن نعرف كل ما ينبغى أن يعمل وما ينبغى أن يترك . ونحن لو أخضعنا ارادتنا لهذه الروح الاخلاقية التي فينا وجرينا على هذا المبدأ دائماً ولو خالف ميولنا فقد أدينا ما علينا من الواجب وسرنا سيراً أخلاقياً

وقد اعترض على مذهب الاقائنة هذا — القائل بوجود غريزة في الانسان يميز بها الخير من الشر، كالحاسة التي يميز بها بين الالوان والاصوات — بأن الناس يختلفون في الحكم على الاشياء اختلافاً كبيراً حتى في البديهيات ففي سبارطة كانت تعد السرقة عملاً ممدوحاً، ويعد القتل في « داهومي » واجباً من الواجبات فكيف يقال بعد أن الناس منحوا غريزة لادراك الخير والشر مع أن انراهم لا يختلفون بهذا الاختلاف فيما يدرك بالغرائر فلا يقول قوم على الاسود أبيض ولا يقول آخرون أن الاثنيين أكبر من الاربعة

(٤) مذهب النشوء والارتقاء

قد كان الرأي الشائع عند الناس أن كل جنس وكل نوع من

الحيوانات مستقل بذاته لا ينتقل إلى غيره ، فالاسماك لا تنتقل إلى
تماسيح ، ولا القط إلى كلب ، بل إن لكل نوع آباء متميزة
تتناسل منها فروعها - حتى جاء (لامارك) وهو عالم فرنسي
(١٧٧٤ - ١٨٢٩ م) فأداه البحث إلى أن الأنواع يتحول بعضها
إلى بعض ، وأنه ليس بصحيح ما يقال من أن الأنواع متميزة
لا تتغير ، بل هي متميزة تنتقل من نوع إلى نوع ، بدليل ما نشاهده
من تدخل أنواعها بعضها في بعض وعدم وجود حدود مميزة لكل
نوع - ورأى أن الأنواع لم تخلق كلها في زمن واحد بل وجدت
الحيوانات السافلة أولاً ثم تدرجت في الرقي وتولد بعضها من بعض
وانتقلت من أنواع إلى أنواع ، وذكر أن العامل على هذا التغير شيئان
(١) البيئة أي أن الظروف المحيطة بالحيوان قد لا تكون
ملائمة له فيضطر عندئذ إلى تعديل نفسه على وفقها (٢) مبدأ
الوراثة يعني أن الصفات التي يتصف بها الأصل ليلاً وسطه
تنتقل إلى فروعها . وسمى هذا المذهب (مذهب النشوء والارتقاء)
لقوله بنشوء الحيوانات بعضها من بعض وارتقاؤها من حيوان
سافل إلى حيوان راق

وحاء بعده (دارون) العالم الإنكليزي (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م)
فأوضح - مذهب التحول - ونشر فيه مؤلفه المسمى (أصل
الأنواع) وبني مذهبه على قوانين يكثر دورانها على اللسنة ،

وهو (قانون الانتخاب الطبيعي) و (تنازع البقاء) و (بقاء الاصالح) و (قانون الوراثة)

فأما الانتخاب الطبيعي فيعني به أن الطبيعة تنتخب من الموجودات ما يصلح للبقاء ، فالحيوانات مثلا تنسل عدداً عديداً لا يحصي ، ولا يبقى منه إلا القليل ، ولم يبق ما بقي اتفاقاً ، ولكن لأنه هو الذي قاوم الحوادث المختلفة وفواعل الطبيعة فصاح للبقاء ، فالقوى يبقى والضعيف يفنى ، فما فعله الطبيعة من انتخاب أصالح الموجودات لتمنحه ميزة البقاء يسمى (الانتخاب الطبيعي) والمخلوقات في نزاع شديد ، فبين الانواع حرب عوان ، اسد يفترس ذئبا وذئبا يفترس خرافاً وانسان يفترس كثيراً ، أضف إلى ذلك أن النوع الواحد قد يتنازع بعض أفراده مع بعض عند الازدحام على شئ ، لا يكفي لسد رغباتها جميعاً كما ترى من تنازع القطط على قطعة من اللحم ، وكما ترى من تنازع الانسان مع الانسان ، وهذا التنازع الذي بين الانواع والافراد هو الذي يسمى (تنازع البقاء) يعني التنازع لاجل البقاء ، وكون الذي يبقى هو أصالح الموجودات للبقاء يسمى (بقاء الاصالح) والصفات الغريزية التي في الاصول تنتقل إلى الفروع فالنسل المتولد من الاقوياء قوى ومن الضعفاء ضعيف ومن تولد من ضعاف الصدر كان عرضة لمرض الصدر وهكذا ، وهذا هو (قانون الوراثة)

وليس هذا مقام شرح المذهب شرحاً وافياً وبيان ما استدل به أنصاره وما رده معارضوه ، وإنما ذكرنا هذا القدر توطئة لما نريد ذكره في الاخلاق ، وقد توسع كثير من العلماء في تطبيق هذا المذهب على كثير من الاشياء فطبقوه على النظم الاجتماعية وعلى أشكال الحكومات وعلى كثير من فروع العلم كعلم النفس وعلم الاجتماع والمنطق وعلى الفلاسفة والدين^(١)

ومعنى تطبيق هذا المذهب على العلوم بيان أن ما تبحث فيه هذه العلوم نشأ نواته أو جرثومة صغيرة أخذت في الرق خاضعة لقانون « الانتخاب الطبيعي » يبقى منها ما يصلح ويأخذ في الفناء ما لا يصلح وانها سائرة الى النمو والكمال — وعلى الجملة يمكننا أن نقول أن مذهب النشوء والارتقاء أثر في الباحثين وفي طريقة البحث أثراً كبيراً حتى يكاد يكون في دماغ كل باحث عند بحثه الاسئلة الآتية : ما أصل هذا الشيء الذي أبحث عنه ؟ كيف نما حتى صار الى الحالة التي نشاهده عليها ؟ ماذا ينتظر له من الكمال في المستقبل ؟ ومما طبق عليه هذا المذهب « الاخلاق » وممن فعل ذلك « هربرت سبنسر »^(٢) وآخرون ، يرى أصحاب هذا المذهب أن

(١) اذا اردت أن تعرف كيف طبق على كثير من العلوم فانظر كتاب

Progress and History, Edited by marvin

The Universal Kir ship by Mcore

وكتاب

(٢) (هربرت سبنسر) فليدوف انجلىزى (١٨٢٠ — ١٩٠٣) كانت

الاعمال الاخلاقية نشأت ساذجة بسيطة وأخذت في التدرج والرقى شيئاً فشيئاً ، وهي سائرة نحو « مثل أعلى » يعتبر هو الغاية ، والعمل خير كلما قرب من هذا المثل الأعلى وشر كلما أبعد عنه ، وغاية الناس في الحياة أن يحققوا هذا المثل أو يقتربوا منه قدر استطاع

ونحن نلخص ما ذكره سبنسر في عملية التطبيق

« أن معاملة الانسان أو سلوكه « ناشئ » من سلوك الحيوان فنحن اذا نظرنا الى الحيوان نرى أن من أحط أنواعه نوعاً مائياً يتحرك لا لغاية يقصدها بل بدافع طبيعي ، فيقع في أثناء تحركه اتفاقاً على غذاء يغتذى به ، وما هو الا أن يبصر به حيوان أرقى منه فيبتلعه — ولما كان هذا النوع من الحيوان ليس عنده من الشعور والقوة الدافعة ما يساعده على المعيشة وسط هذه البيئة كان نحو آسمة وتسعين في المائة منه يفنى بعد ساعات قليلة من وجوده اما جوعاً أو تسلطاً من حيوان آخر أرقى منه

فاذا نحن ارتقيننا الى حيوان آخر أرقى منه قليلاً (Rotifer) وجدنا أن بناء جسمه أحكم ، ووجدنا أن سلوكه في حياته أنظم فهو يتحرك باحثاً عن غذائه ، ويقاوم نوعاً من المقاومة ما يهدد حياته

نلسفته مؤسسة على مذهب النشوء ، وقد رقى الابحاث الاخلاقية والاجتماعية وألف كتباً كثيرة في النفس والاخلاق والاجتماع والتربية والسياسة ويمد من أقطاب العلم الحديث

ويعدل نفسه على حسب الظروف المحيطة به ويستخدم بعض ما
يحيط به في مصلحته ولا يستسلم استسلاماً تاماً لما حوله
ليرتق بعد الى الحيوانات الفقرية نجد أن « السلوك » يرق
تبعاً لرقى تركيب جسمها ، فالسمك مثلاً يتحول باحتنا عن غذائه ثم
إذا أدركه امتحنه قبل أن يأكله بشمه أو النظر اليه إذا كان علي
مسافة قريبة منه ، ثم إذا هو شعر بسمك أكبر منه جد في الهرب
منه ، فهو يعدل أعماله وفق غايته ، وان كان هذا التعديل بسيطاً
ساذجاً ، ولهذا كان ما يعيش منه الى سن الهرم نادراً إذا قيس
بعدد ما يولد

حتى إذا بلغنا نوعاً راقياً من الحيوانات الفقرية كالفيلة رأينا
سلوكها أنظم ووجدنا تعديلها حياتها على وفق ما يحيط به أتم ،
واستخدامها ما حولها في مصلحتها أكمل ، فهي تستطيع أن تمتحن
غذاءها بالنظر أو الشم على مسافات بعيدة ، فإذا داهمها خطر
أسرعت في العدو ، كذلك نجد ما تعمله لتحصيل غذائها أرق مما
تعمله الاسماك مثلاً ، فهي تكسر أغصان الاشجار الحاملة بالاثمار
وتنتخب من بينها أصلحها لغذائها ، وعند الخطر تدافع عن نفسها
لا بالهرب فحسب بل بالمقاومة وبالنزاع أيضاً — بل نجدها تعمل
أعمالاً ككالية فتذهب الى الانهار للاستبراد ، وتستعمل فروع
الاشجار في طرد الذباب ونحوه من على ظهورها ، وتصوت تصويته
خاصاً إذا رأت خطراً لتعلم القطيع بذلك ، فيحترس ، وعلى الجملة

فسلو كها راق وتعديلها أعمالها انيل أغراضها واضح جلي
ولم تكن إلا خطوات قليلة في الترقى حتى نصل الى الانسان
المتوحش فالتمدين، فنجده أكثر تعديلا لأعماله على وفق غايته،
وأحسن نظاماً في ذلك من سائر الحيوان، وانا لنجد الفرق في
ذلك بين القبائل المتوحشة والامم المتمدينة يشبه الفرق بين أعمال
الحيوان والانسان المتوحش، فغايات التمدين أعظم، وطرق
الوصول اليها أكثر اتقاناً، فاذا نظرت الى طعامه رأيت منظمًا
حسب الشهوة، متقناً في صنعه، متنوعاً في شكله وطعمه متفنناً
في اجادته، واذا نظرت الى لباسه رأيت عند المتوحش ثوباً نسجه
بيده من صوف غنمه ورأيت عند المتمدين المصانع الهائلة تصنع
له ثياباً مختلفة الالوان، مختلفة الانواع بديعة الصنع، يدخل عليها
كل يوم من أنواع التحسين ما يدعو اليه الذوق، واذا نظرت الى
سكنه وجدت البدوي يسكن بيتاً من شعر أو يلتجىء الى كهف،
على حين تجد المدني قد ابدع في قصوره الفخمة ايماء ابداع

وكما تقدم الانسان في المدنية ازدادت حاجاته، ونظم اجتماعه،
وتنوعت أعماله، فرأيت أشكالاً من الحكومات مختلفة، ورأيت
طرق التجارة وأعمال المصانع موزعة بدقة، كل هذا لتكون
حياة الانسان أبقى وأطول بل ولتكون حياته أعرض ونعني بالحياة
العريضة حياة مملوءة بالرغبات وفيها تلك الرغبات موفورة

مُرَوّاة - ونحن اذا قارنا بين معدل حياة البدوى والحضرى
ورغائبهما وحاجتهما رأينا المدنى أطول عمراً وأعرض حياة ، ذلك
لان الحضرى أقدر تعديلاً لنفسه على وفق الظروف المحيطة به
كما أنه أقدر على الانتفاع بما حوله واستخدامه فى مصالحته
يتبين لنا من هذا أن فى طبيعة كل نوع من أنواع الحيوان
دافعاً غريزياً يدفعه لحفظ شخصه « وينشأ هذا الدافع ويرتقى »
تبعاً لنواميس الطبيعة

والآن يزيد أن فى طبيعة كل حيوان أيضاً دافعاً غريزياً
يدفعه الى حفظ نوعه ، وان هذا يتبع (سنة النشوء والارتقاء)
كالذى رأيناه فى حفظ الشخص ، ففى بعض الحيوانات البحرية
الديئنة يحصل التلقيح اتفاقاً ويترك النسل للقدّر يتصرف فيه كما
يشاء وقل ما يعيش منها فاذا رقينا الى الاسماك مثلاً رأينا منها
ما يختار المكان المناسب لبويضاته وما يحرس بيضه ويحفظه مما
يعتدى عليه ، ثم اذا رقينا الى الطيور رأيناها تبني عشها لبيضاها
وترقد عليه ، فاذا أفرخ أمدت صغارها بالغذاء حتى تستطيع
الاعتماد على نفسها

ولا تزال ترتقى هذه الغريزة (غريزة حفظ النوع) حتى
نصل الى الانسان المتوحش فالتمدين ، فهو أكثر عناية بأولاده
يربهم مدة أطول من مدة الحيوان لأن حياة الانسان
أكثر تركباً

وقد شوهد أن رقى الانسان في المحافظة على نوعه يسير
جنباً لجنب مع المحافظة على شخصه ، فدرجات المحافظة متقاربة ،
كلاهما ينشأ ساذجاً بسيطاً ثم يرقى

*
* *

يستنتج من ذلك كله أن الحيوان يكون أقرب الى الكمال
كلما كُنت نفسه واستعداداته معدلة على حسب ما يحيط بها ،
فكل عمل يعمله الانسان إما أن يجعله في وفاق مع ما حوله من
الظروف ويجعل حياته وحياة نوعه أغنى وأسعد ، وإما أن يكون
العمل لا يتفق مع ما يحيط به ويجعل حياته وحياة نوعه أفقر
وأشقى ، فما كان من النوع الاول فعمل طيب ، والتخاق به حسن
وخير ، وما كان من النوع الثاني فقيح وشر — ولما كانت الاعمال
كثيراً ما تتمزج فيها اللذة بالألم كان خير الاعمال ما كان أقرب
الى اللذة الصافية — وحياة الناس الى الآن لم تبلغ الكمال ولكنها
سائرة اليه تبعاً لسنة النشوء والارتقاء ، ويجب على الناس أن
يساعدوا هذا السير — بتعديل أنفسهم حسب ما حولهم من
الظروف — حتى يسرعوا في البلوغ الى الكمال^(١)

ترى من هذا أن مذهب سبنسر يتخذ مقياس العمل « تعديل
النفس على وفق ما يحيط بها من الظروف » فالعاملة خير اذا
سببت لذة أو سعادة ، وإنما تكون كذلك اذا كانت ملائمة لما

(١) انظر كتاب سبنسر Data of Ethics

يحيط بها ، وبعبارة أخرى لأنها في وفاق مع ما حولها ، والمعاملة تكون شراً اذا سببت المأ وإنما تكون كذلك اذا كانت لا تتفق مع ما حولها ولا تلائم الظروف المحيطة بها ، وكلما كان العمل أكثر ملاءمة أو أكثر وفاقاً كان أقرب الى الكمال

يرى أصحاب هذا المذهب أن الأعمال الأخلاقية نشأت ساذجة بسيطة وأخذت في التدرج والرقى شيئاً فشيئاً وهي سائرة نحو مثل أعلى يعتبر هو الغاية ، والعمل خير كلما قرب من هذا المثل الأعلى وشركماً أبعد عنه ، وغاية الناس في الحياة أن يحققوا هذا المثل أو يقتربوا منه قدر المستطاع

وكل عملية من عمليات النشوء والارتقاء تشمل ثلاثة أشياء: بدء من نقطة معينة ، وتدرج في السير نحو غاية ، وغاية يقصد الى الوصول اليها ، ففي نشوء الحيوان مثلاً بدأت الحياة في حيوانات دنيئة جداً ثم ارتقت شيئاً فشيئاً في أجيال عديدة وآلاف من السنين وكان انتقالها تدريجياً وقد مر في مراتب كثيرة من حشرات الى زواحف الى غير ذلك حتى وصل الى الانسان المتوحش فالتمدن وهو سائر الى نوع من المدنية أرقى وأعظم - وفي العادة نجد أن نقطة البدء في كل عملية نشوء والغاية التي يقصد اليها خفيتان عنا لانميزهما تمييزاً واضحاً وإنما الواضح أمامنا التدرج في السير - كذلك الشأن في الاخلاق اذا نحن استعرضنا المعاملة من مبدأ وجودها عند الحيوانات الى غاية ما يمكن أن تصل اليه

وجدنا المبدأ غامضاً ، ووجدنا الغاية التي هي المثل الاعلى غامضة كذلك نوع غموض والعمل كلما قرب منها كان خيراً وكلما بعد عنها كان شراً

وقد طبق الاستاذ الكسندر، ما قاله دارون في « الانتخاب الطبيعي » و « تنازع البقاء » و « بقاء الاصلح » على الاخلاق، وهاك خلاصة ما قاله في ذلك « ترى في الحيوانات أن بينها نزاعاً على البقاء ، يتنازع بعضها مع بعض للغلبة والظفر ، وهذا النزاع حاصل بين الافراد وبين الانواع ، ونتيجة هذا النزاع فناء بعض ، وبقاء بعض وهو الاصلح ، وهذه العملية تسمى « الانتخاب الطبيعي » وهذا ينطبق على الاخلاق ، فهناك حرب بين المعاملات وطرق

المعيشة والمثل العليا للحياة ، فهذه الامور تتنازع ولا يسمح بالبقاء الا لما يتفق منها مع الخير العام — ترى في عالم الحيوان أن بعض الافراد أو الانواع قد ولد ممتازاً بميزات خاصة تجعله اُصلح للبقاء من غيره ، ولهذا تبقى ، وتورث نسلها ميزاتهما ، على حين أن الضعيف لا يجد له مجالاً في الحياة — أما في الاخلاق فليس كذلك بين الافراد نفسها بل بين الآراء والعقول — ترى رجلاً بما منح من قوة ففكر يميل الى نوع من المعاملة أو يستنكر عادة ألفها الناس كأن يستنكر حالة المرأة ومعاملة الناس لها معاملة تقرب من معاملة الرقيق فيجهر برأيه ويقف وحده أو مع قليل من الناس مؤيداً ما يقول مدافعاً عنه ، وقد يثير قوله سخرية الناس وتهكمهم عليه واحتقارهم

له ، فإذا كان الرجل من كبار المصلحين لم يعبأ بذلك كله ولو جر الى الموت وظل يعان رأيه ويجاهد في سبيله ، والرأي في أثناء ذلك ينشر شيئاً فشيئاً ، والناس يستكشفون صلاحيته ويميلون اليه ويقتنعون به ، وينقلب عداؤهم للرأي تحزباً له ، وتؤيده كل يوم قوة جديدة حتى يصبح عقيدة أغلب الناس أو كلهم — ويحل الاقتناع والتربية في عالم الاخلاق والآراء محل تولد الجنس وافناء الضعيف في عالم الحيوان ، لان طريق انتصار عقل على عقل هو الاقتناع وهناك آراء أخرى في تطبيقي مذهب النشوء والارتقاء ووردود على الآراء المختلفة لا يسعها هذا المختصر

الحكم الاخلاقي

ذكرنا فيما تقدم أن الحكم الاخلاقي أي الحكم بالخيرية والشريعة لا يصدر الا على الاعمال الاختيارية فالمراد توجده ارادة لا يصدر حكم . فلو طغى ماء النيل فأغرق كثيراً من البلدان أو هبت عاصفة فدمرت مالاقتته . أو أغرقت الامواج سفينة بمن فيها فلا يحكم على هذه الاعمال بانها شر إذ لا ارادة . أعني لا يصدر الحكم على عمل النيل وأمثاله بأنه شر كما أنه لا يحكم على عمله بأنه خير إذا فاض باعتدال وروى الأراضى وأفادها ، كذلك اذا جمع حصان فأوقع راكبه أو سار سيراً حسناً فأوصله الى غايته لا يحكم على عمله بأنه شر في الاولى ولا خير في الثانية مادامنا لا نعترف

له بارادة . كذلك أعمال الانسان غير الارادية كهضم معدته هضمًا
جيداً وتوزيع القلب للدم توزيعاً منظماً . وكارتعاشه لحى أصابته
ونحو ذلك

انما يحكم على الاعمال الارادية بانها خير أو شر تبعاً للمقياس
الذى ذكرنا . والذي نريد أن نقوله الآن : هل يصدر الحكم على
هذا العمل باعتبار النتائج التى أنتجها أو باعتبار غرض العامل الذى
من أجله عمل العمل ؟ فكثيراً ما يريد انسان عملاً يقصد به خيراً
فيستتبع العمل من النتائج السيئة ما لم يكن فى حسبانته . كرجال
حكومة أعلنوا الحرب على أمة أخرى لأنهم رأوا خير أمتهم
فى ذلك ، فقد قدروا قوتهم باكبر من قوة عدوهم ، وحسبوا
ما يغنمون من اللذائذ اذا دحر عدوهم . ولكن خاب أملمهم فهزموا
وسلبوا بعض الولايات ، فهل يحكم على اعلان الحرب بأنه خير
نظراً إلى الغرض منه — وهو خير الامة وتحصيل السعادة لها —
أو أنه شر نظراً لما نتج عنه من الآلام ؟

وكذلك قد يريد الانسان الشر فيعكس عليه قصده ويأتى
العمل بأحسن النتائج كمن يفش انساناً فيغريه بشراء شئ . يظن
فيه الخسارة فيغتم الشارى من وراء ذلك ربحاً كبيراً فهل يحكم
على هذا العمل بأنه شر تبعاً للنية أو خير نظراً لما نتج عنه من الفوائد ؟
الحق أن العمل يحكم عليه بأنه خير أو شر نظراً لغرض العامل
فالعمل الذى قصد به الخير خير مهما استتبع من النتائج . والذى

أريد به الشر شر ولو انتج نتائج حسنة . فقبل الحكم على عمل ينبغي أن نعرف غرض العامل منه . أما العمل في ذاته فليس بخير ولا شر . فاحراق أوراق مالية قيمتها ألف جنيه مثلاً لا يمكن الحكم عليه في ذاته بخيرية ولا شرية بل قد يكون شراً إذا أراد المحرق الانتقام من ماله . وقد يكون خيراً كما إذا قدمت رشوة لقائد أو قاض ورأى أنه لا سبيل إلى تأديب الراشي إلا إحراقها . وكثير من الأعمال السيئة قد تعمل لغرض صالح فلا يحكم عليها بأنها شر ، كما يقال من أن قدماء المصريين كانوا يرمون بكرأفي النيل ليفيض ولما كان الحكم الأخلاقي يعتمد على معرفة غرض العامل من عمله لم يجوز لنا أن نصدر الحكم (بالخيرية أو الشرية) إلا على أنفسنا أو على من نتحقق غرضهم من أعمالهم ، أما باخبارهم أو بقيام القرائن على أغراضهم ، فاذا رأينا من إنسان عملاً فلا نعجل بالحكم عليه بل يجب أن نبريث حتى نعرف الغرض منه ، نعم أن هناك أفاظاً وضعت للدلالة على نتائج العمل كلفظي (نافع) و (ضار) فانه يصح الحكم على الأعمال بأنها نافعة أو ضارة نظراً لنتائجها لا للغرض منها ، وكون الشيء نافعاً أو ضاراً غير كونه خيراً أو شراً فالحكم بالنفع والضرر ليس حكماً أخلاقياً لانه حكم يتبع نتائج العمل ، أما الحكم بانه خير أو شر فيتبع الغرض كما بينا ، واذن يكون من الواضح أن بعض الأعمال قد يكون خيراً ضاراً كاعلان الحرب في المثال المتقدم ، ونبنى بخير أن غرض فاعله حسن ونعني بضار

أن نتأججه وخيمة والعكس واضح
والانسان لا يلام على عمل عمله يريد منه الخير مهما ساءت نتأججه،
وانما يلام اذا كان في استطاعته أن يرى النتأجج اذا دقق البحث
وأمعن النظر ثم لم يفعل، فوضع اللوم هو التقصير عند اختيار
العمل لا ارادة العمل الصالح، فلا يلام قدماء المصريين مثلاً على
رى بكر في النيل لانهم أرادوا من عملهم الخير وانما يلامون على
اعتقادهم أن النيل لا يفيض حتى تهدى اليه بنت، لانهم بنوا هذه
العقيدة على استقراء ناقص وأساس غير متين - والامة التي
أعلنت الحرب ففشات لا تلام على اعلانها الحرب لانها رآته خيراً
وانما تلام اذا لم تكن تبحث المسألة من جميع وجوهها بحثاً وافياً
وكان في استطاعتها أن ترى النتأجج ثم قصرت في البحث
هذا كله في الحكم الاخلاقي الذي يصدر على العمل، وقد
يصدر الحكم على العامل نفسه فيقال انه خير او شرير طيب
او خبيث فاذا يلاحظ في ذلك؟

عند حكمنا على العامل انما نلاحظ مجموعة ما يصدر منه فاذا
كان « حاصل الجمع » يبين ان اعماله الخيرة اكثر من اعماله
السيئة حكمنا عليه بأنه رجل طيب والعكس. ومن ذلك يستنتج
أن الرجل قد يصدر منه عمل خير وهو نفسه شرير وقد يصدر
من الخير عمل شر، ذلك لانا في حكمنا على العمل انما نلاحظ

الغرض من عمله هذا بحسب . وفي حكمنا على العامل نلاحظ جميع أعماله في حياته

نشوء الحكم الاخلاقي وارتقاؤه ان جرثومة الحكم الاخلاقي موجودة في الحيوانات كجرثومة المعاملة ، ففي الحيوانات المستأنسة نرى السكاب مثلا يتمسح بصاحبه ويتملق له اذا هو عمل عملا منكراً ، فهو يميز الاعمال التي يستحق عليها العقوبة من غيرها ، والحيوانات الدنيئة لا تنظر في حكمها على الاشياء الا الى شخصها وبرقيها شيئاً فشيئاً يتسع نظرها فتشعر بأولادها ، ثم إذا زاد رقيها عاشت قطعاناً ووجد عندها الشعور بالعمل خير القطيع كما رأينا في الفيلة ، يصوت الفرد من القطيع صوتاً خاصاً اذا دهمه خطر لينبه بقية أفراد القطيع ، ثم يرقى الشعور بالغير حتى يصل إلى الانسان المتوحش فتراه يشعر بقبيلته ويعمل لنفعها ويعتقد خيراً ما ينفعها وشرراً ما يضرها ، ولكن نظره في الحكم لا يتعدى قبيلته فلا يعد شرراً إلا ما يؤذيها ، وليس يحكم على الاعمال بنتائجها العامة ، - روى المؤرخون أن بعض القبائل في افريقيا تعاقب بالموت السارق الذي يسرق من أحد أفراد قبيلته وتشجع على السرقة من القبائل الاخرى

والناس في هذا الطور يعتقدون أن ليس عليهم واجبات أخلاقية لغير قبيلتهم ، فليس عليهم جناح اذا أغاروا على القبيلة

الآخري أو سرقوا أو غشوا أو قتلوا منها ، يعتقد الفرد في القبيلة أنها عالمه الذي يعيش فيه وأنها وحدها الموجود حقاً الذي يستحق البقاء في هذا العالم — وقد أجمع الرحالة على أن العلاقة بين القبيلة والقبيلة عند المتوحشين علاقة عداً ، غالباً ، وإن أفراد القبيلة ينظرون إلى غيرهم كما ينظرون إلى الحيوانات التي حولهم ، كالأهالي يحل صيده فلما ارتقى الناس قليلاً اتسع نظرم وكانت أحكامهم الأخلاقية أقرب إلى الصواب ، فكانوا ينظرون إلى الأمة المسكونة من جملة قبائل كأنها جسم واحد ، ولكنهم كانوا ينظرون إلى الأمم الآخري نظرة العدا ، كأمة اليهود ، كانوا يعتقدون أنهم خير ناس على وجه الأرض ، أبناء الله وأحبائه ، وإن أرضهم المقدسة « فلسطين » مركز العالم ، وإن حاضرة بلادهم أقدس مكان في الأرض وأطهر بقعة ، وكانوا يعتقدون أن لليهودى قبل اليهودى حقوقاً وعليه واجبات أما غير اليهودى فليس له حق « ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا مادامت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل »

كذلك كان الشأن عند اليونان ، كان العالم الأنسانى عندهم ينقسم إلى قسمين يونانيين ومتوحشين ، يعتقدون في جبلهم « أولمبوس » الذى لا يبلغ ارتفاعه إلا ٩٧٠٠ قدم أنه أعلى جبل على وجه الأرض ، وأنه مسكن الآلهة ، ويستبيحون الاسترقاق من غيرهم حتى أن فيلسوفهم أرسطو كان يقول « إن الأرقاء

حيوانات مستأنسة لها عقل » ولهذا النظر لم يكن اليونان يعدلون في غيرهم

ارتقى الناس فيما بعد فكانوا في حكمهم بالخيرية والشرية والحسن والقبح أوسع نظراً ، تبودلت التجارات بين الامم ، وحسنت الصلات ووجدت القوانين الدولية والاخلاق الدولية ، ولم ينظر الفرد من أمة إلى الفرد من أمة أخرى نظرة العدو لعدوه ، وإن كانت لا تزال عند الامم وفي النفوس بقية موروثه من آباءنا المتوحشين

من هذا نرى أنه ينشأ الحيوان ضيق النظر في حكمه ضيقاً لا يتعدى شخصه ، ثم يأخذ النظر في السعة شيئاً فشيئاً حتى يشمل أمته وحتى يرى أن أمته ليست إلا جزءاً من العالم الفسيح وأن بجانب أمته أمماً كأمته ، فالحكم الاخلاقي اتسع أفقه من فرد إلى أسرة إلى عشيرة إلى قبيلة إلى مملكة صغيرة إلى أمة كبيرة ولا يزال آخذاً في السعة حتى نصل إلى نظر واسع ، يجعل الانسان أخا الانسان لا يظلمه ولا يخونه ، يعدل معه كما يعدل مع أحد أفراد أسرته ، سيضمحل النظر الشخصي أو الجنسي خضوعاً لسنة النشوء والارتقاء ويحل محله النظر إلى النوع الانساني كأنه جسم واحد ، سيكون نظر الانسان الاخلاقي نظراً عالمياً بعد ان كان نظراً قبيلياً^(١)

وهناك جهة أخرى للنظر في « نشوء » الحكم الاخلاقي، وهي أن الحكم الاخلاقي يتبع - عند المتوحشين والامم المنحطة العرف فالشيء، خير اذا وافق العرف وشر اذا خالفه ، حتى اذا ارتقت الامة بمعض الشيء، أخذت من العرف ووضعت لها قانوناً يبين الواجب والمحرم ، ويصبح ما يأمر به القانون خيراً اخلاقياً وما ينهي عنه شراً ، وبعد مضي زمان تتعارض أوامر القانون او نواهيه وتعرض من الجزئيات مالم ينص القانون على حسنها او قبحها وتتغير حالة الناس الاجتماعية فيرون بمعض اوامر القانون لانصلاح لهم فيضطرم ذلك إلى البحث في « روح القانون » وفي « أساس الخير والشر » فيأتي الدور الاخير وهو دور « البحث العلمي » في الاخلاق وفي المقياس الذي بملاحظته يصدر الحكم على الشيء، بانه خير أو شر ، ويصل العلماء الى مقاييس تختلف باختلاف أنظارهم ، وتحل هذه المقاييس محل العرف والقانون

خضوع الانسان للقوانين

الانسان في هذه الحياة محاط بقوانين كثيرة، ملزم بالخضوع لها جميعها ، فاول تلك القوانين « القوانين الطبيعية » وهي القوانين التي تشرح لنا طبائع الاشياء مثل قوانين المد والجزر والجذب العام والكهرباء ، ونحو ذلك ، وهذه القوانين ثابتة لا تتغير ولا يمكن مخالفتها ، جارية على سنن واحد ، عرفها الناس او جهلواها ، وقد

يتغير علمنا بها ورأينا فيها ، أما القانون نفسه فلا يتغير ، فالناس
مثلا كانوا يعتقدون أن الارض ثابتة والشمس تدور حولها ثم
تغير رأيهم وأثبت العلم أن الارض تدور حول الشمس ، فالذى
تغير هو رأي الناس ، أما الارض فن قديم كانت تدور حول الشمس ،
والكهرباء كانت تؤثر أثرها في الكون ولولم يعرفها الناس الا
حديثاً ، ولا تزال هناك قوانين طبيعية تعمل عملها فيما بيننا ولما
نستكشفها ، وسيعلم الذين من بعدنا منها أكثر مما نعلم
هذه القوانين الطبيعية نافذة حتماً فيما مضى وفي الحال وفي
المستقبل ، ولو ثوقنا بها وبنظامها نهى ، أعمالنا على وفقها ، فبني
بيوتنا مثلاً لأننا واثقون بأن قانون الجذب سيعمل في السنين الآتية
ما كان يعمل في السنين الماضية وهكذا

وهي لا ترحم صغيراً ولا توقر كبيراً . تنفذ حكمها على من
يعصيها ولو كان طفلاً رضيعاً أو شيخاً وقوراً ، فلو أمسك طفل
النار بيده لا احترقت ولولم يعلم أن النار تحرق ، ولو تعاطى انسان
سماً مميئاً ظناً أنه سكرٌ لمات بحكم القانون الطبيعي ولم يعذره الجهل
وكلاً أكثر الانسان من معرفته بالقوانين الطبيعية وعرف
كيف يستخدمها في مصالحته كانت حياته أسعد ، وهذا هو السبب
الذى من أجله نهتم بالبحث عن القوانين الطبيعية بما ندرس من
« طبيعة وكيمياء وعلم نبات وعلم وظائف الاعضاء » فالباعث
الاول على دراسة هذه العلوم هو معرفة قوانينها ثم استخدامها

في شؤوننا اليومية، وهذه الحياة اليومية قد تغيرت تغيراً كبيراً بما عرف من قوانين الكهرباء والبخار ونحوهما، وصرنا أسعد حالاً من أسلافنا يوم ان كانت هذه القوانين غير معروفة لهم قد تبين لنا من هذا أن موقف الانسان أمام هذه القوانين الطبيعية انما هو أن يجتهد في تعرفها حتى اذا عرفها وفق بينها وبين أعماله ولم يعصها لانه إن عصاها فالضرر واقع عليه هو، على أننا نتسامح في اللفظ إذا قلنا «عصاها» لان عصيانها في الحقيقة لا يمكن، إذ قوانينها نافذة شاء الانسان أو أبي غير أن الانسان تارة يعمل على وفاتها فينتفع بها وتارة لا يعرف كيف يستخدمها في منفعتها فيؤذى بها

وليست هذه القوانين الطبيعية قاصرة على ما يحيط بنا من الجمادات بل أن الاحياء أنفسها من نبات وحيوان خاضعة لقوانين ثابتة تهتم بتعرفها علوم كثيرة «كعلم الحياة» والانسان نفسه خاضع لقوانين طبيعية كثيرة تخصص لكل طائفة منها علم خاص، فعلم يبحث فيه من حيث هو كائن عاقل وهو «علم النفس» فهو يبحث في القوانين الطبيعية التي تخضع لها قواه العاقلة وعلم يبحث فيه من حيث هو كائن اجتماعي وهو «علم الاجتماع» فهو يبحث في الجمعية البشرية وبعبارة أخرى في الانسان من حيث علاقته بالمجتمع الذي فيه ولد وفيه يعيش،

وقد استكشف في العصور الاخيرة قوانين طبيعية للمجتمع
ثابتة لا تتخلف وبرهن على صحتها

كذلك لمعاملة الناس بعضهم بعضاً قوانين تبين خيرا وشرها
وتبين ما يوصل إلى السعادة وما يبعد عنها ، كالقوانين التي تأمر
بالمصدق والعدل وتنهى عن الكذب والظلم ، والعلم الذي يهتم
ببيانها هو « علم الاخلاق » وهذه القوانين شأنها شأن سائر
القوانين الطبيعية في إنها ثابتة لا تتغير وإنما الذي يتغير رأينا فيها
ونظرنا اليها ، فالمعاملة الاخيرة التي يجب على الناس أن يعملوا بها
ثابتة لا تتغير وان تغير رأي الناس فيها فالاولون المتبررون كانوا
أكثر نزاعاً وأقل احتراماً لحقوق الغير ، لا يعنون إلا بأنفسهم
وأقرب الناس اليهم ، وكان القوي يتعمد على الضعيف فيسلبه
ماله أو حياته، وكانوا يرون الخير فيما يعملون، والناس اليوم أقل نزاعاً
وأكثر تعاوناً، يرون من الخير العناية بالجريح في الحروب وان كان
من الامم المعادية، بعد أن كان القدماء يرون الخير في الاجهاز عليه،
وهم اليوم ينشئون المستشفيات للمرضى ويعنون بالمسجونين تربية
وتهديباً، ولا يرون الاسترقاق جائزاً ، وهم يرون الخير في ذلك كما
كان القدماء يرون الخير فيما يسرون عليه ، وسيكون من بعدنا
أرقى معاملة وأحسن نظاماً — ولكن المعاملة التي هي خير لجميع
الناس شيء واحد بالنسبة لنا والسلف واختلف على السواء وان

جهلها بعضهم - وعمل علم الاخلاق الاجتهاد في البحث عنها
واستكشافها لافي خلقها من جديد

وهناك نوع آخر من القوانين التي يخضع لها الانسان يسمى
القوانين الوضعية وهي مجموعة الاوامر والنواهي التي تضعها
الحكومة وهي لا تكفي، المطيع ولكن تعاقب العاصي بعقوبات
تختلف باختلاف الجريمة ، وقد اهتمت الحكومات بهذه
القوانين فأحاطتها بشرطة حمايتها وقضاة لا يقاع العقاب بمن يخالفها،
فاذا ارتكب انسان جريمة القتل مثلاً قبض عليه رجال الشرطة
وحوكم أمام القاضي وحكم عليه وكل ذلك لانه خرق حرمة القانون
الذي ينهاه عن القتل

وبين القوانين الاخلاقية والوضعية فروق عديدة أهمها :

(١) أن القوانين الوضعية قابلة للتغير، وضعت لقوم في أحوال
خاصة ، فاذا تغيرت تلك الاحوال تغير القانون ، وانا نرى الحكومة
من حين لآخر تعتمد إلى بعض القوانين فتغيرها لان أحوال
الناس اقتضت ذلك ، أما القوانين الاخلاقية فتأبته لا تتغير وانما
يتغير رأى الناس فيها كما بينا

(٢) أن القانون الوضعي قد يكون صالحاً وقد يكون غير
صالح كما إذا أخطأ واضع القانون فوضع مالا يتفق مع مصاحبة
الامة أو أساء القصد في الوضع ، ولكن القانون الاخلاقي متى
ثبت أنه أخلاقي لا يكون الا صالحاً

(٣) القانون الوضعي لا ينظر في حكمه الا إلى الاعمال الخارجية
أما القانون الاخلاقي فينظر إلى الاعمال والباعث عليها بل قد يحكم
على العمل بأنه شر وان كانت نتائجه حسنة لان الباعث عليه سيء
(٤) القانون الوضعي تقوم بتنفيذه سلطة خارجية من قضاة
وجند ورجال نيابة وسجون واصلاحية أحداث الخ أما القانون
الاخلاقي فتنفذه قوة داخلية « قوة النفس » وعي الوجدان

(٥) القانون الوضعي لا يكلف الاشخاص الا بالواجبات التي
عليها يتوقف بقاء المجتمع غالباً ، كاحترام النفس والمال أعني لا يكلفهم
إلا بالضروريات أما القانون الاخلاقي فيكلفهم بالضروريات
والسكليات معاً فهو يكلف الناس أن يكونوا خياراً جهدهم وان
يصلوا الى أقصى درجة في الرقي بمكنهم الوصول اليها - فالقانون
الوضعي مثلاً ينهى عن التعدي على مال الغير بالسرقة ونحوها ولو سكت
لا يكلف الافراد أن يتصرفوا في أموالهم أنفسهم بما ينفعهم وينفع
أمتهم ، أما الأخلاق فانها تأمر الافراد أن يحسنوا التصرف في
أموالهم ، وتندبهم الى أن يتبرعوا للأعمال النافعة كالمستشفيات
والجمعيات الخيرية ، وتعدُّ آتماً من في استطاعته أن يوصل الخير
الى الناس ولم يفعل

*
* *

ولا بد لسعادة الانسان في هذه الحياة من خضوعه للقوانين
التي ذكرنا جميعها ، فلو حارب القوانين الطبيعية لهزم أمامها ولو خالف

القوانين الوضعية والاخلاقية لعاش عيشة سيئة ، لان هذه القوانين انما وضعت لاسعاده ، ذلك لان الانسان في هذه الحياة مضطر الى الاجتماع لا يمكنه أن يعيش وحده ولا بد أن تكون له علاقات بمجتمعات كثيرة من أسرة ومدرسة وبلدة وأمة ، وكل انسان في هذه المجتمعات له حقوق وعليه واجبات ، وكثيراً ما يدفع حب الانسان نفسه الى التعدي على حقوق الآخرين أو التقصير في أداء واجبه ، فكان الناس في حاجة الى قوانين تبين لهم حقوقهم وواجباتهم وتقف كلاء عند حده وهذا هو عمل القانون الوضعي والاخلاقي — ولولا هذا الاجتماع وعلاقة الناس بعضهم ببعض ما احتجنا الى قوانين ولا كانت جريمة ولا عقوبة ولا أمر ولا نهى

نظرة اجمالية

في تاريخ البحث الأخلاقي

لعل أول باحث في الأخلاق بحثاً علمياً اليونان ، ولم يعر اليونان الأولون الأخلاق التفاتاً كبيراً بل كانت جل أبحاثهم تدور حول الطبيعيات ، حتى جاء السوفسطائيون (٤٥٠ — ٤٠٠ ق م) ، (ومعنى السوفسطائي في اللغة اليونانية الحكيم) وهم طائفة من الفلاسفة كانوا معلمين متفرقين في البلاد مختلفين فيما بينهم في الآراء ، ولكن يجمعهم غرض واحد ، وهو اعداد شبان اليونان

ليكونوا وطنيين صالحين أحراراً ، يعمون ما يجب عليهم لوطنهم ، وقد أدام النظر في هذه الواجبات الى النظر في أصول الاخلاق واستتبع ذلك نقد بعض التقاليد القديمة والتعاليم التي جرى عليها سلفهم ، فأثار ذلك غضب « المحافظين » ، وجاء أفلاطون بعدُ فعارضهم وانتقد متأخريهم ، وكانوا يتهمون بلعبهم بالالفاظ لقلب الحقائق حتى اشتقوا من اسمهم « سفسطة » وعنوا بها المغالطة في البحث والجدل ، من أجل ذلك شوه اسمهم مع أنهم ربما كانوا أبعد معاصريهم نظراً ، وأشدهم اجتهاداً في ايقاظ العقول وتحريرها من الاوهام

وجاء « سُقراط » (٤٦٩ — ٣٩٩ ق م) فوجه همه الى البحث في الاخلاق وفي علاقة الناس بعضهم ببعض ، ولم يهتم بما اهتم به الفلاسفة قبله من البحث في منشأ العالم وفي الاجرام السماوية ، وكان يُعَدُّ هذا قليل الفائدة ، ويرى أن الواجب أن يوجه النظر الى ما ينبنى عليه في الحياة عمل ولذلك قيل « انه استنزل الفلسفة من السماء الى الارض »

ويعد سُقراط مؤسس علم الأخلاق لأنه أول من حاول أن يبنى معاملات الناس على أساس عامي ، وكان يرى أن الاخلاق والمعاملات لا تكون صحيحة إلا اذا أسست على العلم حتى كان يذهب الى أن « الفضيلة هي العلم » ^(١)

(١) انظر شرح هذه الجملة عند الكلام على الفضيلة

ولم يعرف عن سقراط رأيه في الغاية الأخلاقية ، وبعبارة أخرى المقياس الذي تقاس به الأعمال فيحكم عليها بأنها خير أو شر ، حتى لقد قامت فرق متباينة مختلفة الرأي في الغاية وكلها تنتسب الى سقراط وتتخذة زعيمها وعلى أثر سقراط ظهرت المذاهب الأخلاقية وتوعدت وظلت متنوعة الى يومنا هذا ، وأعم الفرق التي ظهرت بعده الكليبيون Cynics والقورينائيون Cyrenics وكلهم من أتباع سقراط

أما الكليبيون فؤسس مذهبهم أنتستينيس ، عاش من (٤٤٤ — ٣٧٠ ق م) ومن تعاليمهم أن الآلهة منزهة عن الاحتياج ، وخير الناس من تخلق بأخلاق الآلهة فقلل من حاجاته جهد الطاقة ، وقنع بالقليل وتحمل الآلام واستهان بها ، واحتقر الغنى وزهد في اللذائذ ، ولم يعبئوا بالفقر وسوء رأى الناس فيهم متى كانوا مستمسكين بالفضيلة ، ومن أشهر رجال هذا المذهب ديوجانس الكلبي ، مات سنة ٣٢٣ ق م وقد كان يعلم أصحابه أن يطحروا التكلف الذي اقتضاه اصطلاح الناس وأوضاعهم ، وكان يلبس الخشن من الثياب ويأكل ردىء الطعام وينام على الارض أما القورينائيون فزعيمهم أرسططس ولد في قورينا (مدينة من مدن برقة في شمال افريقية) وكانوا على عكس الكليبيين يرون أن طلب اللذة والفرار من الألم هي الغاية الصحيحة الوحيدة للحياة وأن

العمل يسمى فضيلة اذا كان ينشأ عنه لذة أكبر مما ينشأ عنه من الألم
فبينما يرى السكليون السعادة في الفرار من اللذة وتقليلها
جهد الطاقة يرى القورينائيون السعادة في نيلها والاكثر منها
ثم جاء أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق م) وهو فيلسوف أثيني
تلمذ أيضاً لسقراط ، وقد ألف كتباً كثيرة حفظت لهدنا هذا
كتبها على شكل محاورات ، وأكثرها شيوعاً « كتاب الجمهورية »
وآراؤه في الاخلاق منشورة في تلك المحاورات ممزوجة بأبحاثه
الفلسفية

وكلامه في الاخلاق مبني على « نظرية المثال » وتوضيح ذلك
أنه كان يرى أن وراء هذا العالم المحسوس عالماً آخر روحانياً ، وأن
لكل موجود مشخص مثالا غير مشخص في العالم العقلي أو الروحاني ،
طبق ذلك على الاخلاق فقال ان بين هذه المثل مثالا للخير وهو
معنى مطلق أزلي أبدي بالغ الكمال ، وكلما قربت المعاملة منه
وسطع عليها ضوءه كانت أقرب الى الكمال ، وفهم هذا المثال
يحتاج إلى رياضة النفس وتهذيب العقل ، ومن ثم لا يدرك الفضيلة
في خير أشكالها إلا من كان فيلسوفاً

وكان يرى أن في النفس قوى مختلفة ، والفضيلة تنشأ من
تعادل تلك القوى وخضوعها لحكم العقل ، وذهب إلى أن أصول
الفضائل أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ، وهي قوام الامم
كما أنها قوام الافراد ، ففي الامم ترى الحكمة فضيلة الحكام

والشجاعة فضيلة الجنود والعفة فضيلة الرعية ، والعدل فضيلة
الجميع تحدد لكل انسان عمله وتطلب منه أن يعمل على أحسن
وجه وكذلك الشأن في الفرد : الحكمة هي الفضيلة الخاصة للشخص
المدبرة له ، والشجاعة فضيلة بها يدفع الشرور ، والعفة بها يقاوم
الميل إلى التغالي في اللذائذ ، والعدل الفضيلة الدافعة للعمل بما
يتفق مع مصلحة الناس

ثم جاء أرسطو أو ارسططاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) وهو
تلميذ أفلاطون أسس مذهباً خاصاً يسمى أتباعه بالمشائين
Peripatetics « لأنه كان يعلم وهو يمشى ، أو لأنه كان يعلم في نماش
مظلمة » وقد بحث في الاخلاق وألف فيها ، وقد رأى أن الغاية
الاخيرة التي يطلبها الانسان من أعماله « السعادة » ولكن
نظره إلى السعادة أوسع وأعلى مما يذهب اليه المنفعيون في العصور
الحديثة وطريق نيل السعادة عنده استعمال القوى العاقلة
أحسن استعمال

وارسطو هو واضع نظرية الاوساط ، أي أن كل فضيلة
وسط بين رذيلتين كالكرم وسط بين السرف والبخل ، والشجاعة
وسط بين التهور والجن ، وسنوضح ذلك عند الكلام على الفضيلة
(الرواقيون والايقوريون) جاء هو لاء فرقوا البحث
في الاخلاق وبني الرواقيون Stoics مذهبهم على مذهب
الكليبيين ، وقد شرحنا مذهبهم قبل غير أنا نقول هنا أن المذهب

الرواق اعتنقه كثير من فلاسفة اليونان والرومان واشتهر من أتباعه في صدر الدولة الرومانية سنيكا (٦٦ ق م - ٦٥ ب م) وإبيكتيتس (٦٠ - ١٤٠ ب م) والامبراطور مرقس أورليوس (١٢١ - ١٨٠ ب م)

أما الابيقوريون فبنوا تعاليمهم على تعاليم القورينائيون . ومؤسس مذهبهم أبيقور Epicurus الذي ذكرنا قبل مذهبهم وقد تبعه في العصور الحديثة الفيلسوف الفرنسي « جَسْنَدِي » (١٥٩٢ - ١٦٥٥) وفتح مدرسة في فرنسا أحياء فيها تعاليم أبيقور وتخرج فيها موليير وكثير من مشاهير الفرنسيين

وفي أواخر القرن الثالث للميلاد انتشرت النصرانية في أوروبا فغيرت الافكار ونشرت أصول الاخلاق التي وردت في التوراة وعلمت الناس أن الله مصدر الاخلاق فهو الذي يضع لنا القواعد تراعيها في معاملتنا وبين لنا الخير من الشر ، والخير كل الخير في ارضاء الله وتنفيذ أوامره - وقد أقامت الاولياء والقديسين مقام الفلاسفة عند اليونان الوثنيين ، وافقت النصرانية في بعض تعاليمها فلاسفة اليونان ولا سيما الرواقيين ولم تخالفهم كثيراً في تقويم الاشياء خيراً وشرها . وإنما أتم ما خالفهم فيه النظر إلى الباعث النفسى على المعاملة . فعند فلاسفة اليونان كان الباعث على عمل الخير المعرفة أو الحكمة مثلاً وعند النصرانية إنما ينبعث عمل الخير عن حب الله والايمان به

كانت النصرانية تطالب من الانسان أن يجتهد في تطهير نفسه فكراً وعملاً . وتجعل للروح ساطاناً تاماً على البدن وعلى الشهوات ، ولذلك غلب على أتباعها الاولين احتقار البدن واعتزال العالم والميل الى الزهد والتنسك والرهبانية

الاخلاق في القرون الوسطى : كانت الفلاسفة - ومنها علم الأخلاق - مضطهدة في القرون الوسطى في أوروبا فقد كانت الكنيسة تحارب فلسفة اليونان والرومان وتعارض في نشر العلم والمدنية القديمين ، لانها اعتقدت أن الحقيقة قد وصلت اليها من الوحي المعصوم فأمر به نفيها وما قال به فحق ، فلا معنى بعد للبحث عن الحقيقة - وكان يسمح بقدر محدود من الفلسفة لتأييد العقائد الدينية وتحديدتها وتنظيمها . فكان بعض رجال الدين يبحث في فلسفة أفلاطون وارسطو والرواقين لتأييد التعاليم المسيحية وتطبيقها على العقل . وما يعارض النصرانية منها كان ينبذ نبذاً ، وكان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة بهذا المعنى

وفلاسفة الاخلاق الذين ظهروا في هذا العصر كانت فلسفتهم مزيجاً من تعاليم اليونان وتعاليم المسيحية ومن أشهرهم أبيلارد فيلسوف فرنسي (١٠٧٩-١١٤٢) وتوماس أكويناس فيلسوف لاهوتي إيطالي (١٢٢٦ - ١٢٧٤)

الاخلاق عند العرب : لم يعرف للعرب في جاهليتهم فلاسفة

دعوا إلى مذاهب معينة كالذي رأيناه عند اليونان من أبيقور
وزينون وأفلاطون وارسطو . لأن البحث العلمي لا يكون إلا
حيث تعظم المدنية . إنما كان عند العرب حكماً ولبعض شعراء
أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وحثوا على الفضائل وحذروا
من الرذائل المتعارفة لعهدهم ، كما ترى في حكم لقمان وأكثم بن صيفي
وأشعار زهير بن أبي ساهي وحاتم الطائي

الاسلام : حتى جاء الاسلام فدعا إلى الاعتقاد بأن الله مصدر
كل شيء في العالم ، فما في الكون من ظواهر مختلفة ومخلوقات
متنوعة من الحبة في ظلمات الارض إلى السماء ذات البروج فانما
عنه صدر ، وبه قام وانتظم

وكما خلق الانسان وضع له نظاماً يتبعه وطريقاً يسير عليه
وشرع له أموراً من صدق وعدل أمره باتباعها وجعل السعادة
في الدنيا والنعيم في الآخرة جزاء من اتبعها . وجعل عكسها من
كذب وظلم رذائل نهى عنها وحذر من ارتكابها . وجعل الشقاء
في الدنيا والعذاب في الآخرة عقوبة من ارتكبها « إن الله يأمر
بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر
والبغي » من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجيئنه
حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون « « إن
الله لا يحب المفسدين »

وان الله لم يأمر بما أمر اعتباراً ولا نهى عما نهى كذلك ،

بل إن الله جعل صلاح الدنيا يتوقف على أمور من عدل وصدق وأمانة وجعل فسادها بأضدادها . فأمر بما يتوقف عليه صلاح الدنيا وانتظام شئونها ونهي عما يسبب فسادها (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واتمهما أكبر من نفعهما) (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا)

وما توقفت عليه مصالحة الناس وبدونه يفسد نظامه كالمحافظة على الارواح والاموال أمر به أمراً لا هوادة فيه وسماه فرضاً ، ومن أجل هذا أعظم عقوبة القاتل والسارق — وما ترتب عليه رفاهية الناس فحسب طالب به مطالبة دون الاولى ونذب اليه كعيادة المرضى

البحث العلمي عند العرب : قل من العرب — حتى بعد أن تحضروا — من بحث في الاخلاق بحثاً علمياً . ذلك لانهم قنعوا أن يأخذوا الاخلاق عن الدين ولم يشعروا بالحاجة إلى البحث العلمي في أساس الخير والشر . ولذلك كان الدين عماد كثير ممن كتبوا في الاخلاق كما ترى في كتب الغزالي والماوردي

وأشهر من بحث في الاخلاق بحثاً علمياً أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ واخوان الصفاء في رسالة من رسائلهم وأبو علي ابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) وكان هؤلاء قد درسوا الفلسفة اليونانية فكان فيما درسوا آراء اليونان في الاخلاق

ولعل أكبر باحث عربي في الاخلاق ابن مسكويه المتوفي سنة ٤٢١ هـ ألف فيها كتابه المشهور (تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق) بحث فيه بحثاً عامياً وحاول أن يمزج فيه تعاليم أفلاطون وأرسطو وجالينوس بتعاليم الاسلام ، وكان لتعاليم أرسطو الغلبة وكثيراً ما يعزو اليه قطعاً في كتابه وقد اقتبس منه كثير أمن بحائه في النفس

ولكن لم يسر كثير من علماء العرب على منواله ، وحبذا لو كانوا توسعوا في نظرياته واستدرکوا مافاته ، وأحلوا ما تثبت صحته من العلم الحديث محل ما يظهر بطلانه من القديم

علم الاخلاق في العصور الحديثة : في النصف الاخير من القرن الخامس عشر ابتدأت النهضة في أوروبا ، وأخذ العلماء يحيون فلسفة اليونان القديمة وابتدأ ذلك في إيطاليا ثم عم أوروبا جميعها استيقظ العقل من سباته فأخذ يعرض كل شيء للنقد والبحث ورفع لواء حرية الفكر . وابتدأ ينظر إلى الاشياء نظراً جديداً ويقومها تقويماً جديداً

ومما عرضه للنقد والبحث قضايا الاخلاق التي وضعها اليونان ومن بعدهم ، فنقدوا العلماء الحديثون وتوسعوا في بحوثهم مستعينين بما استكشف من قضايا علوم أخرى كعلم النفس والاجتماع ، ومالوا في بحثهم إلى الواقع والحقيقة لا الخيال وراموا اظهار كل ما في الانسان من قوى وملكات بالحياة العملية في هذا العالم . وقد

أنتج هذا النظر الجديد تغييراً في قيمة الفضائل . فلم يعد لفضيلة الاحسان مثلاً تلك القيمة الكبرى التي كانت لها في القرون الوسطى وصار (للعدل الاجتماعي) قيمة لم تكن له من قبل - واتجه النظر إلى ضرورة اصلاح ما يحيط بالشباب والمرأة والطفل من النظم الاجتماعية حتى يصلح الفرد . وكان للابحاث الجديدة فضل في تقرير الحقوق والواجبات وأشعار الفرد بعظم مسئولياته أمام المجتمع وأمام نفسه

ويعد ديكارت الفيلسوف الفرنسي (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) مؤسس الفلسفة الحديثة ، فقد وضع للعلم والفلسفة مبادئ جديدة للسير عليها أهمها (١) عدم التسليم بشيء ما لم يفحصه العقل ويتحقق من وجوده ، فما كان مبنياً على الحدس والتخمين وما كان منشؤه العرف فقط يجب أن يرفض (٢) يجب أن نبتدىء عند البحث بأبسط الاشياء وأسهلها ثم نتوصل منها إلى ما هو أكثر تركيباً وأعظم فهماً حتى نصل إلى المقصود (٣) يجب ألا نحكم بصحة قضية حتى نتحقق منها بالامتحان ، وقد مال هو وأتباعه إلى مذهب الرواقيين ورفقوا تعاليمهم كما أن جسندى وهوبز وأتباعهما مالوا إلى مذهب أبيقور ونشروا مذهبه - ثم جاء شفتسبري وهتشنسون فقالوا بوجود حاسة غريزية عند الانسان يدرك بها الخير من الشر كالحاسة التي يدرك بها الجميل والقيبح ، واختلف العلماء الحديثون اختلافاً كبيراً في شرح هذه الحاسة

وفي القرن الماضي جاء بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) وجون ستورت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) فحولا مذهب أبيقور إلى مذهب المنفعة أعنى أنهما نقلا مذهب أبيقور من القول بالسعادة الشخصية إلى القول بالسعادة العامة . وانتشر مذهبهما في أوروبا وكان له أثر كبير في التشريع والسياسة

وجاء جرّين (١٨٣٦ - ١٨٨٢) وهربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) فطبقا مذهب النشوء والارتقاء على الاخلاق كما رأيت ومن علماء الجرمان الذين كان لهم أثر كبير في الاخلاق في العصور الحديثة سبينوزا ^(١) (١٦٣٢ - ١٦٧٧) وهيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) وكانت (١٧٢٤ - ١٨٣١)

ومن الفرنسيين كوزن (١٧٩٢ - ١٨٦٧) وأوجست كمت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) وليس يسع مختصر كهذا ذكر آرائهم وبيان مذاهبهم

وعلى الجملة فمن عهد جون ستورت ميل (١٨٧٣) وسبنسر (١٩٠٣) إلى الآن يكاد البحث الاخلاقي يكون قاصراً على ايضاح النظريات السابقة وبسطها ، وبعبارة أخرى لم تستكشف من ذلك العهد نظريات جديدة ولكن العلماء اجتهدوا في توسيعها وتطبيق الحياة العملية عليها ^(٢)

الحنا

(١) سبينوزا فيلسوف هولاندى ولد من أب يهودى برتغالى

(٢) انظر كتاب Sidgwick History of Ethics

وكتاب J. M. Robertson' A Short History of Morals

الكتاب الثالث

القسم العملي

وحدة المجتمع

وعلاقة الفرد به

إن انزى الانسان يصيب عضواً من أعضائه مرض فيتألم له سائر الجسد . ولا يقتصر الألم على العضو المريض . وقد ينتهي ذلك بالموت فتسلب الاعضاء كلها ما فيها من حياة فأعضاء الجسم كلها متضامنة يتأثر سائرها بما يصيب أحدها ونرى المجموعة من الحجارة لا رابطة بين أفرادها ولا يحس سائر الحجارة بما يقع على حجر منها فلو اننا أخذنا أحدها وحطمتها لم يتعد ذلك الاثر غيره

فما كان من الصنف الاول فهو (جسم عضوي) كالانسان والحيوان والنبات وما كان من الصنف الثاني كسكل مجموعة من أحجار وأخشاب أو نحوها سمي (جسماً غير عضوي)

فن أي الصنفين الجمعية من الناس كالاسرة والحزب والامة ؟ أنا بقليل من النظر نرى أنها « جسم عضوي » ولناخذ مجتمعاً صغيراً نحمله تحليلاً دقيقاً لنبين منه كيف يعتمد المجموع على

أجزائه والاجزاء على المجموع، وتتدرج في النظر من الصغير إلى المجتمع الكبير ، فأصغر المجتمعات الأسرة ، وهي تتكون عادة من أب وأم وأولاد وأقرب الناس اليهم . وفيها يعتمد كل فرد على الباقين ، الكل يخدم الفرد والفرد يخدم الكل . فاعتماد الاولاد على الآباء في مأكلهم وملابسهم ومسكنهم ونظافتهم وغير ذلك واضح جلي - أما الآباء فقد يعتمدون على اولادهم إذا كبروا ومست الحاجة . ولكن أم من هذا وأكبر قيمة في نظرها ما يشعر به الآباء من السعادة بما يرون من حب ابنائهم لهم وحنانهم اليهم . وان كلمة شكر صادرة من قلب أوعمال يدل على الاعتراف بالجميل من الابن لآبيه أو أمه ليدخل على قلبهما من السرور ما لا يقدر

وانظر إلى علاقة الاولاد أنفسهم بعضهم مع بعض تر أن كل طفل في الأسرة يؤثر في الباقين ويتأثر بهم ولوعاش الانسان من مبدئه عيشة عزلة وانفراد لنشأ كالحيوان الاعجم ، فكل طفل يتعلم من اخوانه وأخواته المشاركة في العواطف فيشاركهم في فرحهم ويشعر بالحزن لحزنهم ، ويتعلم درس الاخذ والعطاء فيعرف أنه يجب أن يعطي كما ياخذ ، وأن يتنازل عن بعض ما يجب ويتعلم تبادل المعونة فيعرف أن القوى يعين الضعيف والكبير يعين الصغير وكل من في مكنته نوع من المعونة للآخرين يبذل لهم

وفي الأسرة يتجلى ما قدمناه عن مميزات الجسم العضوي من أن الضرر الذي يصيب عضواً يتأثر به سائر الأعضاء . فالولد سيء الخلق يحرم الأسرة كلها سعادتها والأب السكير أو المقامر يؤثر سلوكه في معيشة أسرته فيضايقها بما يصرف من مال وما يتبع سكره أو لعبه من إهمال لشؤون بيته . والأم الجاهلة يؤثر جهلها في حال الأسرة ، فكم من ولد أصابته آفة أو شوهدت خلقته أو أدركه الموت من جراء جهل أمه وهكذا

كذلك الشأن في الجمعيات التي هي أكبر من الأسرة كالمدسة ، فطلبة المدرسة ومدرسوها وخريجوها جسم عضوي ، يستطيع كل فرد منهم بعمله الشخصي أن يرفع من شأن المدرسة أو يخفض من قدرها . والصورة التي للمدرسة في أذهان الناس وقيمتها عندهم نتيجة سيرة أفرادها

والحزب من الأحزاب يأتي فرد من أفرادها عملاً مجيداً فيمجد الحزب ويعلى مقامه وكذا العكس ، وقيمة الحزب والمدرسة حاصل جمع ما يأتي به الأفراد من الأعمال

والأمة أسرة كبيرة . فهي جسم عضوي تتحد في اللغة وفي الدين غالباً ، يحكمها قانون واحد ويشارك أفرادها في المنافع والمضار ، كالامة المصرية فيفيض نيلها باعتدال فينتفع بذلك كل المصريين وتحسن زراعة القطن فيها سنة وترتفع أثمانه فيكون القطر كله

في رخاء . تاجر يبيع للفلاح ما يحتاجه ، ومؤجرون يسهل عليهم
تحصيل إيجارهم ، وحكومة تحصل الخراج من غير عناء ، وتيسر
المعاملات بين الناس . فالملك يقبضهم أجور أملاكهم يعمرون
ويبنون فينتفع البناءون والنجارون ومنهم ينتفع غيرهم وهكذا
وأوضح المثل لاشترائك الأمة في المنافع والمضار المثل
الجغرافية ، فخران اسوان بقعة من بقاع القطر المصري يؤثر
في سعادة مصر جميعها فيصرف المياه بقدر حسب الحاجة اليها ولو
تهدم ولم يؤد عمله لتضرر القطر كله

والمدارس العليا في القاهرة لم تنشأ لمنفعة القاهرة فحسب بل
أنشئت لصلحة مصر كلها ، يتعلم فيها أبناءها من جميع سكانها
بل تأمل في كل طائفة من طوائف العمال كعمال السكك
الحديدية وعجلات النقل وما ينال الناس من الخير منهم ، واعتبر
ذلك في أوقات اعتصابهم كيف يعطل كثير من الأعمال ويتأذى
كثير من الناس

وعلى مثال ما قدمنا يمكن القول بأن الأمة كلها يلحقها ضرر
بليغ من وجود عدد كبير من أفرادها يشتغلون في معامل غير
صحية ، ويسكنون في أزقة قذرة ، لا يصل اليها هواء نقي ولا
تظهر مساكنها أشعة الشمس . فتضعف صحتهم وتقصر آجالهم ،
ويكثر العجز فيهم فلا يستطيعون أداء أعمالهم حق أداء ويصبح
كثير منهم عالة على الأمة ، يأكلون من عمل غيرهم ، فهم عضو

مريض عاجز في جسم حي — وكذلك الشأن في الامة اذا اكثر
فيها عدد الجاهلين أو السكيرين ، ومحال أن يكون جسم الامة
صحيحاً وفيها يكثر المقامرون أو المدمنون
وكما أن كل عضو في الجسم ينفع سائر الاعضاء وينتفع منها
ويضر سائر الاعضاء ويتضرر منها فكذلك الحال في جسم الامة ،
فالمتعمون مثلاً ينتفعون من الامة بما لها وسعيها لتنتفع الامة منهم
بعد بعابهم وعملمهم ، وهكذا كل طائفة من طوائف العمال ، فالمتعمون
والنجارون والمزارعون والتجار وغيرهم أعضاء يكونون جسم الامة
وكل فرد عضو في أمتة يؤثر فيها أثراً صالحاً أو سيئاً ، فالمدرس
الصالح يبث في روح تلاميذه أخلاقاً صالحة ويجعلهم أقرب الى
الخير . وغيرهم يقتدى بهم ، والقاضي العادل يعدل بين الناس
فيأمنون على حقوقهم ويثق ذوالحق بأنه سيصل الى حقه ، ويخاف
المجرم من عقوبة الاجرام فيبتعد عنه ، ويجتد العامل في عمله لانه
يعلم أن نتيجة سعيه له ، وانه ان اغتصب حقه فالقضاء كفيل برده
اليه . وعلى العكس من ذلك القاضي المرتشى . ولا يخلو انسان من
أثر وان لم تره عيوننا ، كاشعره لها ظل وان لم تدركه أبصارنا ،
فاذا ضم اليها شعرات كان الظل جلياً واضحاً . وهذا الاثر يختلف
تبعاً لاختلاف درجات الناس في الصلاح والفساد . ومقياس رُقي
الامة وانحطاطها بمجموع عمل أفرادها
بل قد تجلّى للباحثين في الايام الاخيرة أن الناس كلهم على

اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ودينهم جسم عضوى واحد .
فكل أمة تؤثر في الأمم الأخرى وتتأثر بها ، في صنائعها وعلومها
وأخلاقها ، فليست أمة من الأمم غنية بمعادنها وصنائعها وعلومها
عما حولها . بل ترى أن الله قد قسم الخيرات على العالم فأمة غنية
بالحبوب ولكنها في حاجة الى المعادن وأخرى على العكس منها
وهكذا ، وكل ينفع وينتفع كما قال المتنبي :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم
اعتبر ذلك في أيام الحرب العظمى ترى أن كل أمة محايدة
كانت أو محاربة قد أصابها الضنك بسبب حاجتها الى أشياء كانت
تجلبها من الأمم الأخرى فأصبح نيلها عسيراً - وقد جرّت
هذه الحقيقة - أعنى اعتبار الجنس البشرى جميعه جسماً واحداً
وكل أمة عضواً من أعضائه - بعض الباحثين الى النظر في
الحروب التي تقع بين الأمم وذهبوا الى أنها ليست بسائفة
كما لا يسوغ أن يعمل عضو في جسم على أضعاف عضو آخر ،
وتمنوا أن لو زال مثار الخلاف بين الأمم حتى لا يكون مساع
للحرب . واقترحوا لذلك انشاء محكمة تحكم بين الامم كما تحكم
المحاكم بين الافراد المتنازعين ، وهذه هي المسماة بعصبة الامم ،
وقال هؤلاء أن الخلاف الطبيعي بين الامم في الاخلاق والعادات
لا يحيل امكان التأليف بينها كما أن الاختلاف بين أفراد الاسرة
بالذكورة والانوثة والشدة واللين لم يمنع من توحيدها واعتبارها

جسماً واحداً ، ولكنهم مع هذا دعوا إلى « الوطنية » والمحافظة على « القومية » مادامت الأمم الأخرى تدعو إليها لان انعدام « الوطنية » في أمة مع بقائها في الأمم الأخرى مؤذن بزوال تلك الأمة

وقد تقدم الناس في فهم هذه « الأخوية العامة » فاشتدت الرابطة بين الأمم وكثر انتفاع بعضها ببعض فامتدت السكك الحديدية بين أمة وأخرى ، وعبرت البواخر البحار ، فارتبطت الأمم برأ وبجرأ ، وعقدت محالفات كثيرة بين الأمم المختلفة لمصلحة الناس كالاتفاق العام على البريد والتلغراف والسكك الحديدية ، ومن الأدلة على ذلك ما نراه من ميل كثير من الناس إلى توحيد المقاييس والموازين وانشاء لغة عامة سهلة وعقد مؤتمرات عامة يحضرها من يمثلون حزبهم في كل أمة (كمؤتمر الاشتراكيين) إلى كثير من أمثال ذلك

*
* *

هذا هو شأن المجتمعات : ونسبة الفرد إليها انه عضو من أعضائها ، ولا يخلو انسان من ارتباطه بمجتمعات كثيرة ، فكل انسان عضو في أسرة وفي مدينة أو قرية وفي أمة وفي العالم بأسره وقد اختلف الباحثون في أن الانسان مدني بالطبع أو مفطور على الاجتماع الذي هو المدنية في عرف الحكماء — أو أن الناس كانوا يعيشون مستقلين كل يعيش لنفسه ويسعى لنفسه ولكنهم

اجتمعوا باختيارهم وفكروا فرأوا خيراً لهم أن يعيشوا جماعات وأن يتنازلوا عن جزء من حريتهم لأن معيشتهم الاجتماعية تقضى عليهم بالتنازل عنه للتمتع بالجزء الباقي منه ، وليس هذا موضع ترجيح أحد القولين — وعلى كل — فالانسان من قديم قد عاش عيشة اجتماعية وكانت له علاقات بمن حوله من الناس وهو يؤثر فيهم ويتأثر بهم

ومن المجتمع يستمد الفرد كل شيء من مأكل وملبس ومسكن وعلم وخلق ، ولو جرد الانسان من كل شيء ناله من المجتمع ما بقي له شيء : جسمه وعقله وخلقه منحة من منح المجتمع وقد اخطأ ابن طفيل ^(١) في رسالته « حى بن يقظان » إذ جعل « حياً » يتعلم من نفسه — بواسطة التفكير — أسرار الكون ويهتدي إلى أعمق المسائل في الالهيات ، وفاته أن ذلك لا يحصل إلا بعد تعليم ، وذلك لا يكون الا باجتماع ، وفي هذا الخطأ بعينه

(١) ابن طفيل فيلسوف اندلسي مات سنة ٥٣١ هـ الف رواية « حى بن يقظان » . بطلها « حى » كان يعيش في جزيرة لا يسكنها احد من الناس وليس له علاقة باحد من أهل الجزائر الاخرى ، بحث بعقله بحثاً منطقياً متدرجاً من البسيط الى المركب حتى وصل الى الاعتقاد بالله وعرضه فيها أن يبين ان الشرع يتفق مع العقل وقد ترجمت الرواية إلى اللاتينية وظهرت سنة ١٦٧١ م

وحداً حدوه الكاتب الانجليزي « ديفو » فالف رواية روبنسن كروسو فرض فيها بطل الرواية قد عاش في جزيرة وحده بعد أن كسرت مركبه وأمكن أن يصل بعقله الى كثير من الامور

وقع « ديفو » Defoe في روايته روبرتسون كروسو
وكما أن العضو اذا انفصل من الجسم مات ولم تعد له حياة
كاليذ تفارق الجسم والورقة تفارق الشجرة فكذلك الانسان
اذا انفصل من مجتمعه أدركه الفناء ولم تكن له قيمة ، لان أعمال
الانسان وأغراضه وعاداته لا تقوم إلا بالنظر إلى المجتمع فليس
الصدق خيراً ولا الكذب شراً الا لانسان يعيش في مجتمع ولولا
ذلك لم يكن أحدهما خيراً والآخر شراً ، بل لودققنا النظر لرأينا
الانسان لا يستطيع أن يفصل عن مجتمعه وان قصد الانفصال
عنه ، ولكنه بقصده ذلك يفقد ما كان المجتمع يمد به من القوة والحياة
واذا كان للمجتمع على الفرد من الفضل ما بيننا ، وكان الارتباط
بينهما ما ذكرنا ، وجب عليه أزاء ذلك أن يقدم من الخير لمجتمعه
أقصى ما يستطيع ، جزاء وفاقاً

القانون والرأى العام

لكل من القانون والرأى العام أثر كبير في المجتمع ، فهما
يمنعان الناس من تعدى الحدود والجري حسب الهوى ، ويلزمانهم
بعمل ما يحفظ كيان المجتمع غالباً ، والناس يعملون على وفقهما
أولا خوفاً من عقوبتهما ثم ينقلب ما كان يعمل عن خوف إلى
عادة ، ومن عادة الى أن يعمل للشعور بأنه خير ، ونحن نذكر
الآن أثر كل في المجتمع وموقف الانسان أمامه

القانون : وضعت القوانين للمجتمع لتساعد على تحقيق العدل فيه ؛ وهي تنفذ أوامرها ونواهيها طوعاً أو كرهاً — وهذه القوانين قليلة الغناء إذا كان من وضعت لهم متوحشين لا يحترمون قانوناً ولا يخافون من عقوبة — كذلك إذا بلغ الناس في أمة درجة كبيرة من الرقي والحكمة لم يكونوا في حاجة الى قانون ، ولم تصل أمة ما إلى هذه المنزلة من الرقي والقوانين الوضعية تتبع حالة الناس ، وهي مظهر من مظاهرهم ، فإذا جد شيء في الناس يستدعى قانوناً جديداً وجب أن يوضع وإذا تغيروا عما كانوا عليه وقت وضع القانون وجب أن يتغير القانون فنلاحظ في الوجود سيارات (أوتوموبيلات) لم تكن وهددت حياة الناس فاضطررنا الى وضع قانون يدرأ هذا الخطر بإيجاب تسجيل السيارات وتحديد سرعة سيرها ومنح رخصة للسائق وهكذا — كذلك ما اخترع من الآلات البخارية والكهربائية أدخل تغييراً كبيراً في حياتنا الاجتماعية اضطررنا معه الى وضع كثير من القوانين الجديدة ، فقطارات البخار بدل الجمال وطواحين بخارية بدل طواحين الهواء ، ومدن آهلة بالسكان أنشئت مكان قرى حقيرة ، وبريد وتلغراف ونحوهما كل ذلك غير شكل المعاملات بين الناس حتى صارت تخالف من وجوه كثيرة المعاملات في الأزمان السابقة ، فكانت نتيجة ذلك وضع قوانين جديدة

بل كثيراً ما يكون تغير أفكار الناس وحده كافياً لتشريع جديد ، فمثلا قد مر على الأمم الأوروبية زمن كانت تعد فيه التعليم مسألة شخصية ، فللاب أن يعلم أولاده وله ألا يفعل — كما هو الشأن في مصر اليوم — ثم تغيرت أفكارهم ورأوا ضرورة نشر التعليم بينهم ، واعتقدوا أن التعليم حق من حقوق الأمة لا مسألة شخصية ، فوضع كثير من الأمم قانوناً جديداً يجعل التعليم الأولى اجبارياً وبالجمان

هذه أمثلة على قوانين جديدة لم تكن ، أما مثال التغيير في القانون فانراه يحصل بين آن وآخر من تعديل مادة من المواد بأخرى يرى المشرعون أنها أنسب لحال الناس من الأولى من هذا نرى أن القوانين يجب أن تتبع تغيرات الاحوال الاجتماعية وما يطرأ على الناس من رقي وأنه لا يمكن لحكومة أن تضع قانوناً صالحاً للعصور المختلفة

القانون والحرية : قد يظن لأول وهلة أن القانون أنشئ لتقييد حرية الفرد ، ذلك لانه قبل القانون حر أن يفعل وألا يفعل ، أما بعد وضع القانون فاذا لم يطعه عوقب وهذا سلب للحرية ، ولكن اذا دققنا النظر رأينا القانون وسيلة من وسائل نيل الحرية لامن وسائل سلبها ، فالمتوحش الذي لا قانون له حياته مهددة كل وقت ، يحتاج إلى عناية شديدة في المحافظة على نفسه ، أما

الامم المتمدية فالفرد فيها لا يحتاج إلى عناء في حفظ حياته ، وقواه موفورة ليرقى نفسه في تحصيل علم أو نحو ذلك ، لان قوة القانون تحميه ، فالقانون وإن كان ضيق عليه وألزمه بالمحافظة على حقوق الناس والافالقبوبة تحمل به ، فانه ضيق على غيردمن الناس وألزمهم بمراعاة حقه كذلك ، فكان له فيما وراء حدود القانون متسع ، فلسنا ننكر أن القانون صاد للانسان عن بعض الاعمال مقيد لبعض حريته ولكن ما يكسبه الفرد من الحرية بوضع القانون أكثر مما يفقده

لذلك كانت كل جمعية من الناس تبلغ درجة من الرقي تضع لنفسها قوانين تنظم شؤونها وتحفظ لها حريتها ، وتسهل عليها طريق العمل فتكسب بها من الحرية أكثر مما تفقد — مثال ذلك « قانون المباني » وهو القانون الذي يحتم على كل بان في القاهرة مثلا — أن يأخذ رخصة من « وزارة الاشغال » وهي تحدد له موضع البناء الخارجي ، فلو لم يكن هذا القانون ما انتظمت شوارع ولا طرق واصعب على الناس السير للوصول إلى أغراضهم فلما وضع هذا القانون سلبهم حرية البناء في ملكهم كما يشاءون ، ولكن منحهم سهولة السير ونظام الاعمال وحسن المنظر

احترام القانون : في العصور الماضية وفي الامم المستبد بأمرها يوضع القانون بارادة الملك أو فئة قليلة تمثل الامة وهو لا ينفذونه بالقوة رضيت الامة أو أبت ، وفي الامم الشورية يوكل

وضع القانون الى بعض الخبيرين ، ثم يعرض على البرلمان « المجلس
النيابي » وأعضاء هذا البرلمان قد انتخبهم الامة ليعبروا عن رأيها
فهم إذا قبلوا شيئاً أو رفضوه فعنى ذلك أن الامة قبلته أو رفضته ،
وبعد عرضه يتناقش فيه الاعضاء ثم تؤخذ الآراء فاذا وافقت عليه
الاجلية صار قانوناً لان معنى موافقة أغلبية البرلمان موافقة أغلبية
الشعب ، فيخضع أكثر الناس للقانون ويحترمونه لانهم هم الذين
عملوه . وهو يعبر عن إرادتهم . أما العدد الذي كان معارضاً فكثير
منهم يخضع عن رضا واختيار لانهم يحترمون رأى الاجلية ، ومن
لم يخضع نفذ عليه القانون جبراً ولذلك أحاطت كل أمة قانونها
بسياج حمايته : من شرطة ومحاكم وقضاة وعقوبات توقع على المخالفين ،
وخير القوانين ما يعبر عن رأى الامة كلها أو أغلبها كما أن
خير خضوع للقانون هو الخضوع عن رضا واختيار . ذلك لان هذا
الخضوع لا يسلب المرء حرية ولا يجعله يتحين الفرص للمخالفة
يجب أن نحترم القانون ونطيعه لانه يفيد الناس ويسبغ
عليهم من الحرية أكثر مما يسلبهم كما بينا ، وفي خرق حرمة
ضرر بالامة بليغ

وكثيراً ما تحدث بعض الناس أنفسهم بمخالفة القوانين
والهرب من عقوبتها إذا رأوا في اتباع القانون ضرراً بهم ويعرض
هذا للناس كثيراً في أعمالهم اليومية كالذين يخفون مامعهم من
البضائع فراراً من القانون الذي يلزم كل شخص بدفع ضريبة على

ما يأخذه معه من البضائع في السكك الحديدية بشروط معينة ،
ويبررون عملهم بأن القانون قاس ومن العدل أن تؤخذ الضريبة من
التجار وهم ليسوا كذلك وإنما يحملون معهم ما به يقتاتون مثلاً أو
يقولون أن على عمال السكك الحديدية أن يراقبوا الركاب ويعرفوا
ما معهم مما يستوجب الدفع ، وليس على الركاب أنفسهم أن يخبروا
العمال ، أو يقولون أنهم ليسوا بأغنى من الحكومة فدفع الضريبة
يؤثر في ماليتهم أثراً كبيراً ولكن قلما يظهر أثره في مالية الحكومة »
وبالتأمل نرى أن هذه الأقوال واهية ، وإن كل إنسان
مكلف بحماية القانون ، وأنه بقبوله أن يكون فرداً في الأمة قد
تعهد بتنفيذ قوانينها وأنه بخرق حرمتها يضعف سلطان الحكومة ،
وأنه بعصيانه قانون السكك الحديدية يبيح لغيره مخالفة « القانون
المدني » وآخر « قانون العقوبات » وهكذا ، لأنه قلما يسلم قانون
من أن يراه بعض الناس غير عادل وبذلك نكون قد عرضنا كل
القوانين لأن تخالف وفي هذا من الضرر ما بيننا : وبديهي بطلان
دعوى أن ذلك واجب على عمال السكك الحديدية لا على الركاب
فكلنا يحتقر من يأكل في مطعم ويختبئ في الخارجين حتى لا يراه
صاحب المطعم وكلنا يعد هذا عملاً رذلاً خسيساً ويعد من السخافة
أن يقول أن على صاحب المطعم أن يراني وليس على أن أريه نفسي ،
وليس غنى الحكومة بعذر صحيح يسوغ للفرد ألا يدفع ما عليه
كما أن غنى الدائن لا يسقط حقه في الدين مهما كان المدين فقيراً ،

وانما غنى الحكومة من مبالغ صغيرة كهذه تجمعت فكونت غنى ولو أجزنا هذا العمل لكل فرد أفقر من الحكومة لافتقرت ومما يساعد على إطاعة القانون أن يوسع الانسان نظره فلا يقتصر على النظر لنفسه في حادثة خاصة ، بل ينظر لمعنى القانون والحكومة وفائدتهما كما ينظر في السبب الذي من أجله وضع القانون ، وماذا يكون الحال لو أن الناس كلهم عملوا كما عمل يخالفوا القانون ، وليس من الحق أن يرضى لنفسه بمخالفة القوانين ولا يرضى ذلك للناس في موقف كموقفه ، فليس هو إلا فرداً من أفراد الامة ، يجوز له ما يجوز لسائر الافراد ، ويحرم عليه ما يحرم عليهم

أما إذا رأى أحد أن قانوناً من القوانين ظالم ضار بالامة وانه يجب تغييره فهناك طرق يمكن أن يسلكها لذلك كتقديم اقتراح إلى مجلس النواب أو الجمعية التشريعية يبسط فيه ضرر القانون القديم وضرورة تغييره وكالكتابة في الجرائد ونحو ذلك ، وفي أثناء جهاده في تغيير القانون يجب أن يحترمه ويخضع له

ومن خير الامثلة على ما يجب أن يعمل في مثل هذا الموقف ما حكى عن جون همبدن Hampden أحد أعضاء البرلمان الانجليزي في حكم شارل الاول : ذلك أن الملك سنة ١٦٣٦ كان في حاجة الى المال ففرض على الاهالي ضريبة من غير أن يستشير البرلمان في فرضها ، واحتج أعوان الملك بأن له الحق قديماً

أن يفرض الضرائب من غير برلمان ، واحتج معارضوه بأن سلطة الملك قد تقيدت بالبرلمان فلم يعد من سلطانه فرض الضرائب فلما ذهب المحصلون الى همبدن قالوا له « يجب أن تدفع الضريبة بحكم القانون » فأجاب « ان القانون لم يوجب على شيئاً وان طلبكم غير قانوني » (ويجب أن يلاحظ هنا أنه لم يجب بأن القانون سبي ، وانما أجاب بأنه لم يكن قانوناً مستوفياً لشروط التشريع) ثم قدم للمحاكمة وعين لمقاضاته اثنا عشر قاضياً ، انجاز ثمانية منهم الى رأى الملك ، فكانت الاغلبية على همبدن فحكم عليه ، فاحترم الحكم وخضع له ودفع الضريبة لانه بحكم المحكمة صار الدفع قانونياً ، ولكنه رأى أنه قانون ظالم فجدد في تغييره ولما رأى همبدن أن الملك وأعوانه يخرجون على القانون ويضعون القوانين الظالمة اجتهد في تأليف جماعة كبيرة على رأيه وجاهد في سبيل ما يعتقده الحق وفي تغيير ما يراه ظالماً حتى قتل سنة ١٦٤٣

وكثيراً ما يتردد الانسان بين مخالفة القانون وإطاعته ، وذلك يكثر حيث تتحارب العواطف مع العقل كما لو كاف شرطى بالقبض على لص كان قد أسدى اليه معروفاً ، ففي هذا الموقف قد تحمل الشرطي عواطفه على أن يكافى ، اللص على معرفه بعدم القبض عليه ، واسكن بالتأمل نرى أنه يجب أن يقبض عليه لان الشرطي ليس واضعاً للقانون ولا مفسراً له وانما هو منفذ فحسب

ولأن كون اللص ذا مروءة لا يلغى أنه تعدي علي مال الغير وهذا ما سبب القبض عليه ، ووجه ثالث وهو أن الشرطي بقبوله هذا العمل قد تعهد أن ينفذ الأوامر ويفعل الخير للمجتمع فليس يقبض على اللص لشخصه حتى يكون ما أسداه من المعروف مانعاً ، وإنما يقبض عليه لأنه ضار بمجتمعه وهذا لم يزل بما فعل من الخير انما له الحق أن يقدم الى اللص هدية على معرفته أو نحو ذلك

ومن هذا القبيل ما يحدث كثيراً : من أن القانون يوجب تبليغ الصحة عن المصابين ببعض الامراض حتى تؤخذ الاحتياطات فلا تنتشر العدوى إلى الاصحاء ، وكثيراً ما تدعو الشفقة الى مخالفة هذا القانون مع أن نظراً بسيطاً يكفي الاقناع بوجود طاعته كما ينال في المثال السابق وقس علي ذلك

يجب في هذه الامثلة ونحوها أن نخضع لحكم العقل وألا نرعى العنان لعواطفنا تسيطر علينا

الرأى العام : كثيراً ما يخالط الناس بين الاعتقاد العام والرأى العام والعرف العام ونبدأ قولنا بالتفريق بينها ، فاذا فشيت في أمة عقيدة اعتنقها الناس عن غير بحث فيها ولا درس لها بل « قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون » فذلك اعتقاد عام واذا اعتادت أمة عملاً حتى صار يصدر منها عن غير روية فذلك عرف عام ، أما إذا ظهرت فكرة في جمعية فقام أفرادها بامتحنائها ونقدتها ثم اتفقوا بعد في الحكم عليها فذلك رأى عام ،

فلا يكون رأى عام الا اذا عرضت المسألة بادیء بدء للشك فيها
وسلط عليها النقد ثم قامت البراهين على صحتها واشترك في ذلك
أفراد الجمعية، وبديهي أن أفراد كل جمعية لا يستوون في مقدرتهم
على نقد الاشياء وحكمهم عليها، ولكن كل ما يتطلبه الرأى العام
ألا تؤخذ الدعاوى قضية مسامة بل يزلزلها الشك ثم يصدر الحكم
عليها لاسباب معقولة، وهذا مما يدخل في مقدور أوساط الناس
فأساس الرأى العام البحث : تعرض فكرة في ظرف خاص

فيقوم فرد أو أفراد ينتقدون الفكرة أو ينكرونها، فهب من
يراهها حقاً للدفاع عنها وتأيدها بما يقيم من البراهين ، ويشتد
النزاع بين الأفكار ويؤدي ذلك إلى تحليلها تحليلاً دقيقاً ثم يؤول
الامر إلى الاتفاق على شيء ، ولا يبقى أحد يضاد الفكرة أو يبقى
عدد قليل لا يقاس بالواين فيكون هذا رأياً عاماً — بهذه الطريقة
تنهار العقائد الفاسدة وتقوم المذاهب الصحيحة وتصح أنظار
الامة ولا تقف في الرق عند حد

والرأى العام لا يرقى في أمة الا بقدر مالها من الحرية
في البحث وبقدر ما لأفرادها من القدرة على تمحيص المسائل
وسعة الصدر للرأى المخالف

ويساعد على تكوين الرأى العام الجرائد والخطابة ، فاذا كانت
الجرائد حرة فيما تكتب والخطباء أحراراً فيما يقولون ، لا يصد
الناس صداد عن الاجتماع والكتابة في الجرائد أسرع الرأى العام

في التكون ، أما اذا قيدت الحرية وخاف الكتاب والخطباء أن يفقدوا مناصبهم أو يصادروا في املاكهم أو يساءوا في معاملتهم اذا هم عبروا عما في نفوسهم بصراحة فقل أن يوجد رأى عام سلطانه : للرأى العام في الامم الممدنة سلطان قلما يساويه سلطان ، فله نفوذ على القوانين في وضعها وعلى الحكومه في خطتها وعلى الادارة في سيرها ، ولجلس النواب الذى يمثل الرأى العام الحق في إسقاط وزارة واقامة أخرى

وللرأى العام سلطان كبير على الافراد ، فالانسان غالباً يهيمه رأى الناس فيه : يسره حسن اعتقادهم فيه وثناؤهم عليه ويؤلمه مقتهم له وذمهم إياه ، وهذا هو السبب في خضوع أكثر الناس لرأى من حولهم والعمل على وفق مشيئتهم ، وإذا هم تشجعوا وخالفوه أحسوا بضيق وتولائم الخجل ، حتى كثيراً ما يفقدون شجاعتهم ويعودون الى موافقة الجماعة

ولكن هل من الصواب أن نطبع الرأى العام دائماً ونخضع لرأى من حولنا ولو اعتقدنا خطأهم ونخاف من تقدمهم ومن خجلنا؟ هب أن وسطاً من الاوساط يرى عدم تعليم البنات فهل تنشىء بنتك جاهلة تبعاً لرأى قومك وان كنت لا تراه ؟ أو هب انك ترى رأياً سياسياً يخالف رأى قومك ويدعوك للعمل في طريق مخالف فهل تعمل على وفق رأيهم أو على رأيك؟

في ذلك نقول : يجب على المخالف أن يبحث رأيه ورأى الناس

بحثاً دقيقاً من جميع الوجوه فإن رأى أن ما عليه الناس أنفع للجماعة ولكنه أضر لنفسه وجب أن يطيع رأي الناس ، لأنه ليس المقياس الصحيح للخير والشر مصلحة الفرد ، وأما إن كان رأى الناس ضاراً بالامة فواجب عليه أن يسعى في تغييره ، ومن ضرور ذلك أن يخالفهم جهاراً فيعلم بنته مثلاً ويحارب رأى قومه ويقارعهم الحجة وبذلك ينضم اليه قوم ولا يزالون يكثرون حتى يكوّنوا رأياً جديداً يحل محل القديم أو لا يكون ذلك فيكون قد أرضى نفسه

وينبغي ألا نخضع لحكم الخجل وألا يحملنا ذلك على متابعة من حولنا ، فإن حكم الخجل كثير الخطأ ، وكثيراً ما يخجل الانسان من عمل الحق ، فالصالح وسط فساق قد يخجل من الصلاة أو من عدم شرب الخمر ، وليس من الصواب أن يطيع الخجل ويترك الصلاة أو يشرب الخمر ، كما أن الانسان قد يخجل لا لذنوب جناه ولا لجرمة ارتكبها كما يخجل لصممه أو عمه أو قصر نظره أو حبسة في لسانه أو لأنه لبس ثوبه مقلوباً — ولست أنكر أن الخجل قد يصحب الجريمة أيضاً كمن يخجل أن رؤي سكران أو أخذت عليه كذبة — ولكن اذا كان يتبع الجريمة وغيرها لم يسع لنا أن نسير وراءه ونخضع لسلطانه ونخاف من عاقبته دائماً كما يجب ألا نخضع لحكم الخوف من الناس ومن تقدم فلو خشى كل ذى رأى أن يجهر برأيه المخالف ما تقدم الناس لأنه إنما

يرقى بأولئك الشجعان الذى يجهرون برأيهم ويتحملون من أجله
كل أذى يصيبهم

وبعد فلكل من القانون والرأى العام سلطان كبير على الناس
وهما وازعان يحملان الافراد على العمل وفقهما ، فان كانا صالحين
صلح أثرهما وإلا فالضرر على الامة منهما عظيم

الحقوق والواجبات

مالانسان حق وما عليه فواجب ، وهما متلازمان فكل
حق يستلزم واجبا بل واجبين ، واجب على الناس أن يحترموا
حقه ولا يتعرضوا له أثناء فعله ، وواجب على ذى الحق نفسه وهو
أن يستعمل حقه فى خيره وخير الناس ، — وقد خفى الواجب
الثانى على كثيرين لانهم قصروا نظرهم على الواجب القانونى ولم
يعدوه إلى الواجب الاخلاقى

والقانون ينفذ الواجب الاول غالباً ويلزم الناس باحترام حق
ذى الحق وإلا فالعقوبة من ورأهم ، ولا يتدخل فى الواجب الثانى
غالباً بل يترك تنفيذه الى ذى الحق نفسه أو إلى الرأى العام^(١)
وانضرب لذلك مثلاً من يملك شيئاً ، فواجب على الناس ألا يتعدوا

(١) قلنا غالباً لان القانون قد لا يتدخل فى تنفيذ الواجب الاول
كملاطفة الزوجة ونحو ذلك من المسائل التى رؤى أن تدخل القانون فيها
يضر أكثر مما ينفع ، وقد يتدخل فى الواجب الثانى كما فى بعض الامم ، يعاقب
قانونها من يحاول الانتحار

على ملكه بسرقة أو غصب فإن فعلوا فللقانون سلطة التدخل
ورد العين الى مالكها أو تعويضه عنها — وواجب على المالك
أن يستعمل ملكه فيما ينفع الناس ، ولكنه ان لم يفعل فتصرف
فيه تصرفاً سيئاً لم يتدخل القانون ولكن تتدخل الاخلاق فان
قال القانون « لكل مالك أن يتصرف في ملكه كما يشاء » قالت
الاخلاق « ليس للمالك أن يتصرف إلا ما فيه الخير للكافة »
وانما وجب عليه أن ينظر لمصلحة الناس لان هذه الحقوق
التي ملكها انما ملكها إياه المجتمع لما رأى (المجتمع) أن مصلحته
في ذلك ، ولو عاش الفرد وحده ما كان له حق من الحقوق واذا
كان المجتمع هو مانحها وقد قيده أن يستعملها في خير الكافة
تقيد بذلك وكان هذا واجباً عليه وسنتكلم الآن على أهم الحقوق
اجمالا^(١)

« ١ » حق الحياة

لكل انسان الحق أن يحيا ، ولكن لما كانت معيشة الانسان

« ١ » تسمى هذه الحقوق عادة بالحقوق الطبيعية Natural Right
ويعنون بها الحقوق التي منحها الناس من طبيعتهم وليس القانون الوضعي
هو المانح لها وبعبارة أخرى الحقوق التي للانسان لانه انسان وكانت للانسان
قبل أن تكون قوانين أما الحقوق التي منحتها له قوانين البلاد فتسمى
حقوقاً قانونية أو شرعية ، فحق الانسان في الحياة أو في الحرية حق طبيعي
وحقه في ان يملك بالشفعة حق قانوني

معيشة اجتماعية وكانت الحقوق التي له مستفادة من قبل المجتمع كان عدلاً أن يضحى الفرد حياته لحفظ حياة المجتمع إذا اقتضى الحال ذلك، كما إذا هوجمت الأمة من أمة أخرى قصد الاستيلاء عليها، وهذه أحوال نادرة أما فيما عداها فحق الحياة حق مقدس لا يسمح به لاي شيء، آخر

وهذا الحق مع وضوحه قد جهلته بعض الأمم في بداوتها، فالعرب في جاهليتها كانت تتد البنات خوفاً من العار، وتتد الأولاد خشية الفقر، وكثير من الأمم كانت تقتل أسرى الحرب متى ظفرت بهم - وفي بعض الأمم الآخذة بحظ وافر من المدنية لا يزال حق الحياة معرضاً للخطر كما هو الشأن عند الأمم التي تبيع المبارزة، ولو أن الناس قدروا الحياة حق قدرها وتقدموا في فهم حقها لما تحاربوا

وحق الحياة لا يمكن أن يوفر لكل أفراد الأمة ما لم تتوفر لهم وسائل المعيشة. ومن أجل هذا كان حق الحياة يتضمن حق العمل لتحصيل الوسائل، وعلماء السياسة والاقتصاد هم المتكفلون بالبحث في هذا الموضوع أعني موضوع الوسائل وكيف توفر للجمعيات

وحق الحياة ككل الحقوق يستلزم واجبين: واجب على ذي الحق وهو أن يحفظ حياته ويقضيها في أحسن الوجوه التي تنفع نفسه والناس. وواجب على الناس أن يحترموا هذا الحق

للفرد فلا يتمدوا عليه — وإذا كان هذا الحق أقدس الحقوق كان من تعدى عليه بقتل أو نحوه مستوجباً أشد العقوبات ، وربما كان من الحق أن نسلبه أيضاً حقه في الحياة

«٢» حق الحرية

كلمة الحرية من الكلمات الغامضة التي تستعمل في معان مختلفة ولذلك نبدأ بتحديدتها

الحرية المطلقة هي « أن يريد ويعمل ما يريد من غير أن يكون لاي شيء آخر سلطان على إرادته أو عمله » وهي بهذا المعنى لا تكون الا لله ، فليس ثمت من لا تتأثر إرادته بأى مؤثر خارجي وعنده من القوة ما ينفذ به ما يريد إلا هو — ، وإذ كنا انما نبحث عن حرية الانسان لم يكن هذا المعنى المطلق بصالح انما يصلح للناس حرية مقيدة وقد جاء تعريفها في « اعلان حقوق الانسان » الصادر في فرنسا سنة ١٧٨٩ بأنها « القدرة على عمل كل شيء لا يضر بالغير » وقريب منه ما قاله هيربرت سبنسر « كل انسان حر أن يفعل ما يريد بشرط ألا يتعدى على ما لغيره من مثل حريته » ومعنى قوله أن الناس كلهم متساوون في حق الحرية ، ولكل انسان الحق أن يعمل ما يريد ما لم ينقص ذلك من حرية الآخرين

وعرفها بعض الاخلاقيين بأن يكون للانسان الحق في ترقية

نفسه بما يشاء من غير تدخل في شؤونه، إلا إذا وجدت ضرورة تدعو إلى ذلك، أو كان التدخل لترقية من يتدخل في شؤونه كما في الحجر على السفينة

وعلى الجملة إن هذا الحق يتطلب أن يعامل كل فرد معاملة إنسان لا معاملة متاع، ومن أجل هذا حرم الرق والاستبداد والتسخير ونحوها مما يعامل فيه الإنسان كأنه متاع يستخدم لغاية آخر ولفهم الحرية فهماً صحيحاً يجب أن نذكر أنواعها ثم نبين كل نوع على حدته، فأتم ما تستعمل فيه الحرية ما يأتي

(١) الحرية التي هي ضد الاسترقاق فيقال حر ورقيق

(٢) حرية الأمم ويعنون بها الاستقلال وعدم الخضوع

لحكم الأجنبي

(٣) الحرية المدنية وهي أن يكون الشخص آمناً من التعدي

عليه وعلى منكره ظلاماً وهذه الحرية تشمل حرية الرأي وحرية

الخطابة وحرية التصرف في الملك الخ

(٤) الحرية السياسية وهي أن يكون للإنسان الحق في أن

يأخذ نصيباً في حكومة بلاده بالتصويت في الانتخاب ونحو ذلك

(النوع الأول) لا يحتاج هذا النوع إلى شرح طويل فالفرق

بين الحر والرقيق واضح جلي، وقد كان الاسترقاق فاشياً

في العصور الماضية ولم يكن ينظر إليه بعين المقت التي ينظر إليه

بها اليوم، حتى إن أرسطو أكبر فلاسفة اليونان كان يرى أن

بعض الناس بفطرته غير قادر على أن يتصرف في شؤون نفسه بخير له أن يكون رقيقاً فيدبر غيره أمره - وفي العصور الحديثة ساد القول بأن الحرية حق طبيعي لكل انسان ، وبعبارة أخرى حق منحه الله للانسان منذولد

وانما منح الناس جميعاً الحرية لسببين : أولهما ان حب الحرية متأصل في نفس كل انسان فمن الظلم أن نسلبه هذه الرغبة ، وثانيهما أن الانسان لا يستطيع أن يقرر شؤونه بنفسه إلا إذا كان حراً ، أى انه لا يمكن أن يكون مسئولاً إلا اذا كان حراً أعنى انه لا يكون إنساناً إلا اذا كان حراً ، قد ينعم بعض الناس في ظل العبودية أكثر مما ينعمون في ظل الحرية فبعض الارقاء كانوا اسعد حالا من بعض العمال اليوم ولكن قل أن يرضى هؤلاء العمال بحريتهم بديلاً ، قد تكون الحرية مدرسة شاقة متعبة ولكنها المدرسة الوحيدة التي يتعلم فيها الانسان أن يكون انساناً حقاً

(النوع الثانى) حرية الامم أى استقلالها - وإنا نرى أن الاممة تحب أن تتمتع بحريتها وتحكم نفسها كما يجب الفرد أن يكون سيد نفسه ، وتحس بالضعمة والمذلة اذا حكمها غيرها

ولو نظرنا إلى العالم نظرة عامة وجدنا أن بعض الشعوب يقوم هذا النوع من الحرية قيمة كبيرة والبعض الاخر لا يرى لها قيمة ويفضل ان يكون جزءاً من مملكة كبيرة على ان يكون

مستقلاً استقلالاً تاماً كالذي نراه عند أكثر الاستراليين فانهم يفضلون أن يكونوا جزءاً من المملكة البريطانية ولا يعدون أنفسهم أذلاء لكونهم جزءاً منها، وينظرون الى بريطانيا نظراً الى الأم الكبيرة، وهي في مقابل ذلك تطلق يدهم في ادارة شؤونهم

وعلى العكس من ذلك الايولنديون فان أكثرهم يشعرون بذيلاً الاستعباد ويشتاق الى الاستقلال، وينظر الى الانجليز نظراً الى المستبد الغاصب

ويرجع هذا وذلك الى مبدأ واحد: وهو انه اذا كان الشعبان متحدين في الجنس واللغة والتقاليد والشعور والعواطف والمنافع فلا يضرهما أن يكونا جسماً واحداً كما هو الشأن في إنجلترا وأستراليا أما اذا اختلفا في كل الاعتبارات الماضية أو بعضها كانت التبعية ضارة والاستقلال خيراً للأمة المحكومة كما هو الشأن في إنجلترا ومصر

فاذا نحن سئلنا ما الفائدة التي تعود على الامة من استقلالها، قلنا ان فائدتها من ذلك كفايدة من يفك الحجز عنه، فانا اذا منحنا المحجور عليه حرية التصرف فقد يخطئ ولكن هذا هو خير طريق ليعتنى بشؤونه وليكون مسئولا، وانه اذا كان حراً التصرف زاد طموحه لتكميل نفسه وشعر بأنه انسان حقاً،

وكذلك الشأن في الأمم اذا منحت استقلالها شعرت بمسئوليتها
وطمحت ببصرها لتكون خيراً مما هي. واعتقدت أن نتيجة مجهودها
لها لا لغيرها فضعف ذلك في جدها

ووجه آخر وهو أن الأمتين — الحاكمة والمحكومة —
اذا اختلفتا في الاعتبارات المتقدمة أو بعضها كان كثيراً ما يحدث
أن تتعارض مصالحهما فتكون مصلحة الأمة الحاكمة في شيء قد
يضر الأمة المحكومة أو العكس فتنفذ الأمة الحاكمة ما يتفق
مع مصالحها بحكم مالها من القوة ولو أضر بالأمة المحكومة (١)
وعلى الجملة فلا تحس الأمة بشخصيتها إلا اذا نالت حريتها
ولا تنهض وتجدد في نيل كمالها إلا اذا كانت تدير شؤون نفسها
بنفسها وهذا النوع من الحرية هو الخطوة الأولى في كثير من
الاحيان لتحقيق الانواع الأخرى كالحرية المدنية والسياسية —
(النوع الثالث) الحرية المدنية، لا يتمتع الفرد بهذا النوع
من الحرية إلا اذا كان في أمة قد بلغت حظاً من المدنية،
فالأمم المتبدية — حيث لا يأمن الفرد فيها على نفسه من القتل أو
السرقه أو مصادرة أملاكه — لا تتمتع بالحرية المدنية — حتى

(١) مثال ذلك أن الأمة الحاكمة كثيراً ما ترى خيراً في انفاق أكثر
ميزانية الأمة المحكومة على الأشياء المادية كإقامة الجسور وحفر الترع ولا تنفق
على التعليم إلا النزر اليسير، ذلك لأن التعليم كلما انتشر فهمت الأمة حقوقها
واصبح من الصعب خضوعها لحكم غيرها اما الانفاق على الماديات فيزيد
في ثروة البلاد وهذه الثروة تحت يد الحاكم يصرفها كما يشاء

إذا تقدم الناس في الحضارة أصبح لكل فرد في الأمة الحق أن يدافع عن نفسه أمام القضاء وأمن أن يسجن أو يجلس أو يعاقب أية عقوبة إلا إذا حكم عليه بمقتضى قانون البلاد ، ولا يصح أن يتعدى عليه في غير هذه الحالة ، ولا أن يكون ضحية لطمع ملك أو انتقام حاكم أو أمير ، كما كان الشأن قبل رقي الانسان ، وهذا النوع من الحرية يشمل :

أ حرية الرأي : ونعني بها أن يكون كل انسان حراً في الحكم على الاشياء بما يعتقد أنه الحق ، فليس « الاجتهاد » والتفكير والحكم على الاشياء بأنها صواب أو خطأ من حق طائفة خاصة ، بل من حق كل فرد أن يقول أو يكتب ما يراه صواباً بعد أن يتثبت منه ويقوم عنده البرهان على صحته - وان خالف العظماء والعلماء ، ذلك لأنه لا يعرف أحد من الناس كل الحق ، ونحن اذا منعنا الناس من أن يقولوا ما يعتقدون حُرماً ما قد يكون في قولهم من رأى صائب أو فكرة حقة ولهذا يجب أن نسمح لكل فرد أن يكتب أو يقول ما يشاء ثم تتطاحن الآراء صحيحها وفسادها حتى يتغلب الحق ويتجلى للناس

ب حرية الاجتماع والخطابة : وهي أن يكون الناس أحراراً في اجتماعهم وفي خطبهم إلا اذا أدى ذلك الى ضرر بالمصلحة العامة فيمنع القدر الضار فحسب

ج حرية الصحافة : ونعني بها أن تكون الصحافة حرة

فيما تكتب ، لا تتقيد بشيء ، إلا ما يقيدها به القانون العام ، ولا يكون عليها سلطان إلا سلطان محاكم البلاد ، وإنما منحت هذا الحق لأنها الوسطة بين الحاكم والمحكوم ، تعلم المحكومين حقوقهم وواجبهم ، وتبصر الحكومة برغبات الأمة وتبين لها عيوب ما تتبعه من نظام ، فيها خلاصة أفكار جميع الطبقات ، وهي معرض تعرض فيه آراء الأمة بأسرها فيستفيد من عرضها الحاكم والمحكوم معاً

(النوع الرابع) الحرية السياسية ، ونعني بها أن يكون للإنسان نصيب في حكم بلاده ، فالأمة التي أمرها بيد فرد أو فئة لم تنتخبها الأمة لا تكون متمتعة بهذه الحرية وإنما تتمتع بها إذا كان أفرادها ينتخبون عنهم من يمثلهم وهؤلاء المنتخبون هم الذين لهم حق وضع قوانين البلاد والغائبا — وإنما كانت هذه حرية لأن الأمة إذا كان ممثلوها هم المشرعين لها والمديرين لشؤونها قيل أنها تعمل حسب إرادتها ، وهذا هو معنى الحرية ، أما أن كان يشرع لها ويأمرها من لم يمثلها لم تكن تعمل حسب إرادتها بل هي مضطرة مجبرة ، والجبر ينافي الحرية

وقد كان حق المشاركة في حكومة البلاد قاصراً على طائفة معينة كالملاك والاشراف حتى جاء القرن التاسع عشر فجعل حق الانتخاب اسماً شاملاً وناله في الولايات المتحدة كل من استكمل الأهلية ، ومن ابتداء القرن العشرين — إلى وقتنا هذا — نال النساء

حق الانتخاب في بعض الولايات المتحدة وفي إنجلترا وبعض
الممالك الأخرى

والحرية السياسية هي أضمن وسيلة لتمتع الأمة بالحرية المدنية
فانه اذا كان أفراد الأمة هم الحالكين لها أمنوا من استبداد فرداً
أو أفراد يسلبهم حرية صحافة أو خطابة أو نحوهما

وقد ثبت هذا الحق « حق الحرية » للانسان لانه لا يستطيع
أن يكمل نفسه ، ويرقى أخلاقه ، ويصل الى غايته الا اذا كان حراً
وقد تأخر الناس في فهم هذا الحق حتى بعد أن فهموا حق
الحياة ، فقد ظل الرق فاشياً بعد أن كف الناس عن قتل
أسرى الحرب ووآد البنات ولم يبطل الرق الا في القرن الماضي ،
والآن بعد أن ألغى الرق لم يتمتع العالم بانواع الحرية الأخرى كما
ينبغي ، فأمر عديدة لا تزال تجاهد لنيل استقلالها ، فقد بطل استرقاق
الأفراد ولما يبطل استرقاق الأمم ، وكذلك النوعان الآخران من
الحرية أعنى الحرية المدنية والسياسية فهما مع اختلاف الأمم
في درجة التمتع بهما - لم يبلغا الدرجة القصوى المنشودة لهما
والعالم يخطو لنيل هذا الحق خطوات بطيئة جداً ، ولا ينال
منه القليل الا ببذل الكثير ، ومن أجل ذلك لا يبذل هذا الثمن
لنيل الحرية الا الراقون ومن أجل هذا أيضاً كان بذل الثمن الغالى
أدعى إلى الاحتفاظ بما ينال

وهذا الحق أيضاً يستلزم واجبين: واجب على الناس والحكومات

أن يحترموا حق الفرد في الحرية فلا يتدخلوا في شؤونه إلا للمصلحة العامة وعند الضرورة، فالحكومات لا تقوم بواجبها إن كانت تحجر على الصحف والكتب أن تطبع حتى يجيزها الرقيب — إلا في أحوال استثنائية كحالة الحرب — أو كانت تحجر على الخطباء أن يخطبوا وعلى الناس أن يجتمعوا، أو كانت تهاجم الأفراد وتسجنهم وتعاقبهم من غير تهمة معينة ومن غير صدور حكم من القضاء، والأفراد لا يؤدون واجبهم إذا كانوا لا يسمحون لخطيب أن يخطب إلا إذا كان يرى رأيهم، ويقول بأسانهم، ولا يبديحون لكتاب أن يكتب ولا صحيفة أن تنشر إلا ما يوافق مذهبهم، إنما يؤدون واجبهم يوم يكون القول حراً والنقد المؤدب حراً، والحجة وحدها هي وسيلة الاقناع

يجب أن يستشعر المرء أنه حر وأن الناس أيضاً أحرار، فكما أن له حقاً أن يكون حراً عليه واجب أن يحترم حرية الآخرين، يجب أن ينضم إلى شعور الشخص بأنه حر وأنه سيد نفسه شعور بأنه ليس يعيش وحده، ولكنه عضو في جمعية، وأنه مسئول عن حرية هذه الجمعية، ومن مميزات الأمم الراقية نماء هذين الشعورين في أفرادها وتعاذلهما، أعنى الشعور بالحرية والشعور بالمسئولية — والواجب الآخر واجب على ذي الحق نفسه وهو أن يستعمل حريته في خيره وخير الناس، ومن أساء استعمالها كان خليقاً أن يسلبها، قال ملتن « من يتعشق

الحرية يجب أن يكون قبل طيباً حكيماً « فليست الحرية تشترى
أو تمنح ولكن تكسب بالعمل لنيلها وحسن الاستعداد لها

(٣) حق الملك

يكاد يكون حق الملك جزءاً مكملاً لحق الحرية ، فان الانسان
لايستطيع أن يرقى نفسه كما يشاء الا بملك الوسائل
وقد دعا الى هذا الملك أن وسائل الحياة لا تكفي اسد رغبات
كل الناس فتزاحوا على طلبها ودعاهم حب الذات الى الاستئثار
بها فكان الملك

الملك الخاص والملك العام : وانا بالملاحظة نرى سكان للملك ،
فتارة يكون ملكاً خاصاً كملك شخص كتاباً أو منزلاً أو ثياباً
وتارة يكون عاماً كالسكك الحديدية والمتحف ودار الكتب
ودار الآثار

وانما جعلت بعض الاشياء ملكاً خاصاً وأخرى ملكاً عاماً
لانا رأينا أن الملك الخاص ادعى الى عدم التبذير وإلى العناية ، وهو
في هذين يفضل الملك العام ورأينا الملك العام يحمي من الاحتكار
ومن استبداد المالك

فالملك الخاص خير عند ما تكون ملكيته ادعى الى العناية
والتبذير ، والملك العام خير عند ما تكون ملكيته أنقى للاحتكار
واستبداد فرد أو أفراد قليلين بها ، فالثياب التي يلبسها الانسان

وما يأكله والمسكن الذي يسكنه خير أن تكون ملكاً له لأنه
بها أكثر عناية ، ولا خوف فيها من احتكار واستبداد ، أما المتحف
أو الجزء من الشارع فلو كان في ملك فرد لاستبد بالناس وفرض
عليهم من الرسوم ما يضر بهم فكان من الخير أن يكون ملكاً عاماً
وهناك أشياء كان من الواضح فيها أن تكون ملكاً عاماً
لانطباقها على القاعدة المتقدمة في الملك العام ولكن أعطيت
للشركات تديرها كشركة المياه وشركة النور — ومنعاً لاستبدادها
بالأمة عقدت الحكومة معها شروطاً تجعل حداً أقصى لثمن
الوحدات

وليلاحظ أن الأشياء التي نقول أنها ملك عام هي التي يعبر
عنها بأمالك الحكومة ، ذلك لأن الحكومة نائبة عن الأمة
فهي تدير هذه الأملاك وتتصرف فيها نيابة عن الأمة
ولا يزال الخلاف قائماً على أشياء يرى البعض أنها يجب أن
تكون ملكاً عاماً ، ويرى آخرون أن تقسم بين الأفراد فتكون
ملكاً خاصاً كالأراضي الزراعية ، فإن « الاشتراكيين » يرون أن
تكون الأراضي وما في باطنها ملكاً للجمهور ، ينتفع بها الناس
على السواء ، فكادوا يلغون بذلك الملك الخاص ، وعلى هذا الرأي
جرى « أفلاطون » في كتابه « الجمهورية » فكان يرى أن المثل
الأعلى للحكومة حكومة يكون الناس فيها شركاء في المتاع
وإيس للأفراد فيها حق الملك ، وخالفه أرسطو ، فقد كان يرى

أن خير مثال للحكومة حكومة يكون فيها الأفراد متمتعين
بملك ما هم في حاجة اليه ، ولكنهم مع هذا يعلمون كيف يستعملون
ما يملكون في خير الكافة

وحق الملك يستلزم واجبين ، واجب على الناس ، وهو أن
يحترموا ملكه ، فلا يتعدوا عليه بسرقة أو غصب أو نحو ذلك ،
وواجب على المالك ، وهو أن يستعمله أحسن استعمال
وإذا كان من الناس من هم أحوج منا الى ما نملكه وكانوا
يستطيعون أن يستعملوه أحسن مما نستعمله وجب علينا أن
نتنازل لهم عنه ونبيح لهم استعماله ، فإذا كنا نملك عجلة أو سيارة
وكان جارنا مريضاً واحتيج الى العجلة للاسراع في احضار الطبيب
وجب علينا أن نبيح لهم استعمالها لأن استعمالها في حفظ الحياة
يفضل أى استعمال آخر كالتروض ، ولو أن بيتنا لثقى احتيج اليه
في أيام الحرب ليكون مستشفى يعالج فيه الجرحى الذين دافعوا
عن أوطانهم لوجب على المالك أن يبيح لهم ذلك ، والقرش في جيبك
إذا كان الفقير لو أخذه حفظ به حياته ، ولو أبقيته دخنت به
تفكته ، وجب عليك أخلاقياً أن تعطيه الفقير ، وقد صدق
الشاعر إذ يقول

وحسبك داء أن تبنت بيطنة وحوالك أ كبادتحن الى القدر
وكل إنسان منا عند اصطدام قطارين أو ترامين واجب عليه

أن يقدم ما يستطيع من مندبل وعصاودوا لاسعاف المنكوبين ،
لأن هذا خير ما يستعمل فيه المتاع ، وهكذا

(٤) حق التربي^(١)

لكل انسان الحق أن يتربي ويتعلم حسب كفاءته واستعداده ،
فله الحق أن يتعلم القراءة والكتابة وأن يرقى ملكاته في الفنون
والعلوم حسب ما يسمح له استعداده ، وأن يتهذب بأنواع التهذيب
المختلفة

وإنما كان له هذا الحق لان التربي وسيلة من وسائل الحرية
ومن وسائل الحياة الراقية ، فالجهل اذا فشا في أمة أثر فيها أثراً
سيئاً في جميع مرافقها ، سواء في ذلك الشؤون الاقتصادية والصحية
والاجتماعية والسياسية ، فالتعلم يستطيع أن يتكسب ويدبر أمور
معيشته وينظم حياته أكثر مما يستطيع الجاهل ، والاسرة المتعلمة
أقدر على مراعاة الامور الصحية من الاسرة الجاهلة ، واذا أكثر
الجهل في أمة أكثر فيها الفقر والتشرد والاجرام ، والمتعلمون
أصوب حكماً اذا انتخبوا من ينوب عنهم وأصدق نظراً وأقوم

« ١ » آثرنا كلمة التربي على التعلم لان الاولى أوسع معنى ، فالتعلم
أثر التعليم وهو توصيل العلم إلى ذهن المتعلم اما التربي فهو أثر التربية وهي
تنمية قوى الانسان وملكاته ، فالتعلم ضرب من ضروب التربية ، وعمل
المنزل والتمثيل المهذب والسینما توغراف المؤذب ضرب من التربية لا التعليم
والانسان له الحق في التربي بأوسع معانيه

رأياً إذا انتخبوا ، والمرأة المتعلمة أقدر على تربية أبنائها وتنظيم
بيتها وإدارة شؤونها وهكذا ، والعلم باب للاخلاق القويمة والدين
الصحيح ؛ به يشعر الانسان بنفسه ، وبه يدرك الحياة العالية ،
وبه ترقى شخصيته

وواجب على الحكومات إزاء هذا الحق إعداد الوسائل
لكل فرد من أفراد الأمة لينال درجة من التربية تؤهله لان
يكون عضواً صالحاً في الجمعية يعرف حقوقه وواجباته ،
يجب عليها أن تقوم بهذا الواجب ويجب ألا يحول بينها وبين
القيام به فقر الاب أو قصر نظره ، وبعبارة أخرى يجب أن يكون
تعليم الاطفال كافة اجبارياً وبالجمان ، وأن يكون التعليم يؤهلهم
لان يفتحوا لهم طريقاً في الحياة حسب كفاءاتهم وميولهم ،
ويبعث فيهم الرغبة في أن يعيشوا عيشة أخلاقية صالحة ، وعليها
إعداد المعلمين الصالحين للقيام بهذه المهمة ، وواجب على الاغنياء
والجمعيات مساعدة الحكومات في نشر التعليم لنيل هذا الغرض
وهذا الحق لم تقومه الامم التقويم الذي يستحقه حتى أعلى
الامم حضارة ، وهم يسرون ببطء في سبيل تحقيقه ، نعم أن
أكثر الامم الممدنة خطت خطوات واسعة في تسهيل التعليم
الاولي وتعميمه ، فجميع الممالك الاوروبية — إلا روسيا — جعلت
التعليم الاولي اجبارياً وكذلك فعلت اليابان منذ سنة ١٨٩٠ وهو

كذلك اجبارى في معظم أنحاء الولايات المتحدة^(١) ولكن لانزال هذه الامم مقصرة في التعليم العالى ، ففيها تجد كثيراً من الراغبين في تنعيم علومهم ولكن الطرق قد سدت في وجوههم ، أما للنفقات التي تفرض عليهم وأما لاشتراط شروط أخرى لم تتوفر فيهم ، والمثل الاعلى الأمة أمة يجد فيها كل فرد وسائل رقيه وتعلمه ممهدة موفورة

« ١ » أما مصر فالتعليم فيها ضيق ومعيب ، جاء في تقرير لجنة التعليم الاولى ان مجموع ما تنفقه الحكومة المصرية على التعليم يعادل ٢ في المائة من مجموع مصر وقتها على حين ان ما تنفقه رومانيا وبلغاريا مثلاً ١٠ في المائة وما تنفقه انجلترا ١٣١ في المائة وما تنفقه هذه الحكومات معظمه يصرف على التعليم الاولى وحده أما في مصر فلا يصرف عليه إلا ١٩٠٠٠ جنيه اى اقل من ١ في الاف من مجموع المصروفات السنوية وجاء فيه أيضاً (قد دل الاحصاء الذى عمل في مصر في سنة ١٩٠٧ على أن ٩٦ في المائة من الوطنيين في القطر لا يعرفون القراءة والكتابة) (٩٢ في المائة من الذكور و ٧٩ في المائة من الاناث أما في الممالك الاخرى فقد احصى من لا يستطيعون التوقيع باسمهم على عقود الزواج فبلغت نسبتهم في الدانيمرك وروسيا ١ في المائة وفي بريطانيا العظمى ٢ في المائة وفي هولانده ٣ في المائة ، وفي فرنسا ٤ في المائة وفي ايرلانده ٨ في المائة وفي ايطاليا ٣٨ في المائة واحصى الاميون في الولايات المتحدة فبلغوا ٨ في المائة من عدد السكان وفيهم الزنوج ، وفي بلجيكا ١٣ في المائة وفي فرنسا (وفيها ولاية الجزائر) ١٤ في المائة وفي ايرلندا وكنندا ١٧ في المائة وفي النمسا ٢٦ في المائة وفي ايطاليا ٣٧ في المائة وفي اسبانيا ٥٩ في المائة »

حقوق المرأة

كل الحقوق التي قدمنا كان ينبغي أن تكون حقوقاً للرجل والمرأة على السواء، فإنها حقوق للإنسان لأنه إنسان، ويشترك في الإنسانية الرجل والمرأة، ولكن لما كان الواقع غير ذلك كان لابد من افراد حقوق المرأة بكلمة خاصة

لم تتمتع المرأة إلى اليوم بكل حقوق الرجل وان كانت قد خطت للوصول الى ذلك خطوات واسعة — في القرون الوسطى وبعدها إلى أوائل القرن التاسع عشر لم تكن المرأة في أوروبا تملك شيئاً من الحقوق القانونية، وكانت تربيتها تنحصر في تعليمها الطبخ وتربية الاولاد وخبياطة الملابس، فان كانت من طبقة عالية علمت العزف على آلة موسيقية

وفي أيامنا هذه قطعت المرأة شوطاً بعيداً في نيل كثير من حقوقها، وكانت المرأة في الولايات المتحدة أسرع نساء العالم سيراً إلى ذلك، فقد سمح لها هناك أن تغشى الجامعات فضلاً عن المدارس، ورخص لها أن تتعاطي كثيراً من المهن فصار منهن طبيبات ومحاميات ناجحات في أعمالهن، وحقوقها في الزواج تساوى حقوق الرجل فلها الحرية التامة في اختيار زوجها، وقد أعطى لها حق الانتخاب في بعض الولايات، وعلى الجملة فقد كادت المرأة الامريكية تساوى الرجل في كل الحقوق

وقريب من هذا نساء أوروبا ، فقد سمح لهن في أكثر الممالك أن يدخلن الجامعات والمدارس ، وقرر مجلس العموم الأنجليزي منح النساء حق الانتخاب في يونيه سنة ١٩١٧ ومنحت إيطاليا هذا الحق للارامل ذوات الاملاك . وتختلف حركة نساء أوروبا في المطالبة بحقوقهن قوة وضعفاً فهي في إنجلترا مثلاً أنشط منها في فرنسا المرأة غداً : يتوقع كثير من المفكرين أن المرأة (١) سوف تقاس أعمالها بنفس المقياس الاخلاقي الذي تقاس به أعمال الرجل ، وبيان ذلك أن المرأة والرجل الآن لا ينظر إلى أعمالهما نظراً واحداً ولا يحكم على ما يصدر منهما حكماً واحداً ، ففي مصر اليوم مثلاً اذا سهر الرجل خارج بيته الى منتصف الليل واعتاده لم ينظر الناس اليه كأنه اجرم جريمة كبيرة ، وان كان اذا غابت المرأة يوماً إلى ما بعد الغروب عد ذلك جريمة كبرى في كثير من الاوساط ، واذا أبدى الرجل رغبته فيمن يتزوج كان ذلك عملاً مألوفاً ، ولكن اذا أبدت المرأة رأياً فيمن تتزوج كان ذلك مستهجنًا . سوف لا يكون ذلك ، وسوف ينظر إلى عمل النوعين على السواء ، وسوف يحتقر أحد النوعين اذا ارتكب جريمة ويمير من أجلها كما يفعل ذلك بالنوع الآخر «٢» ستكون للمرأة سلطة في المنزل تساوى سلطة الرجل وستكون شريكة له فعلاً — كما هي شريكة نظرياً — في السعادة المنزلية (٣) ستربي تربية خيراً من تربيتها اليوم فتستطيع أن ترقى اولادها وتنشئهم على اساس

علمي لاخرافي (٤) سيكون لها من الحقوق القانونية ما لزوجها ،
وستكون حقوقها في الزواج مثل ما للمرأة الامريكية اليوم
(٥) سيسمح للمرأة بتعاطي بعض المهن عند حاجتها إلى ذلك

كما اذا توفي عنها زوجها ولم يكن لها عائل
وسوف تسرع في نيل حقوقها مادامت كلما أخذت حقاً من
الحقوق أقامت البرهان على حسن استعمالها له ، فان هي فرطت
فما تنال كان ذلك عائقاً لها عن السير في سبيلها

المرأة المصرية : ان الاسلام وان أعطى للمرأة كل الحقوق
التي للرجل — الا في مسائل معدودة — فجعل لها الحرية في التعلم
وأعطى لها كل الحقوق القانونية من تصرف في أملاكها كما
تشاء ، إلى كثير من أمثال ذلك الا أنها لم تتمتع فعلاً بهذه الحقوق
فهي في أموالها كآلة على قريب لها أو وكيل ، يتصرف عنها ويغرم
منها وهي لا رأى لها ، وفي الزواج زوجها أبوها ولا رأى لها فيمن
تزوج ، ولا حق لها أن تراه ، واستشارة وليها لها استشارة
صورية محضه ، وكثير من الرجال لا يسمح لهن أن يتمتعن بما
تتمتع به الحيوانات من استنشاق الهواء الطلق ، ولا يسمحون
لهن أن يخرجن مع أولادهن إلى الحدائق والمنتزهات . ولا يسمح
المجتمع للزوج والزوجة أن يخرجوا معاً ويمشوا جنباً إلى جنب في
حديقة أو على نهر ، فأن فعل ذلك عرض نفسه للانتقاد والمز
وفي مصر لا تدرس بنت واحدة في مدرسة عالية ، ولا في

جامعة، ولا يوجد في القطر كله الا مدرسة واحدة ثانوية للبنات ونسبة من يتعلم منهن التعلم الاولى نسبة ضعيفة حتى لقد بلغت نسبة الاميات في احصاء سنة ١٩٠٧ - ١٩٠٧ أي أن في كل مائة امرأة لا تكاد تجد واحدة تعرف أن تقرأ أو تكتب ومن أجل هذا لا يستطيع جمهورهن أن ينشئن أولادهن نشأة صالحة، وهذا أيضاً غلة كبيرة من علل الفساد في الاسر، بل إلى اليوم لم يفهم أكثر نساءنا أنهن مهضومات الحقوق حتى يطالبن بها - وجاهل المرأة هذا الجهل لم يجعل الرجل يحترمها الاحترام اللائق بها لأنه لا يقرأ فيها معنى المزاملة والصحبة اذ من شروط ذلك تقارب العقابين والمزاجين

ويجب أن تفهم المرأة أن بأزاء الحقوق واجبات فيجب أن تأخذ حقها كاملاً، وتؤدي واجبها كاملاً - واجبها في المجتمع لا يقل عن واجب الرجل ومسئوليتها عظيمة، فهي مسئولة عن شؤون المنزل ومسئولة عن تربية الطفل ومسئولة عما تنال من الحرية كيف تستعمله، فان هي أقصرت في أداء واجبها فللمجتمع الحق أن يبطيء في انالها حقوقها شيئاً فشيئاً، وكلما نالت شيئاً من الحق استلزم ذلك شيئاً من الواجب، فهي ان نالت حق التصرف في مالها وجب عليها أن تتعلم كيف تدبره وكيف تتصرف فيه، وان نالت حق اختيار من تزوج وجب عليها أن تستعمل الحكمة في ذلك، وتغلب العقل على العواطف

على انا اذا قارنا بين المرأة اليوم والمرأة أمس ، وجدناها
خطت خطوة كبيرة ، ونالت شيئاً من حقوقها ، وأدت شيئاً من
واجبها ، واذا استمرت في سيرها كان من المحتمل القريب أن
يكثُر ميلها إلى التعلم ، ولا تكتفي بالمعلومات الأولية ، فتضطر
الأمة والحكومة أن تنشئ لها المدارس الراقية التي تناسب في
نظامها وعلومها مزاج البنات ، وبهذا يرقن ويفهمن أن لهن حقوقاً
يطالبن بها ، ويستطعن أن يربين أولادهن تربية حسنة : جسمية
وعقلية وخلقية .

انا نريد من المرأة أن تكون انسانا لها حقوق الانسان
وعليها واجباته ، ولستنا نريد أن تساوى الرجل في كل شيء ، فتحترف
وتوظف فانها ان فعلت ذلك أضاعت سعادة البيت ، وأضاعت
الاولاد ، انما نريد أن تكون المرأة شريكة الرجل في الحياة ، تدبر
المنزل وتقوم بمصالح الاولاد وتفهم الرجل ويفهمها ، ويشعر منها
بمعنى الزمالة ولا يكون ذلك حتى تعلم تعليماً مفيداً .
نريد أن تتمتع بما أحل الله من رياضة بدنية يصح بها جسمها ،
ورؤية للعالم ومعرفة بشؤونه ينمو بهما عقلها ، نريد أن تعامل
معاملة انسان لا معاملة متاع . والايكون للرجل عليها هذا السلطان
القاهر ، فيطلق من غير سبب ويتزوج أخرى من غير حاجة .
نريد أن يصنع الاب الى رأى بنته فيمن تتزوج فلا يستبد بهما .

ولا يرغبها على أن تزوج من لا تشاؤه وإنما يبدي لها النصيحة
والارشاد . نريد أن تربي دينية خلقية فتعود العمل الصالح
وترجو الله وتحافه ، أنا إن فعلنا ذلك صاحت المرأة فصاحت
الاسرة فصاحت الامة

الواجب

تستعمل كلمة « الواجب » فيما يقابل « الحق » فما غيرنا
علينا فحق لهم وواجب علينا ، وفي هذا المعنى استعملنا الكلمة
في الفصل السابق - وكثيراً ما نستعملها ولا نلاحظ فيها مقابلتها
للحق فنقول « قد أدى الواجب » و « الواجب يقضى بكذا »
ولسنا نلاحظ فيها أنها في مقابلة « حق » وان كان التحليل الدقيق
قد يؤدي إلى ذلك

وقد عرفه بعض الأخلاقيين بأنه العمل الاخلاقي الذي
يبعث على الاتيان به الوجدان

وقد اختلف علماء الاخلاق في الطريقة التي يتبعونها في تقسيم
الواجب فمنهم من قسمه الى (١) واجبات شخصية أعني واجبات
على الشخص لنفسه كالنظافة والعفة (٢) واجبات اجتماعية أعني
واجبات على الشخص لمجتمعه كالعدل والاحسان (٣) وواجبات
لله كالطاعة

وهذا التقسيم غير محدود فكل واجب يمكن رجوعه إلى

أى قسم من هذه الاقسام الثلاثة تبعاً لاختلاف النظر ، فالنظافة
مثلاً واجب شخصى من حيث ما يترتب عليها من صحة بدن الشخص
وراحته ، واجتماعى إذا لاحظنا أن صحته تؤثر في حالة المجتمع ،
والهلى إذا نظرنا اليها من جهة أنها تنفيذ لامر آلهى

وقسم آخرون الواجب إلى قسمين (١) واجبات محدودة يمكن
أن يكاف بها الاشخاص على السواء من غير تنويع ، ويمكن أن
توضع في قانون الامة مثل لا تقتل ولا تسرق ، ويمكن أن
يوضع بجانبها عقوبات لمنتهكها ، وهذه يشترك في طلبها القانون
والاخلاق

(٢) واجبات غير محدودة وهذه لا يمكن أن توضع في قانون
الامة ، وإذا وضعت سببت ضرراً أكبر ، ولا يمكن أن يعين
المقدار المطلوب فيها كالأحسان ، فانه يختلف المقدار الواجب
فيه باختلاف الزمان والمكان والظروف المحيطة بالشخص

والقسم الاول يشمل الواجبات الاساسية التى يتوقف عليها
بقاء المجتمع وباهمالها لا يصلح حاله ، والقسم الثانى يشمل الواجبات
التى عليها رقى المجتمع وسعادته - ومن أجل هذا قيل أن النوع
الثانى أرقى من الاول وأعلى منه شأنًا لان الاول ينفذه القانون والثانى
ينفذه الوجدان كالعدل والأحسان ، فالعدل من القسم الاول وعليه
يتوقف المجتمع ، والأحسان من النوع الثانى وهو لا يكون حتى
يكون العدل ، فالعدل الدمامة والأحسان مشيد فوفه

والواجبات على الناس مختلفة متنوعة ، فكل حالة من حالات الحياة تقتضى واجباً معيناً ، والناس في هذه الدنيا كبحارة السفينة وكنود الجيش ، لكل عمل وعلى كل واجب ، على اختلاف بينهم فيما يجب عليهم - ذلك لان الناس مختلفون من وجوه عدة (١) بحسب الثروة فمنهم غنى وفقير وبين ذلك (٢) وبحسب الرتب فملك وأمير وعامة (٣) وبحسب العمل فمنهم من عمله عقلي كالقاضي والمدرس ومنهم من عمله يدوي كالنجار والحداد إلى كثير من أمثال ذلك - وهذا ينتج خلافاً في الواجبات فما يجب على حاكم غير ما يجب على أحد الرعية ، وما يجب على غني غير ما يجب على فقير ، - وعلى كل انسان أن يؤدي واجبه ، ولا يستصغر أحد ما يجب عليه فكثيراً ما تتوقف كبار الواجبات على صغارها فمثلاً لا يصح أن نعد عمل الكناسين في الشوارع والازقة واجباً تافهاً حقيراً فان عليه تتوقف حياة كثير من الناس وحسن صحتهم ، وليس هذا بالامر الهين ، وان كسر قطعة صغيرة في سفينة قد يؤدي إلى غرقها كما قد يؤدي الى ذلك فقد سُكَّانها (دقتها) ، وضياع مسمار صغير في ساعة قد يؤدي إلى وقوعها كضياع الزنبك أداء الواجب : علي كل انسان أن يؤدي واجبه ، ذلك لان الانسان في هذه الحياة لا يعيش لنفسه فحسب بل يعيش له وللناس وأداء الواجب يؤدي إلى هذه السعادة ، فالتلميذ الذي يؤدي واجبه لأسرته ومدرسته يسعد والديه ، والاغنياء بتأديتهم

ما عليهم من بناء للمستشفيات وتبرع للجامعات ونحوها يزيدون
في راحة الناس ، وعلى العكس من ذلك السارقون والسككرون ،
فأنهم بأهمالهم الواجب عليهم وعدم إطاعتهم قوانين البلاد يزيدون
في شقاء الناس وتعاستهم - ولا يبقى العالم ويرثي الأبداء الواجب ،
ولو أن مجتمعاً قصر في أداء كل واجباته أياما لفضي ، فلو أن المدينين
لم يؤدوا ديونهم ، ورفض طلبة المدارس أن يتعلموا ، ولم يؤد أفراد
الأسرة واجبههم ورفض كل ذي عمل أن يؤدي عمله لحاق بالمجتمع
الفناء العاجل - وبقدر قيام الأفراد بواجبههم يقاس رقي الأمة
يجب أن تؤدي الواجب لانه واجب ، تؤديه اطاعة لوجودنا
لا طمعاً في ربح ننال ، ولا رغبة في شهرة نحصلها ، ان الذين يفعلون
لك الخير لما يرجون منك من الخير تجار يبيعون اليوم ما يقبضون
ثمنه غداً ، انما مثلنا الأعلى أن نصل من الرقي الى حد أن نتلذذ من
عمل الخير للناس كما نتلذذ من وصول الخير الينا ، ونردد مع
ابي العلاء قوله

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ايس تنظم البلاد
بل مع البارودي قوله

أدعو الى الدار بالسقيا وبى ظمأ أحق بالرى لكنى أخو كرم
وكثيراً ما يكلفنا القيام بالواجب مشقات يتبغى أن نتحملها ،
ويتطلب منا تضحية يلزمنا تقديمها ، فالقاضي العادل قد يضطر
الى الحكم على صديقه أو قريبه فيؤلمه ذلك ، والجندي يعرض حياته

للخطر محافظة على أمته ، ورئيس السفينة إذا عطبت يجب أن يبقى في السفينة حتى ينتقل جميع من فيها الى قوارب النجاة ، وأعلان الانسان رأيه وتمسكه بمبدئه قد يبعده عن منصب ويجرمه من فائدة ، وفي جميع ذلك يجب أن نتحمل التضحية - مهما آلت - عن رضا وارتياح ، واكن يجب هنا أن ننبه الى أمرين كبيراً ما يخطيء الناس فيهما

(الاول) أن التضحية ليست مقصودة لذاتها ، ولا يصح أن تكون غرضاً يريد الانسان تحصيله ، فهي ليست إلا المأماً محضاً ينبغى الفرار منه إلا إذا استتبع خيراً ، فما يفعله بعض الزهاد من الامتناع عن الأكل ، وحرمان النفس من التمتع بما أحله الله ، ولبس الخشن من الثياب لا لغرض إلا طلب المنوبة بهذا الشقاء - خطأ لا يرضى عنه عقل ولا دين ، وقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من نذر أن يصوم قائماً في الشمس ، فأمره بإتمام صيامه ونهاه عن القيام في الشمس لان الله لم يضع تعذيب النفوس سبباً للتقرب اليه ، وليست المشقة نفسها سبباً في رضا الله . وانما رضاؤه في عمل صالح قد يستلزم المشقة ، وليس بصحيح قول الناس « الثواب على قدر المشقة » إذا أخذ على عمومه انما يكون صحيحاً إذا كان العمل المقصود عملاً خيراً لا يمكن أن ينال إلا بمشقة

(الثاني) ليس لأداء أي واجب تقدم أية تضحية ، بل لا بد أن يوازن بين الواجب والتضحية ، فليس صواباً أن يضحي الانسان

حياته ايرتاح من ألم أسنانه ، ولكن خيراً أن يقلم أشجاره اينزيد ذلك في ثمارها ، فتي كان الخير الذي نناله من العمل يرجع التضحية وجبت التضحية ، كالطبيب يهجر نومه ويتعرض للتعب والبرد لازالة ألم مريض وادخال السرور عليه وعلى أسرته ، وكالعالم يهجر راحتته ولذته من أجل اخراج كتاب يهدي الناس أو لاستكشاف يزيد في خيرهم والجندي يضحي نفسه لتحيا أمته ، والامثلة على ذلك كثيرة - وهذه الموازنة قد تسفر عن ترجيح أى الامرين (الواجب والتضحية) بمجرد النظر أو بقليل من البحث ، وقد يدق الامر على الفكر لتقاربهما في الخيرية والشرية قرب ($\frac{1}{4}$ من $\frac{1}{4}$) ويصعب الحكم بتفضيل احدهما ، ويجب عندئذ أعمال الفكر وإطالة النظر حتى يتجلى الحق

ومتى اقتنع الانسان بخيرية التضحية وجبت عليه ، ذلك لانه عضو من جسم كما بينا فليس من الحق أن يستأثر انسان بالذائد ، ويتمتع بالراحة التامة والناس من حوله أئمن متعبون ، كما لا يستأثر عضو بكل الغذاء ويترك سائر الاعضاء تتضور جوعاً

وكما عظم الغرض كانت التضحية أوجب ، كما تفعل الامم الحية تضحي الالوف من أبنائها دفاعاً عن حريتها ، وحفظاً لشخصيتها ، وليست تستكثر ما تبذل لعظام ما تطلب

وسير عظام الرجال مملوءة بالشواهد على التضحية ، ولا تكاد تجد عظيماً لم يضح كثيراً ، اما لنشر مبدأ يخالف فيه رأى العام

أو لمحاربة عدو يريد اغتصاب أمة، أو لتخليص عقائد دينية مما دخل عليها من التغيير، أو لتحقيق مسألة علمية كثر فيها البحث والجدال - وهذه التضحية هي التي تكوّنهم، وهي سر عظمتهم فان ما يبذلون في حياتهم من الجهد لتذليل الصعاب التي تعترضهم وما يتحملونه من العناء للتغلب عليها ينمي ملكاتهم، ويعودهم الصبر على المشاق لتبيل أغراضهم، أما من يستسلم للنعيم ويخلد للراحة فحال أن يكون عظيمًا لأنه يشب غير قادر على تحمل مشقة اللاتيان بعمل كبير

أهم الواجبات

الواجبات على الانسان لله

في العالم قوة خفية تحركه وتدير شؤونه، هي له كارادتنا فينا، وهي علة وجوده وبقائه، وهي سر ما نشاهد من نظام دقيق، وقوانين لا تتخلف وظواهر تتتابع بانتظام، نجوم قد دق نظام سيرها « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » وفضول تتعاقب بدقة تستخرج العجب ونباتات وحيوانات جلت حياتها عن الوصف - هذه القوة هي الله رب العالمين

لهذه القوة نحن مدينون بكل شيء لنا، بحياتنا وبصحتنا وبحواسنا وبكل ملذات الحياة وصنوف النعيم

فواجب علينا حبه واجلاله وشكره - نحبّه لانه مصدر
كل خير لنا ، وهو الذي يمدنا من قدرته بكل ما لنا من وجود
وقدره ، ونحبّه لانه الموجود الكامل الذي لا حد لجماله ، ونحبّه
لان من طبيعتنا أن نحبّه ، فكل انسان على الفطرة يشعر بحنين
الى آله يفزع اليه عند الشدائد ، ويتضرع اليه في كشف السوء
عنه ، ويجد في الالتجاء اليه سلوة وأسى عند المصائب ، ومشجعاً
على العمل وباعثاً على التضحية اذا دعت الحال

ومن آثار حبه التعبد بأشكال العبادات المختلفة ، فانها خير
ما تكون اذا دعت اليها حرارة الحب وكانت مظهرأ من مظاهر
الاخلاص لله والطاعة له وإلا كانت مجرد حركات وصور وأشكال
لا روح لها

وان أحسن أنواع الشكر لله الخضوع لقوانين الاخلاق والعمل
بما تقتضيه ، ذلك لان الله خلق هذا العالم وجعل سعادته مرتبطة
بأشياء من صدق وعدل وأمانة ونحوها ، وشقاه وفناه في
أضدادها ، ثم أمر بما يوصل الى السعادة وسماه خيراً ، ونهى عما
يجلب الشقاء وسماه شراً ، وتلك الامور التي توصل الى السعادة
هى بعينها قوانين الاخلاق ، فمخالفتها عاص لأمر الله جاحد لنعمة
ومطيعها مطيع لأمره مؤد لواجبه

إذا امتلأت النفس عقيدة بما قدمنا من أن قوانين الاخلاق هي أوامر الله صدرت الاعمال عنها ممزوجة بقوة تجمعها أقوى أثراً وأكثر نفعاً ، ولذا ترى أن أكثر من اندفعوا النصره الحق وتشددوا في التمسك به ، اوقدموا أنفسهم فداء للفضيلة ، كانوا ممثلين عقيدة بالله ووجوب طاعته ، ألهبتهم حماسة رغبة في رضائه وشوق الى لقاءه

واجب الانسانية لامتد

« الوطنية »

الوطنية حب الانسان لبلاده ، أرض آبائه وأجداده ، وانما نحب وطننا لما بيننا وبينه من الصلات المتينة ، فقد ترىنا في جوه وبين قومه ، وصرنا منه بمنزلة الفرع من الشجرة ، كونه هواؤه وترتبه أجسامنا ، وصارت قوانينه وعرفه عادتنا ؟ وأصبحت طريقة أهله في ما كلهم وملبسهم وكلامهم طريقتنا ، نحن اليه اذا نرحنا عنه ، ويهيج أشجاننا اليه ذكراناله ، ونأنس بقربه ، ونعتر بعزته ، ونألم لهوانه

على أن حب الوطن يكاد يكون طبيعياً في كل انسان ، حتى نرى بعض الحيوانات تحن الى أوطانها ، كما تحن الطيور الى أوكارها ، ولقد ينشأ البدوي في بلد جدد ومكان قفر وهو مع ذلك يسعد بوطنه ويقنع به ويفضله على كل مصر ، « وترى

الحضري يولد بأرض وباء، وموتان، وقلعة خصب فاذا وقع ببلاد أريف من بلاده، وجناب أخصب من جنابه، واستفاد غنى حنّ الى وطنه ومستقره^(١) هذا هو السر في أنك ترى البلد تفشو فيه أنواع الحميات، أو يكون مثارا للبراكين من حين الى حين، أو عرضة لطغيان الماء، أو عصف الرياح، ثم لا يبرحه أهله، ولا يعدلون به بلدا سواه، « قيل لأعرابي كيف تصنع في البادية اذا اشتد القيظ، وانتعل كل شيء، ظله، قال وهل العيش الا ذاك يمشی أحدنا ميلا فيرفض عرقاً ثم ينصب عصاه ويلقى عليها كساءه ويجلس في فيئه يكتال الريح، فكانه في إيوان كسرى »

ويكون حب الوطن عند أكثر الناس في حالة كهون إلى أن يذم وطنهم خطر أو توجد دواع تنبهم فتنبه مشاعرهم، ويظهر حبهم لوطنهم بأجلى مظاهره ويدعوهم للعمل على خدمته فيبدلون نفوسهم وأموالهم في سبيل نصرته والذود عن مجده وحرية مظاهر الوطنية: يستطيع الانسان أن يخدم وطنه من

طرق عديدة

(١) الدفاع عن البلاد إذا هوجمت أو أريد التعدي على حريتها وهذه هي وطنية الجنود، وقد ظهر هذا النوع من الوطنية بأجلى مظاهره في الحرب العظمى. فقد بذلت فيها الدماء من كل فريق من المتحاربين بسخاء حفظاً على البلاد من التعدي عليها وعلى حريتها

(٢) وقف الحياة على خدمة الوطن ، وهذا وطنية السياسيين والمصلحين فالسياسيون يدبرون دفة البلاد نحو ما يرقبها ويعلى شأنها ، ويقودون الرأي العام إلى ما فيه مصلحة الوطن ، فان رأوا رأيا لم يرضه عامة الناس عملوا ما يرونه حقاً ولم يثبتم عن عزمهم تهمة يتهمون بها ، ولا نقد يوجه اليهم ، يفضلون عمل الحق ولو أهينوا على عمل خطأ يرضى الجمهور وان كرموا ، عمادهم اخلاصهم ومرشدتهم وجدانهم ، - وأما المصلحون فانهم يرون موضع الداء في الامة فيعالجونها ، وكثيراً ما يحدث أن الداء يتأصل فيها حتى تألفه وتظنه السلامة ، فاذا دعاها المصلح الى العمل على الخلاص منه قامت في وجهه وعارضته وحسبته خارجاً عليها كما قال الله تعالى « أو كلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » ولكن المصالح يزيد الاضطهاد تمسكاً برأيه ودفاعاً عنه ، ولا يزال الناس يلتفون حوله شيئاً فشيئاً حتى يصبح المذهب المقرر والرأي السائد ، ويمعجب الناس إذا نظروا إلى ماضيهم كيف كانوا يعتقدون هذا المذهب الفاسد وكيف لم يدركوا فساده بمجرد الدعوة اليه

(٣) اداء الواجب - وهذه وطنية الناس كلهم ، فأداء كل واجب اليومي في عمله وفي بيته ومع أولاده وأصحابه ومن يعاملونه ، وانتخابه خير الناس إذا انتخب ، وتمضيده المشروعات النافعة

بعاله وعامه وجاهه - كل هذه وطنية صادقة صحيحة ترفع شأن
الوطن وتعلي مكانته

(٤) تشجيع المصنوعات الوطنية والحاصلات البلدية وتفضيلها
على غيرها من المصنوعات والحاصلات الاجنبية ، كما أن وطنية
الصانع والمنتج تقضى عليهما أن يبذلا الجهد لجعل المصنوع
والمنتج في حالة لا تقل عن أمثالهما مما يرد من الخارج ، وعلى
الحكومة مساعدة ما تنتجه البلاد نفسها بما تضع من نظام
الضرائب ونحوها - وان الامة اذا ساعدت المصنوعات
والحاصلات البلدية تكون قد ساعدت على حفظ الثروة في بلادها ،
وجعلتها تنتقل من يدها الى يدها ، وكلما زاد اعتمادها على البضائع
الاجنبية انتقلت الثروة من يدها الى يد غيرها وفقدت بذلك
استقلالها الاقتصادي

وبعد فكل انسان يستطيع بعمله ولو حقيراً أن يخدم وطنه ،
وليست خدمة الوطن قاصرة على العظماء ، بل ان العظماء لا يكون
لهم أثر كبير ما لم تؤبدعهم الامة ، فالقائد الكبير انما يخبره نتيجة
عمله وعمل الجنود الصغار بل وعمل من صنع للجنود نعماتهم
وملابسهم ونحو ذلك ، والسياسي العظيم لا يصل الى غرضه الا
بمعونة كتّاب يعينونه في فروع من العمل مختلفة ، وأفراد يبذلون
ما يحتاج اليه من المال ، وامة تلي بأجمعها نداءه ، وتسير في الطريق
الذي يخطه لها

الامة كالساعة ، كل آلة لها عمل ، ولا بد من أداء كل آلة عملها لينتظم سيرها وان كان يختلف عمل الآلات أهمية ، وسير هذه الآلات وانتظامها لا تقع عليه العين عادة ، وانما مظهر هذا الانتظام سير العقارب ، فاذا دلت على الاوقات بالضبط دلنا ذلك على أداء كل آلة وظيفتها والا لا ، كذلك الحوادث العظيمة في الامة والنجاح الكبير لها مظهره عظماء الرجال وقواد الجيوش . ولكن ما كان يتم ذلك في الحقيقة لولا أعمال آلاف من الناس لم يعرفهم التاريخ ، فهو لاء الآلاف منزلتهم منزلة آلات الساعة الخفية ، والعظماء بمنزلة عقربي الساعة ، هما مظهران لأعمال عديدة دقيقة ، غير أن الشأن في الساعة أنه إذا تعطلت آلة منها وقفت الساعة جميعاً ، أما في الامة فاذا تعطل أحد أفرادها عن السير حمت الامة عبثه وسارت ، فالجندى في الجيش إذا خر صريعاً سار الجيش وتحمل عبء الجندى ، وكان الاولى للجيش ألا ينخر أحد منه صريعاً وان يحمل كل واحد عبثه فقط

فالفلاح في زرعه الارض وعنايته بالبقرة والغنم ، والنجار في صناعته ، والتاجر يبيعه وشرائه ، والجندى بمحاربتة ، والكناس في الشارع يكمنس الاقدار ، والام تربي بنيتها وتعنى بالبيت وشؤونه والخادمة بتخدمتها ، والاطباء بمحاربتهم الامراض ومعالجتهم المرضى ورجال الحريق باطفائهم النار ، ورجال العلم الذين ينشرون العلم ويحاربون الجهل ، ورجال السياسة الذين ينصرون الحق ويخذلون

الباطل باقوالهم واعمالهم ، والشعراء والموسيقيون وجميع رجال
الفن الذين يمدون الحياة بالسعادة ، ويشعرون الناس بالجمال ، كل
هؤلاء ، يخدمون وطنهم بعملهم ، وكل هذه الاعمال لا بد منها لسير
الامة الى الامام ، وكل هؤلاء اذا ادوا اعمالهم باتقان ولم يراعوا فيها
مصالحهم الشخصية فحسب بل راعوا فيها خيرهم وخير الناس فهم
وطنيون صادقون ، يفخر الوطن بهم ويشرف بعملهم

الفضيلة

الفضيلة هي الخلق الطيب ، وقد قدمنا ان اخلاق هو « عادة
الارادة » فاذا اعتادت الارادة شيئاً طيباً سميت هذه الصفة فضيلة ،
والانسان الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذي اعتاد أن يختار أن
يعمل وفق ما تأمر به الاخلاق ، وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة
والواجب واضحاً ، فالفضيلة صفة نفسية ، والواجب عمل خارجي
وعلى هذا يقال فلان عمل الواجب ولا يقال عمل الفضيلة بل
حاز الفضيلة

وقد تطلق الفضيلة على العمل نفسه ، فيقال « فضائل الاعمال »
وليس يعنى بها كل عمل أخلاقي بل الاعمال العظيمة التي يستحق
فاعلها الثناء الجزيل فلا نسمى دفع ثمن ما اشتري فضيلة ، انما
نسمى الاتيان بالعمل الكبير مع تحمل المشاق في سبيله فضيلة ،
ويشهد لهذا المعنى اشتقاق الكلمة نفسها ، فانها مأخوذة من الفضل

وهو الزيادة - وعلى هذا المعنى تكون « الفضيلة » أخص من

« الواجب »

اختلاف الفضائل : تختلف قيمة الفضائل في الامم اختلافاً

كبيراً ، فلو انا وضعنا لامة قائمة تتضمن الفضائل مرتبة حسب
أهميتها لها لوجدناها تختلف ما يجب أن يوضع لامة أخرى ، ذلك
لان ترتيب الفضائل في كل أمة يجب أن يتبع مركزها الاجتماعي
وظروفها المحيطة بها ، وما يفسد فيها من أمراض أخلاقية وما
اعتورها من أشكال حكومات ونحو ذلك ، فترتيب الفضائل
في الامة المحكومة غيره في الامة الحاكمة ، وفي الامة الآخذة
بخط وافر من المدنية غيره في الامة البدوية ، وفي الامة البحرية
غيره في الامة ساكنة الصحراء وهكذا ، فالامة الحربية ترى
الشجاعة أهم فضيلة والامة الآمنة مطمئنة ترى العدل خير فضيلة
والامة القائمة على الصناعة ترى الامانة والاستقامة عماد الفضائل
وهكذا

ويختلف أيضاً مفهوم الفضيلة الواحدة باختلاف العصور ،

فما كان يفهم من الشجاعة عند اليونان غير ما يفهم منه في العصور
الحديثة ، قد كادوا لا يفهمون منها إلا الصبر على تحمل الآلام الجسمية
واليوم نفهم منها ما هو أعم من ذلك حتى انها تشمل تعبير الانسان
عن رأيه من غير خشية لمن حوله ، والعدل تطوراً مفهوماً تطورات
عديدة حسب تطور الامم في حالتها العقلية والاجتماعية ، وإحسان

الفرد بالتصدق عليه قد كان يعد من أهم الفضائل في القرون الوسطى حتى وضع موضع النقد في العصور الحديثة ، واعترض عليه بأنه لا يميز فيه بين المستحق للاحسان وغير المستحق تمييزاً يوثق به ، وبأنه يشل المحسن اليهم ويقعد بهم عن العمل ، ويميت مافي نفوسهم من شرف وأباء ، واستحسن المحدثون انشاء جمعيات الاحسان يحسن اليها الافراد ، وهي التي تتولى الانفاق على المعوزين بعد أن تدرس حالتهم وتعرف فقرهم . ولا تكتفي هذه الجمعيات بأعداء المائل إلى المحتاجين بل توجد عمالاً لمن لا عمل له ، وتنقذ أولاد الفقراء من آبائهم حتى لا يمشون نشأتهم . ولا يصابون بمرضهم ، فتنشئ لهم المدارس الصناعية وتعلمهم عمالاً عملياً يكتسبون منه أقواتهم ، وقد اهتم كثير من الامم الممدنة بأنشاء هذه الجمعيات وحرمت احسان الفرد للفرد وحضت على احسان الفرد للجمعيات — وهكذا الشأن في كثير من الفضائل قد هذبها رقي العقل وتقدم المدنية

كذلك تختلف قيمة الفضائل باختلاف حالة الافراد وأعمالهم ففضيلة الكرم بالنسبة للفقير ليست من الاهمية بالدرجة التي لها بالنسبة للغني ، ولا الفضائل التي يلزم أن يتصف بها المسن هي بعينها الفضائل التي يتصف بها الشاب ، ولا فضائل المرأة مرتبة ترتيب فضائل الرجل ، ولا فضائل التاجر هي نفسها فضائل العالم وهكذا —

ومن الصعب على الاخلاقي التعمق في التفصيلات وبيان الاختلافات الدقيقة - بين الاشخاص - التي يترتب عليها اختلاف في قيمة الفضائل ، وكل الذي نستطيع أن نقوله أن الناس جميعاً مطالبون بفضائل من صدق وعدل ونحوها يجب أن يتصفوا بها ، وانهم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم يستوون في شيء واحد وهو أن كلا منهم مطالب أن يتصرف بما يناسب حالته ويتفق مع مركزه الاجتماعي وعمله الذي يؤديه وان اختلف تطابق ذلك

أقسام الفضيلة : بعض الفضائل يمكن أن تدخل في فضائل أشمل منها كالامانة فانها تدخل في مفهوم العدل . وكالقناعة فانها تدخل تحت العفة وبعض الفضائل يكون مولداً من فضيلتين أو أكثر كالصبر فانه ينتج من العفة والشجاعة وكالحذر من العفة والحكمة ، فما أصول الفضائل التي هي أساس غيرها ؟

قد ذهب سقراط الى أنه لا فضيلة الا المعرفة « العلم » أي أن علم الانسان بأن الشيء ، خير عاملاً تماماً بحمله حتماً على عمله ، ومعرفة بضرر شيء ، تحمله لا محالة على تركه ، وليس انسان يعمل الشر وهو عالم بنتائجه ، وعلل ذلك بأن كل انسان بطبيعته يقصد الخير لنفسه ويكره لها الشر ، فحال أن يفعل ما يضرها وهو عالم بضرره ، فما يصدر عن انسان من الخطأ انما منشؤه الجهل بالعمل - وعلاج الشرير أن يعلم نتائج الاعمال السيئة التي تصدر عنه ، وتعويد انسان الخير وجعله مصدراً للفضيلة يعلم نتائج الاعمال

الحسنة ، وتوسع في تطبيق نظريته فعنده الانسان اخير هو الذى يعلم ما يجب عليه ، والملك الصالح هو الذى يعرف كيف يحكم الناس حكماً عادلاً وهكذا

وهو محق من جهة أن أساس الفضيلة المعرفة فلا يكون الانسان فاضلاً حتى يعرف الخير ويقصد الى عمله : أما الذى يعمل العمل لا عن علم بخيرته فليس « فاضلاً » ولو كانت نتائج عمله حسنة - ومخطىء ، من جهة أن المعرفة هى كل شىء ، وأنها تستلزم العمل على وفقها لا محالة ، فكثيراً ما نعلم الخير ونتجنبه ونعلم الشر ونأتيه ، فمعرفة الخير ليست كافية فى الحمل على فعله ، بل لا بد ان ينضم اليها ارادة قوية حتى يعمل على وفق ما علم

وكان أفلاطون يرى أن أصول الفضائل أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ، وقد شرحنا ذلك عند الكلام على تاريخ العلم

وهو تقسيم لا يسلم من نقد فان الحكمة اذا فسرت بمعناها الواسع الذى يقتضيه اللفظ شملت جميع الفضائل من شجاعة وعفة وعدل وغيرها فكل شىء لا بد أن يتصف بالحكمة ليكون فاضلاً وعند أرسطو الفضيلة هى عادة اختيار ما يعمل بحكمة وترو والانسان الفاضل هو من كان ذا خلق يجعله يختار - باستمرار - أن يعمل الحق ، ولما كان الحق دائماً عنده وسطاً بين طرفى الافراط والتفريط كان أرسطو يرى أن الفضيلة هى اختيار الوسط بين

الشرين ، والاعمال الفاضلة هي ما كانت وسطاً بين رذيلتين فالشجاعة
وسط بين الجبن والتهور ، والكرم وسط بين السرف والبخل
وهكذا وتسمى هذه النظرية « نظرية الاوساط » وقد بنى عليها
ابن مسكويه في كتابه « تهذيب الاخلاق » وغيره من فلاسفة
العرب كلامهم في الفضيلة وتوسعوا فيما ذهب اليه أرسطو من أن
كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، وقد اعترض على هذه النظرية
بجملة اعتراضات

(١) ان « الوسط » في كلام ارسطو يفهم منه « المنتصف »
وليس ذلك بصحيح ، فليست الفضيلة دائماً في نقطة المنتصف
أعني أنها ليست على بعدين متساويين من الشرين ، فالشجاعة مثلاً
أبعد عن الجبن منها عن التهور ، والكرم أقرب الى نقطة السرف
منه الى نقطة البخل وهكذا

(٢) أن هناك كثيراً من الفضائل ، لا يظهر فيها أنها أوسط
بين رذائل كالصدق والعدل فليس هناك الا كذب أو صدق وعدل
أو ظلم ، وقول ابن مسكويه أن العدل وسط بين الظلم والانظام
لعب بالالفاظ دعاه اليه تصحيح كلام أرسطو ، فليس الانظام
الا أثر الظلم

(٣) ليس لدينا مقياس مضبوط يبين لنا المنتصف بياتاً تاماً
واتبع بعض المحدثين طريقة أخرى في تقسيم الفضائل فقالوا
ان الفضائل إما فضائل شخصية ، وإما فضائل اجتماعية ، وإما فضائل

دينية ، فالاولى تشمل (١) ضبط النفس و (٢) تهذيب النفس ،
فضبط النفس عن الانهماك في اللذائذ هو العفة وضبط النفس عن
الاسترسال في الالم وشدة الخوف منه هو الشجاعة : وتهذيب
النفس أعني حملها على العمل وفق العقل هو الحكمة - والفضائل
الاجتماعية تشمل العدل وهو اداء الحقوق للناس ، و الاحسان وهو
أداء ما يحتاجون اليه فوق حقوقهم - والفضائل الدينية تشمل ما
يلزم الانسان الاتصاف به لخالفه

وقد اعترض على هذا التقسيم أيضاً : بأن (١) الانسان ومجتمعه
ليسا منفصلين ، فما يؤثر في أحدهما يؤثر في الآخر ، واذا كان كذلك
فلا يمكن أن تكون هناك فضائل شخصية محضة ، ولا رذائل
لا يتأثر بها المجتمع ، فالعفة والدعارة والشجاعة والجن تستتبع -
لا محالة - نتائج اجتماعية وأيضاً أن الفضائل الاجتماعية كالعدل
والاحسان منبعثة عن الشخص نفسه

ولكن يمكن أن يقال أن الفضائل الشخصية هي الفضائل
التي تنظم حياة الفرد وتجعل ملكاته وقواه في حالة تعادل ورفق ،
وأما الفضائل الاجتماعية فهي الفضائل التي تجعل الانسان في وفاق
مع من حوله من الناس وترقي شؤونهم ، نعم أن النوعين من
الفضائل يتوقف كل منهما على الآخر - فانه اذا انعدمت الفضائل
الشخصية لا يمكن تحصيل الخير للمجتمع ولا سيره في طريق
رفقيه ولا ايصال الحقوق للناس واذا انعدمت الفضائل الاجتماعية

ساءت أخلاق الفرد ولم يستطع أن يرقى نفسه ترقية تامة ولكن
يمكن التمييز بين النوعين بسهولة وكون كل من النوعين يتوقف
على الآخر لا يخلل بالتقسيم

ومهما يكن من شيء، فإنا لا نستطيع الآن حصر الفضائل
والكلام على كل منها تفصيلاً، لذلك نختار بعض الفضائل الهامة
ونشرحها

الصدق

هو أن يخبر الإنسان بما يعتقد أنه الحق، وليس الاخبار
قاصراً على القول بل قد يكون بالفعل كالأشارة باليد، وهز
الرأس، ونحوهما - وقد يكون بالسكوت من غير قول ولا فعل
فمن ارتكب جريمة ورأى غيره يؤنب على ارتكابها ثم سكت
كان كاذباً

ومن الكذب المبالغة في القول مبالغة تجعل السامع يفهم
أكثر من الحقيقة، كما إذا بالغ انسان في وصف شيء بالعظم
أو الكبر أو الصغر حتى أفهم السامع أكثر من حقيقته
ومن الكذب أن يحذف المتكلم بعض الحقيقة ويذكر بعضها
إذا كان ذكر ما حذف يجعل لما ذكر لوناً خاصاً

وهناك طريقة واحدة للصدق، وهو « أن يقول الانسان
الحق، كل الحق، لا شيء غير الحق »

وانما كان الصدق فضيلة لانه أهم الاسس التي تبنى عليها المجتمعات ولولاه ما بقي مجتمع ، ذلك لانه لا بد للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض ، ومن غير التفاهم لا يمكن أن يتعاونوا ، وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم الذي لا يمكن أن يعيشوا بدونه ، ومعنى الافهام أن يوصل الانسان ما في نفسه من الحقائق الى الآخرين ، وهذا هو الصدق

يتجلى لك ذلك في المجتمعات الصغيرة كالاسرة والمدرسة ، فكلاهما لا يبقى الا بالصدق ، فلو كذب الطلبة في كل ما يتكلمون وكذب عليهم مدرسوهم ما بقيت المدرسة ، وكذلك البيت - واذا كان المجتمع لا يمكن أن يبقى اذا كان كل ما يتكلم فيه كذباً ، كان من الواضح أنه يتضرر بقدر ما فيه من الكذب ، فقد يبقى اذا غلب فيه الصدق على الكذب ، ولكنه يكون فاسداً منحطاً

ويدلك على ضرورة الصدق أن أغلب المعلومات التي وصلت الينا بالسمع أو القراءة مبناها الصدق ، وعليها يعتمد الانسان في معاملاته وتصرفاته ، فلو كانت كذبا لكانت الاعمال المبينة عليها خطأ وضلالاً ، ولما وصل الينا من العلم الاشيء قليل وهو ما يمكننا أن نجربه بأنفسنا ، وهو لا يغني في الحياة

ومن أجل هذا عد الصدق أساساً من أسس الفضائل ، وجعل عنواناً لرقى الامم وانحطاطها

ومما يشاهد في شأن الكذب أن الكذبة الواحدة قد تستوجب عدة كذبات لتغطيتها ، ذلك لأن الكاذب يخلق في الدنيا بكذبه ما لم يكن ، يخلق خيالاً لا يتفق مع الواقع ، وقد يضطره هذا الخيال الذي خلقه أن يكذب كثيراً ليوافق بين الواقع والخيال ولا يزال الانسان يكذب حتى يفقد ثقة الناس به وتصديقهم له حتى فيما هو صادق فيه ، كما روى عن أرسطو انه سئل ما ضرر الكذب قال (ألا يثق الناس بقولك حين تصدق) وكل انسان في هذه الدنيا في حاجة شديدة الى ثقة الناس به ، سواء كان تاجراً أو طبيباً أو مدرساً أو محترفاً حرفياً ، فمن فقد ثقة الناس به فقد حرم خيراً عظيماً

وكما يكذب الانسان على غيره كصاحبه وأخيه يكذب على نفسه ، وكثيراً ما يكون ذلك ، فمن يحاول أن يقنع نفسه بأنه بذل ما في وسعه لاداء ما يجب عليه وهو في الحقيقة لم يفعل ذلك ، وكما يحصل كثيراً من محاولة المرء أن يخلق لنفسه الاعذار عن كسله أو بخله أو قسوته أو جبنه نشأاً لنفسه وخداعاً وصدراً لها عن الحق — وقد يغلو المرء في هذا الامر حتى يصير عادة له وحتى لا يستطيع أن يفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب . ويكون مثله مثل من يطيل الإقامة في الظلام فاذا خرج الى النور فجأة لم يستطع تمييز ما فيه ، وهناك أنواع من الكذب قد وضعت لها أسماء خاصة :

كالنفاق ، وهو أن يظهر الانسان غير ما يبطن ، اشتقته العرب من النافقء ، وهو احدى حَجَرَةِ اليربوع ، يكتمها ويظهر غيرها ليلجأ اليها عند الحاجة ، ومن هذا سمي الرجل الذي يظهر الايمان ويبطن الكفر منافقاً ، فهو كاذب عملياً ، ومن هذا النوع أيضاً من يظهر الصداقة ويبطن العداة ، وكلُّ من يظهر بمظهر ينافي حقيقته منافق مذموم

وكلما لُقِّ أو التماق . وهو أن تمدح آخر بما لاتعتقده فيه لتدخل على قلبه السرور رجاء أن تنال منه منفعة أو نحو ذلك وضد النفاق والملق الصراحة . وهي أن تفتح قلوبنا لمن نخاطبهم وأن نصدق في التعبير عما تكنه ضمائرنا - والكلمة مأخوذة من قولهم « ابن صريح » اذا ذهبت رغوته وكان خالصاً ، فالصريح من الناس من يخلص من الغش ، ويظهر لمن يحدثه حقيقة ما في نفسه - وقد يخطئ قوم في فهم الصراحة فيظنون أنها تقتضى أن يقول الانسان كل حق لكل انسان . وهذا ليس بصحيح فهناك مجال للمقول ومجال للسكوت . وليس من الصراحة أن تجرح احساس الناس وتؤلم مشاعرهم من غير حاجة تدعو إلى ذلك . أو أن يحدث الطيب الناس بامراض من يعالجهم من الأسر ويسمهم اذا كان ذكر ذلك يسيئهم ، كما انه ليس من الصراحة

أن تفخر بأعمالك أو تفتشى ما تعرفه من أسرار نفسك أو بيتك
أو جيرانك أو أصدقائك ولو كان ما تحدث به حقاً ، وإنما الصراحة
أن تقول — إذا قلت — الا الحق ، ولكن لا تقوله الا لمن له
الحق أن يعرفه

ومن ضروب الكذب المقوت « خلف الوعد » فمن وعد
آخر وعداً وفي نيته عند وعده ألا يفي فقد كذب ، وكذلك من
كان في نيته الوفاء ثم أخلف لا لعذر أو لعذر يستدعي التغلب
عليه ، في خلف الوعد اضرار بالموعود كإضاعة وقته أو إيجاد أمل
كاذب عنده أو نحو ذلك — والوعد دين فكلما يجب وفاء الديون
يجب وفاء الوعود ، ويجب الاقتصاد فيها حتى لا يعد الانسان
وعداً الا وفي عزمه أن يعمل ، وفي استطاعته أن يفي

ولا يحق للانسان بحال من الاحوال أن يفتح على نفسه باب
الكذب ، بل ينبغي أن يلتزم الصدق في جميع أقواله وأعماله —
واسننا ننكر أن التزام الانسان الصدق في كل ما يقول ويفعل
يستلزم مشقة كبيرة ، ويحتاج إلى عناء ورياضة نفس وصبر
وشجاعة . ذلك لانه يعرض للانسان في حياته اليومية مسائل
دقيقة يرى فيها قصار النظر أن الكذب أنفع وانه لا مفر منه ،
ونحن نورد لك أمثلة من أقوالها ونبين حججهم في الكذب ثم
نبين وجه الخطأ فيها

(١) ناشي ابتداءً يتعلم فن الشعر ، عرض عليك قسيده له

لم تستحسنها . فهل تصدق وتقول انها قصيدة سقيمة المعاني ظاهر فيها التكلف ، سخيفة النسج ، وحينئذ تكون قد آلمته وجبته وقد يكون قولك سبباً في تركه الشعر مع انه لو شجع لكان بعد شاعراً مجيداً ، أو خير أن تكذب وتقول انها قصيدة جميلة ، فتدخل على قلبه السرور ، وتشجعه على السير في طريقه حتى يبلغ غايته ؟

والجواب أن هنالك مندوحة عن الكذب فان المسئول اذا كان لا يجيد الشعر ، ولا يستطيع الحكم عليه يمكنه أن يقول بحق « لست من الشعر بالمنزلة التي تخول لي الحكم » ، فان كان يجيده أو يستطيع أن يميز بين جيده ورديته فليستحسن من الأبيات ما هو حسن في نظره ، ولينتقد بلطف وأدب مواضع النقد عنده ، ويرشده إلى طريقة التخلص من عيوبه ، فهذا صدق لا يؤلم ، وفيه من الفائدة ما ليس للمدح الصرف الكاذب ، انما يؤلم النفس احتقار الشيء جملة ، أو أن يقال الصدق بخشونة وفظاظة ، أما النقد النظيف المؤدب فأشبهى إلي نفس طالب الحقيقة من القول الكاذب المزوق

(٢) الكذب في الحروب ، فقد ترى أمة محاربة لأخرى أن تكذب عليها للايقاع بها كأن تقول انها سنهاجها من جهة لا تريد لها ، أو تشرع بالفعل في الهجوم من ناحية وفي عزها الهجوم من ناحية أخرى تريد بذلك التعمية عليها ؛ فهل يصح أن نلزمها

الصدق فنضيق عليها النصر مع أن الحرب خدعة؟
والجواب أن الكذب في الحروب ليس كذبا في الحقيقة لأن
الأمة بأعلانها الحرب على أمة أخرى قد أعلنتها بان لا تقام
بينهما، وحيث لا تقام لا كذب، لأن معنى إعلانها الحرب أنها
ستفعل معها ما تستطيع من الإيقاع بها ولو بالخدعة، فثلها مثل
من قال لاخر « سأقص عليك خبراً كاذباً » ثم قصه عليه فليس
هذا بكذب لأنه لم يخبره بغير ما يعتقد، فان اعتقد السامع صدق
الخبر فاللوم عليه

(٣) وأدق من هذا وأصعب ما يحدث كثيراً، يكون لامرأة
ولد مرض بالسل مثلاً وهي التي تُعرضه وتعنى بشؤونها وكان قد مرض
لها ولد من قبل بذلك المرض ومات منه، استدعت الطيب
ففحصه وعرف مرضه فسألته هل هو مصاب بالسل؟ سألته وهي
مرتبكة مرتجفة تخشى أن يكون الجواب نعم. أفليس من الحكمة
أن يقول الطيب أنها نزلة شعبية حتى تسترد قوتها وتعنى بالولد
وهو في أشد الحاجة الى عنايتها، أو يقول الحق فتفقد قواها
وترتبك في تريض الولد فيثقل المرض عليه وقد يؤدي ذلك إلى
موته؟

أن الناظر اذا قصر نظره على هذه الحادثة في وقتها رأى أن
الكذب قد يكون واجباً ولكنه اذا وسع نظره رأى أن الولد قد
يبرأ من مرضه وتعلم الأم أن مرضه كان السل لا النزلة الشعبية

وأن الطيب قد كذب عليها رحمة بها فاذا مرض الولد ثانية وسألت
الطيب فلا تثق بقوله مهما أكد لها أن المرض ليس سلا ، ولو
كان في الحقيقة كذلك ، ولو علم الناس أن الاطباء جميعاً يتبعون
هذه الطريقة لفقدوا الثقة بهم ، فهذا الكذب قد أضاع معاني
اللغة ، وأزال الثقة بين الناس . وينبغي للانسان عند الحكم على
شيء أن يوسع نظره يرى ما يترتب عليه من الاضرار في المستقبل
القريب والبعيد ، ومع هذا فانا نوجب على الطيب أن يتخير
الإلفاظ التي يستعملها لإداء الخبر . وأن يفتح على المريض وأهله
باب الأمل بالقدر الذي يعتقد ولكن لا يحميد عن الصدق

على انه اذا كان الصدق قد يودي بحياة بعض الأفراد .
والكذب ينجيهم — وان كنا لم نعثر في حياتنا اليومية على شيء
من هذا — فلم لانضحى هذه الأنفس القليلة في سبيل الحق ،
وفي سبيل المحافظة على معاني اللغة وثقة الناس بعضهم ببعض ،
وهي كلها ركن عظيم من أركان العمران ؟ اذا كان من الصواب أن
نضحى آلاف النفوس للمحافظة على مملكة ، أفلا يكون من
الحق أن نضحى نفوساً معدودة ونتحمل اضراراً محدودة للمحافظة
على الحق ؟

فلندع هذا النوع من الجدل ، ولنلزم أنفسنا بقول الحق كل
الحق في كل حال

الشجاعة

الشجاعة مواجهة الألم أو الخطر عند الحاجة بثبات ، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس ، فالذي يرى النتائج ويخاف من وقوعها ثم يواجهها بثبات رجل شجاع ، ومادام الانسان يعمل في موقفه خير ما يعمل فهو شجاع ، فالقائد الذي يقف في خط النار فيرتعش ويخاف أن ينزل به الموت ثم يضبط نفسه ويؤدى عمله كما ينبغي قائد شجاع ، بل هو شجاع أيضاً اذا رأى أن خير عمل يعمله أن يتجنب الخطر ، وأن الواجب يقضى عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر ، فان هو أضعاف في موقفه رشده ، أو ترك موقفاً يجب أن يقفه ، أو فرّ بجنوده من خطر كان عليه أن يواجهه فهو جبان

فليست الشجاعة تعتمد على الاقدام أو الاحجام ، ولا على الخوف وعدمه انما تعتمد على ضبط النفس وعمل ما ينبغي ، فان ضبط الشخص نفسه وعمل ما يجب أن يعمل في مثل موقفه رغم خطر أمامه ورغم ما يشعر به من خوف فهو شجاع والا فلا وليس بالمحمود أن يتجرد الانسان من كل خوف فقد يكون الخوف فضيلة وعدمه رذيلة ، فالخوف عند امضاء عقد سياسى مثلاً أو انهاء أمر خطير فضيلة ، إذ هو يحمله على الروية حتى يختم رأيه ، وفضيلة أن يخاف الانسان من ثم عرضه وشرفه ، فليس

بشجاع من يدخل الحانة ويشرب جهاراً أو يقامر على ملأ من
الناس غير هيب ولا وجل فذلك ضعف في الشعور لا شجاعة
انما الجبن المذموم والخوف المرذول أن يبالغ الانسان
في الخوف أو يهول في الشيء المخوف، فمثلا كل انسان عرضة
لكلب كلب يعضه أو سلك ترام يصعقه، أو سيارة أو قطار يدهمه
أو نار أشب في بيته أو مكروب ينال منه، كل هذه أشياء تخيف
ولكن الجبان يبالغ في الخوف منها ويخشى جد الخشية من
وقوعها ثم يحمله خوفه على اجتناب العمل، فلا يركب مركباً مثلاً
خوف أن يفرق به، ولا يرحل عن وطنه اذا لم يجد عملاً خوف
أن يدركه الموت ولكن الشجاع لا يفكر كثيراً في احتمال
الشر ثم اذا وقع لم يطر قلبه شعاعاً، بل يصبر له ويتحملة بثبات
ان مرض لا يضاعف مرضه بوهمه، وإذا نزل به مكروه قابله
بجأش رباط يخفف من شدته، وبالجملة فالشجاع ليس بالتهور
الطائش الذي لا يخاف مما ينبغي أن يخاف منه، ولا بالجبان الذي
يخاف مما لا يخاف منه

وليست الشجاعة قاصرة على حمل السلاح ومشاهدة الحروب
بل ان كثيراً من الاعمال اليومية يحتاج الى شجاعة لاتقل عن
شجاعة الجنود، فرجال المطافي، والاطباء وعمال المناجم وصيادو
الاسماك في البحار عند اشتداد الرياح وتلاطم الامواج والممرضات
اللاتى يتعرضن للاخطار بتمريض المصابين بالامراض المعدية

وربانو السفن البخارية ، كل هؤلاء ، وأمثالهم شجعان يتحملون
الاطخار كما يتحمل الجنود ، ويقابلون الشدائد بصبر وثبات
ومن أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشدائد
فشجاع من اذا عراه خطب لم يذهب برشده بل يقابله برزاة
وثبات ويتصرف فيه بذهن حاضر وعقل غير مشتت ، قد يرى
انسان ناراً تلتهم بيته أو لصاً يغشي منزله أو قطاراً يكاد يهشم رجلا
أو سفينة أشرفت على الغرق فان فقد رشده وضاع صوابه وحار
طرفه ودله عقله ولم يدر ماذا يفعل كان جباناً ، وان هو ملك نفسه
وثبت قلبه وتصرف في الامر على أحسن وجه كان شجاعاً حقاً
كالذي حكى عن عبد الملك بن مروان : أنه في يوم واحد خبر
مقتل ابن زياد وهزيمة جيشه ودخول ابن الزبير فلسطين وثوران
ثورة في دمشق ومسير ملك الروم الى الشام فارتزع ولاطاش
وقد رؤى في هذا اليوم ثابت الجنان غير مقطب الوجه ، ثم شغل
ملك الروم بمال يؤديه اليه ، ووجه جيشاً الى فلسطين فاستردها
وسار إلى دمشق فأسكن فتنها

الشجاعة الادبية : لما تقدم الناس في المدنية لم يكونوا
في حاجة كبرى الى الشجاعة والبدنية كما كانوا يحتاجون اليها أيام
بداوتهم ، فظهر للشجاعة معنى جديد يسمونه الشجاعة الادبية
يعنون بها أن يبدي الانسان رأيه وما يعتقد أنه الحق مهما ظن
الناس به أو تقولوا عليه ، ومهما جر ذلك عليه من غضب عظيم

أو أمير ، لا يخاف من تحمل ألم يصيبه في سبيل قول حق يقوله
أو مبدأ هام ينشره، فلو رأى في مسألة غير ما يراه علماء وقته
أو من حوله من الناس أو خالف حاكماً أو عظيماً جاهر برأيه غاضباً
عما يناله من الأذى ، يقول الحق بأدب وان تألم منه الناس ، ويعترف
بالخطأ وإن نالته عقوبة ، ويرفض العمل بما يراه صواباً ولو لم يقع
رفضه موقعاً حسناً

والتاريخ مملوء بكثير من الناس ضحوا أموالهم وأنفسهم
في سبيل قول الحق ونصرته ، وصبروا على الآلام عشقاً للحق
وهياماً به ، واستعدوا بطعم الرزق يا تنزل بهم ، لانهم يحبون الحق أكثر
مما يحبون أنفسهم ، ومنهم الانبياء والمرسلون والشهداء ونوابغ
العلماء ، فقد أودوا في الحق فتحملوا الأذى وباعوا أنفسهم وأموالهم
مرضاة له ، كالذي حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد
جاء اليه عمه أبو طالب ينصحه بالعدول عن دعوة الناس فقال له :
« يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على
أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته »

ومن هؤلاء سقراط الفيلسوف اليوناني قد علم شبان أثينا
ما وصل اليه علمه وبذل جهده في تثقيف عقولهم فلما بلغ سن
السبعين اتهم بأنه يجحد آلهة اليونان ويضل الشبان فحكم عليه
بالاعدام « ٣٩٩ ق م » وكان في استطاعته أن ينجو بنفسه اذا هو

تعهد أن ينقطع عن التعليم ولكنه أصر على قول الحق وأصاح نفسه
وفي تاريخ العرب كثير من أمثال ذلك فابن رشد الفيلسوف
الشهير المتوفى سنة ٥٩٥ هـ اضطره من أجل اشتغاله بالفلسفة
وسجن ونفى فلم يعبأ بذلك كله

وابن تيمية أحد الفقهاء المشهورين المتوفى سنة ٧٢٨ هـ أداه
اجتهاده الى مخالفة فقهاء عصره في بعض المسائل فوشوا به إلى
السلطان فسجنه فظل يكتب الرسائل في سجنه يؤيد بهامذهبه
ويدحض بها حجج معارضيه

وفي العصور الحديثة لولا أن قوماً من العلماء ضحوا كثيراً
في قول الحق ما تقدم العلم والمدنية الى الحد الذي نراه في جاليليو
الفلكي الايطالي (١٥٦٤ - ١٦٤٢ م) اخترع التلسكوب فرأى
به أن المجرة ليست الانجوماً عديدة، وان في القمر جبالاتاً وودياناً
كأني في الارض ورأى به كلف الشمس، وكان يعلم أن الارض
تدور حول الشمس مخالفاً لتعاليم بطليموس القائلة بان الارض هي
مركز الكون، فاضطره من أجل ذلك بعض القسيسين
وأمره بالكف عن تعاليمه فلم يستطع الصبر عن الحق فاخذ وسجن
وعذب كثيراً من أجل تعاليم يعرفها كل تلاميذ المدارس اليوم
ودارون الفيلسوف الانجليزي (١٨٠٩ - ١٨٨٢) لم يعذب
كما عذب من قبله بسجن أو نفى أو قتل ولكنه عذب بالانتقاد
المر من رجال عصره فتحمله، وأبان الطريقة التي اتبعها النبات

والحيوان في نشوئه وارتقائه ولم يقعد به ضعف صحته عن البحث وراء الحقيقة فكان رغباً عن مرضه وألمه يجرى التجارب ويجتهد أن يتعلم دائماً أشياء جديدة عن الدنيا التي يعيش فيها

وكامبياً نلاً الفيلسوف الايطالى (١٥٦٨ - ١٦٣٩) قد أغضب بعض القسيسين والامراء بتعاليمه الجديدة ، فقد كان يقول أننا نستطيع أن نتعلم من امتحان الاشياء التي حولنا كالاشجار والازهار والجبال والانهار أكثر مما نتعلمه من كتب الفلاسفة القدماء أمثال ارسطو ، وكان يقول أن هناك نظاماً من الحكومة خيراً من النظام الحاضر الذي يستبد فيه الامراء والحكام بالشعب وقد سجن من أجل أقواله هذه وعذب عذاباً شديداً واستمر في الحبس خمساً وعشرين سنة ثم أفرج عنه

فواجب أن نقف بأزاء الحق نصرح به وندافع عنه ونتعشقه وتحمل الآلام في سبيله ونتخذ من ذكرنا مثلاً صالحاً في حياتنا ومن هذا النوع من الشجعان من يهجر لذته وراحته ويتحمل الألم لخير الناس وإسعادهم ، كمن يرى مرضاً اجتماعياً في أمته فيخصص حياته لدراسته ومعرفة أسبابه ثم يتحمل المتاعب في سبيل إصلاحه ، كأن يرى الاطفال الذين لم يتجاوزوا العاشرة يعملون في المعامل ساعات طويلة في أماكن غير صحية بأجر قليل لا يرحمهم ولا يشفق عليهم أصحاب المعامل ورءوس الاموال فيشبون ضعفاء جهلاء يقسون على من دونهم كما قسى عليهم ، أو يرى

أولاد الشوارع ينشئون ولا علم ولا عمل فيكونون بعد مجرمين
يعبثون بالامن ويعثون في الارض فسادا، أو يرى فقراء يألمون
في الحياة آلاماً جسيمة، يقضون أطول زمن في العمل وينالون
أقل أجر، تشتد مزاحمتهم على العمل ويخضعون لنظم شاقة،
يسكنون مساكن غير صحية وهم مع ذلك يستأجرونها بأجرة
باهظة إذا قيست بمساكن الاوساط والاغنياء، أثمان طعامهم
ووقودهم وحاجاتهم أغلى مما يدفعه الاغنياء، لانهم مضطرون إلى
شراء كميات قليلة في أوقات يقل فيها الصنف، تكثر بينهم الامراض
والوفيات، ويشتد بهم الضيق بمجرد قعودهم عن العمل لانهم لم
يستطيعوا أن يوفرُوا شيئاً من أجورهم وقت عملهم، بيوتهم
وحاراتهم تشتمز منها النفس قذارة، اضطرهم الفقر الى الازدحام
في الحجرة الواحدة مع ما يفسو فيهم من الامراض، تنشأ بينهم
أبناؤهم وبناتهم فيجدون حولهم جوأخائفاً، سكر وعربدة وتسول
ومسكنة وكذب جر اليها الفقر وسوء الحال فيخضعون لذلك
مضطرين ويسيرون سير آبائهم وهم في ذلك مجبرون لا مخيرون
فمن رأى شيئاً من ذلك أو نحوه من الامراض فخصص
حياته لمعالجته، وضحى بكثير من مصلحته لمصاحبة أمته، وصبر
على ما يناله من الشدائد، وتغلب على ما يصادفه من العقبات كان
أشجع من جندي في خط النار

علاج الجنين: الشجاعة والجنين ونحوها من الفضائل والردائل

تعتمد على الوراثة والتربية معاً ، فنحن نرث من آبائنا شجاعتهم أو جبنهم ، ولكن يجب ألا ننسى أن للتربية أثراً كبيراً فهي إذا كانت صالحة زادت الشجاع شجاعة وقلت من جبن الجبان وإذا عولج الجبان علاجاً ناجعاً فقد يبرأ من مرضه ، وليس للجين علاج واحد بل ينبغي أن ينظر الى سببه ثم يتخذله العلاج اللائق به ، شأن جميع الادواء ، فقد يكون سببه الجهل بالشيء ، فالعلاج إذا العلم به كالذي يرى شبحاً في الظلام فينزع عجز منه وترتعد فرائضه فاذا علم أنه حجر أو متاع أنس به وزال خوفه ، ومن هذا النوع أكثر ما يخيف في الظلام من عفاريت ونحوها

ويتصل بهذا عدم الالف فكثيراً ما يكون سبب الجبن فالانسان اذا لم ير الشيء ويألفه يجبن أمامه كالطالب لم يتعود الخطابة فان حاولها تهدهج صوته وجف ريقه وارتعشت أطرافه ومن لم يتعود غشيان المجالس ومخالطة الناس يخاف منهم ويلجئه الجبن الى حب العزلة ، فان هو اضطر يوماً الى الاجتماع بهم علاه الخجل واضطربت حركته وزاد ارتباكاً ، وثقل على الناس وثقلوا عليه ، وعلاج هذا الالف والتعود ، فلا يزال الرجل يتكلف الخطابة حتى يصير خطيباً والجرأة حتى يصير جريئاً

ومما يفيد في هذا الباب أن يفرض وقوع النتائج التي تكون ان وقع المكروه ثم يهونها على نفسه ، فلو تصور أنه خطب فلم يجد وانتقده السامعون ثم صغر هذه النتيجة وهونها تشجع ولم

يجبن ، ولو قرر الاطباء أن تعمل له عملية جراحية فقدر الموت
واستصغره قابل العملية بثبات وهكذا

ومن العلاج أن ينظر الى نتائج كل من الجبن والشجاعة فاذا
ظهر له أن ما يصل اليه من الخير اذا هو اشجع أكبر مما يصل اليه
من الجبن استحثه ذلك على الشجاعة ، فن جبن عن أن يرحل
عن بلده لطلب رزق أو علم فلينظر ير أن من المحتمل أن
يصيبه مرض في رحلته أو يموت في غربته ولكن من
المؤكد أنه ان لم يرحل ضاق رزقه أو قل علمه وكان جباناً حتماً ،
فان ذلك النظر قد يحمله على أن يكون شجاعاً ، لا سيما ان علم
أن ليست الحياة أن ينبض قلبه ويأكل في اليوم ثلاثاً انما الحياة
أن يعمل وينفع ويستفيد ويفيد

تذكر وقت جنبك سير الابطال وأكثر من مطالعة تاريخ
حياتهم تستشعر الشجاعة وتمتلي ، حماسه ، وتحس بقوة تدفعك
الى العمل على مثالهم ، والسير في طريقهم

ويجب أن يتجنب الولدان مع الطفل ما يخيفه فلا يدكر ان
أمامه أحاديث الجن والعفاريت والمخلوقات الفظيعة ، فان ذلك
يتأصل في نفوسهم ويضعف من قلوبهم فيشبهون وهم يخافون من
ظلمهم ومن وحدتهم ولا ينمحي ذلك تماماً مهما أوتوا بعد ذلك
من عقل وعلم

ضبط النفس

أو العفة

ضبط النفس - أو العفة باوسع معانيها - هو اعتدال الميل الى اللذائذ وخضوعه لحكم العقل ، وليس ذلك قاصراً على اللذائذ الجسمية بل يشمل أيضاً اللذات النفسية كالانفعالات والعواطف ، فلا يسمى الشخص « ضابطاً لنفسه » الا اذا اعتدل في لذاته الجسمية من مأكل ونحوه ، واعتدل أيضاً في انفعالاته فلم يغضب لأي داع ، ولم يندفع في السير وراء عواطفه كأن يحزن حينئذ شديداً الى وطنه اذا نزح عنه أو يفرط في حزن لفقده عزيز عليه ، وكثير من الرذائل يرجع سببه الى عدم القدرة على ضبط النفس كالشراهة والدعارة والطمع والاسراف والغضب والسخط والثرثرة والادمان تتضمن هذه الفضيلة أن يكون الانسان سيداً لنفسه لا عبداً لشهوات تسيره كما تشاء

والناس ازاء اللذات اصناف فمنهم من ذهب الى الزهد ووقع الشهوات وقالوا « ان شهوات النفس غير متناهية فاذا اعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها ، فيصير الانسان أسير شهوات لا تنقضي وعبد هوى لا ينتهي . ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ، ولم يوجد فيه فضل (١) » - هؤلاء

يرون أن أرقى أنواع الحياة الاخلاقية محاربة الشهوات فلا يتزوجون
- مثلا - ولا يأكلون اللحوم، ويعتزلون الناس جهدهم ولا يمكنون
النفس من مأكل أنيق أو مقعد وثير أو ملبس جميل، وقد شنع
« سنسكا » على من يشرب الماء مثلجا في أيام الحر وقال « قد انتزع
الترف من القلوب ما كان بها من موارد الشفقة وأسباب العطف
حتى صارت أشد بردا وقسوة من التاج والجليد » - وبالغ بعض
الزهاد فلم يكتف بقمع الشهوات بل تعداها الى تعذيب النفس
باليام في الشمس في أشد ساعات الحر والتمرغ على الرخام في الشتاء
وهكذا، وهذا مذهب أكثر المعتنقين له من الناقين على الحياة،
المتشامخين من كل شئ، في الوجود: المصابين بفقر الدم، الذين ضعفت
شهواتهم لضعف جسمهم - وقد يرى هذا الرأي أيضا من قويت
صحته وكل جسمه واشتدت شهواته ولكن كانت ارادته أشد
وسلطانه على نفسه أقوى - وأقوى ما يكون ذلك اذا أتى من
ناحية الدين

والزاهد في الحقيقة ليس يرفض اللذة لانها لذة بل هو يرفضها
للذة أخري أكبر منها في نظره

والزاهدون أنواع - فمنهم من يرفض أن ينعم في الحياة
بالمأكل الشهي ونحوه لانه يرى أن الاستمرار في طلب اللذائد
يسبب آلاما فتصبح النفس شرهة، أطعما كثيرة وآمالها واسعة،
وكما نالت منها الكثير طمعت فيما هو أكثر منه، ثم هي تتألم

الآلام الشديدة لما حرمت ، وتتجرع مع ما تنال غضصا من
الآلام ، أصف إلى ذلك أن كثرة التمتع باللذة يفقدها قيمتها ، فمن
يأكل كل يوم أكلا شهياً يصبح بعد مدة وهذا النوع من الأكل
عنده عادي حتى تكون مقدار لذته منه تعادل لذته من قنع بالقليل ،
يرى هؤلاء ، أن شعور الإنسان بأنه قادر على حرمان نفسه يرفعه
فوق حوادث الزمان ويجعله يرى أن لا قدرة للحوادث ولا الدهر
على إخضاعه وهذا الشعور يحرر الإنسان من ربة الخوف -
وهو شعور فيه من اللذة ما ليس في الم لذات الجسمية - فهم في
الحقيقة يفرون من لذة اللذة أخرى أكبر منها ، هي لذة الراحة
والطمأنينة وعلو النفس

هؤلاء ، نظروا شخصاً أكثر منه اجتماعياً فهم يبغون لذة
أنفسهم ، غاية الأمر أنهم وجدوها في الراحة وعدم الانغماس في
الشهوات

ومن الزاهدين نوع آخر أرقى من هؤلاء ، زهدوا في اللذات
لأن ذلك وسيلة إلى إسعاد الناس وراحتهم ، كما فعل عمر بن الخطاب
لم يشأ أن يتمتع بنفسه بالم لذات لأنه رأى أنه إن فعل ذلك توسع
الولاية ومن يبدع أمر الأمة في البذخ والنعيم حتى يزهقوا الرعية ،
فزهدهم يسعد الناس ، ومن هذا الصنف كثير من المصلحين والعلماء
الباحثين يهجرون راحتهم ليستكشفوا ما يوفر الراحة على الناس

وهؤلاء، - أيضاً - في الحقيقة لم يضحوا لذتهم بل هم من صنف راق يجدون - في شعورهم بانهم مصدر لاسعاد الناس - لذة قلما تعادلها لذة

ومن الزهاد صنف يتزهد تدينا، يتقربون الى الله بالامتناع عن التمتع بملذات الحياة - وهؤلاء نقول، ان الله تعالى شرع الشرائع لاسعاد الناس وقد رضى عن اتباعها لانه عمل لاسعادهم فمن هجر لذته هو في عمل صالح يرضى الله وبعبارة أخرى يسعد الناس كان عمله مقبولا وكان من الصنف الثاني ولكن من ظن أن الله يرضى عن الزهد لانه زهد فقد أخطأ لانه تعالى لم يجعل تعذيب النفوس سبيلا لرضاه، وماذا ينال الله والناس ممن انقطع للعبادة وزهد في الحياة؟ مدح رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بانه يقوم الليل ويصوم النهار ولا ينقطع عن العبادة فقال رسول الله فمن يقوم يشأه؟ قالوا كلنا قال « كما خير منه » - وحقا ليس يصح لاحد أن يستحل أن يأكل من عمل الناس ولا يعمل هو في الحياة للناس شيئا. انما يرضى الله عن هجر لذته لیسعد قومه، وليس من العقل تحمل الالم لانه ألم كما قال جون ستورت ميل « ان من النبيل والشرف أن يكون الانسان قادراً على التخلي عن نصيبه من السعادة ولكن هذه التضحية لا بد أن تكون لغاية، لانها ليست غاية لنفسها، ولا يمكن أن يتحمل البطل أو الزاهد هذه التضحية الا اذا اعتقد انها توفر على من عداه تضحية مثلهاء،

ان كل الشرف الذى يناله من يحرمون أنفسهم لذات الحياة انما يكون اذا كان هذا الحرمان سبباً لتمتع الآخرين ، أما من يحرم نفسه لأى سبب آخر فلا يستحق شيئاً من الاحترام - نعم يمكن أن يكون عمله دليلاً على مبلغ قدرته وقوة ارادته ولكنه لا يكون مثالا لما ينبغى أن يعمل «^(١)



ومن الناس من يرى - على العكس من هؤلاء الزهاد - أن يطلق لنفسه العنان ويمكنها من كل ملذات الحياة - يرون أن الانسان في هذه الحياة انما خلق ليتنعم ، ولم يمنح العقل الا ليبحث له عن وسائل النعيم ، فهو لذلك يعب اللذائذ عبا ويهتمك فيها ما استطاع - وهذا ضار بالفرد وبالجموع معاً ، فلو أبحنا لكل فرد أن يتلذذ كما يشاء ما انتظم شأن مجتمع ، ولتعارضت شهوات الافراد وكانت الفوضى المطلقة ، وان جمعية أفرادها ليسوا أعفاء أعنى أنه لا تحكهم الا شهواتهم الحسية لتحمل معها بذور الانحلال والانحطاط

وفضيلة العفة تتطلب من الانسان القصد في اللذائذ فان هو أفرط فانهمك في شهواته أو فرط فاماتها وبالغ في الزهد فقد حداد عن سواء السبيل ، خير طريق في الحياة أن ينيل الانسان نفسه ملذاتها الطيبة ويعطيها مشتهياتها ما لم تخرج عن حدود الاخلاق

(١) جون ستووت ميل في رسالته مذهب النفعة باختصار

فذلك ادعى الى نشاطها، وأقرب إلى طبيعتها، انما يجب الا تتجاوز الحدود المشروعة، ففي داخلها من اللذات ما هو أضمن لسعادة الفرد والمجموع « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » وكثيراً ما يكون من المصاحبة أن يمنع الانسان نفسه مما لا بأس به حذراً مما به بأس كالذي حكى عن بعضهم انه أشعل لفاقة فاحس منها بلذة شديدة . فكان ذلك حاملاً له على ألا يدخن ، وبسبب ذلك - على ما يظهر - انه تخوف من غوار الرغبة في التدخين وخشى شدة تسيطر العادة عليه فيما بعد، وكان احساسه اللذة علامة هذا الخطر فتركه

وزردد هنا مبدأ الاستاذ جيمس القائل بانه يجب أن نحافظ على قوة المقاومة وتبرع بعمل صغير كل يوم لا لسبب الا مخالفة النفس والهوى ، فان ذلك يعيننا على مقاومة المصائب اذا حان حينها . فليس يقتضى ضبط النفس القضاء على الرغبات والشهوات وانما يقتضى تهذيبها واعتدالها وجعلها خاضعة لحكم العقل ، ففي القضاء على الشهوات قضاء على الشخص وعلى النوع وفي اعتدالها سعادتهما جميعاً

أهم أنواع ضبط النفس -

(١) ضبط النفس عن الغضب ، فمذموم أن يكون الانسان سرب الغضب ، يخرج عن عقله للكلمة الصغيرة والسبب الحقير

وليس الغضب باخطأ دائماً ، فهناك حالات يمدح فيها ، فلو رأيت شاباً يعذب صغيراً لم يجن جنابة أو ضعيفاً لا يستحق عذاباً أو حيواناً لا حول له ولا حيلة فحق أن تغضب ، كذلك طبيعي أن يغضب الانسان اذا عومل معاملة لا تتفق مع شرفه أو نحو ذلك ، فلا بد له من الغضب ليدراً عن نفسه أو غيره الظلم ولكن هذه الحالات قليلة اذا قيست بغيرها من حالات الغضب ، فأكثر حالاته رذيلة مذمومة ولذلك عد رذيلة وعد ضبط النفس عنه فضيلة

وأكثر ما يدفع الانسان إلى الغضب أثره ووجهه الشديد لنفسه وكثرة التفكير في حقوقه ، فيتخيل في ما لا يغضب احتقاراً له ونيلا منه ، وكثيراً ما يستسلم لغضبه فلا يعي ما يقول ولا يعقل ما يفعل ويظن انه بذلك يظهر بمظهر المحترم لنفسه المحافظ على كرامتها وهو انما يظهر بمظهر الطائش الاحمق

والانسان في غضبه حاكم غير منصف ، يبالغ في الشيء ، ويسوئه فهو كواضع على عينيه منظاراً يكبر ويشوه ، وهو لا يرى وقت غضبه الا الاغلاط ولذلك تراه يحكم حتى على أعز الناس عليه حكماً قاسية والواجب أن تترث ونسائل أنفسنا ، هل نحن محقون في غضبنا؟ أو ليس لما عمل أو قيل محل حسن؟ هل الشيء ، يغضب حقيقة بالقدر الذي أرى ؟ أو ليس ان أغضبني حسنات كثيرة بجانب هذه الاساءة ؟

واجب الأنتسليم للغضب، وان نسلم زمام انفعالنا لعقلنا
(٢) ضبط النفس عن الاسترسال في الاقباض والسخط لان
ذلك يكدر صفو الحياة - وقى الناس كثير من هؤلاء المتشائمين
الساخطين Pessimists الذين يرون أن لأسوأ من هذا العالم وان
لذائده لا تكاد تذكر بجانب الآمه وحامل لواء هذا المذهب في العصور
الحديثة « شوبنهور » الفيلسوف الالماني (١٧٨٨ - ١٨٦٠) -
كان يرى أن حياة الانسان سلسلة آلام ونزاع وكفاح وان هذا
العالم أسوأ ما يكون ، فيه من الآلام والشورور أكثر مما فيه من
اللذائذ - وان النجاة منه تكون (١) بالحياة حياة عقلية صافية
(٢) وبالتغلب على حب الحياة لا بالانتحار ولكن بالزهد وبقمع
الشهوات البدنية

وأغلب ما يكون هذا النظر عند من ضعفت صحتهم أو
سأمت أعصابهم أو توالى عليهم المصائب من موت أو فقر أو
نحوهما فتظلم الدنيا في أعينهم ولا يرون فيها الا ما يؤلم ، أحب الشعر
اليهم أمثال شعر أبي العلاء ، وخير نغمات الموسيقى عندهم ما يبعث
على البكاء

ويظهر أن هؤلاء قد قصرت مشاعرهم عن إدراك ما في العالم
من ملذات فمثلهم كمثل عمي الالوان الذين يدركون بعضها دون
بعض - وان الدنيا مملوءة بالمسرات والمؤلمات جميعاً « ولولا سوء
النظم الاجتماعية الحالية وفساد التربية الموجودة لكانت السعادة

حظاً أكثر الناس ان لم أقل كلهم »

وان الناس يخطئون في اعتقادهم أن ما يحيط بالانسان من الامور الخارجية هي التي تجعله سائداً أو راضياً بأثماً أو منعماً - نعم ان الانسان قد يكون أقدر على السعادة في بعض الظروف دون بعض ولكن الظروف نفسها لا تجعله سعيداً ، فكثيراً ما تتوافر وسائل السعادة عند قوم وهم مع ذلك أشقياء بأنفسهم لانهم يخلقون من كل شيء ما يستوجب السخط ، ويلونون كل ما يرون باللون الاسود

أن السعادة أو المسرة تعتمد على أنفسنا أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية ، ويجب أن يتعلم الانسان فن المعيشة وكيف يكون راضياً ولو لم يكن كل شيء حوله وفق ما يتمنى

(٣) ضبط النفس عن الاسترسال في الشهوات الجسيمة ولا سيما الخمر والنساء فهما شر ما يقع فيه الانسان ويفسد عليه حياته ويضعف روحانيته ويقلل من حرته ويسوقه الى أسوأ حياة ، وطريق الاحتياط لذلك عدم التعرض للمغريات فلا يجالس المستهترين الذين لا يتحرجون من قول المهجر والحض عليه ولا يقرأ الروايات المثيرة ولا يغشى أماكن اللهو غير المؤدب ويجب أن يصحب من قويت شخصيتهم ونظف لسانهم وطهرت روحهم - وأوجب ما يكون ذلك في السن بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين ففيها تنمو الشهوات وتبعث على الشرور فلزم تحصن الشاب بوسط صالح ورفقة مؤدبة ،

وليعن بما يوضع في يده من كتب وما يشاهد من تمثيل وما يغشى من مجتمعات كان غرضه لاحتواء أنواع الشرور، في هذه السن يكون المرء عرضة للتحويل وأكثر من ساءت حالهم وفسدت أخلاقهم كان فسادهم في هذا الدور، وقل أن يسقط أحد بعد أن ينجو منه (٤) ضبط الفكر فلا يتركه يهيم في كل واد، ويتجول في كل مجال فالفكر إذا حام حول الشرور يوشك أن يقع فيها كما بينا ذلك عند الكلام على العادة

وعلى الجملة فضابط نفسه كراكب الفرس الذلول يقصد حيث أراد في وجهها كما يشاء — ومن لم يضبط نفسه كراكب الصعوبة، لا يسيرها كما لا يهوي، ولا يصل إلى غرضه بالسير كما تهوى، في ضبط النفس حفظ الصحة وطمأنينة العقل والسعادة والحرية وسلطان كسلطان القائد على جنده أو الربان الماهر على سفينته

الاقتصاد

من أهم وسائل السعادة في الحياة بعد النظر، وتوجيه الأعمال حسب ما يقتضيه النظر البعيد، فالزارع إنما ينجح بنظره إلى مستقبل زراعته وما يحتاج إليه وتشكيل أعماله وفق ذلك، والطاب إنما ينجح في دراسته إذا هو نظر إلى مستقبله واستعد لاداء ما سيمتحن فيه وعدل حياته على وفق الغرض الذي يرمى إليه وهكذا كذلك الشأن في حياة الانسان المالية لا بد أن يتنظمها الفكر

والنظر البعيد . والا اضطربت معيشته وساء حاله
ليس يطلب المال لذاته ، انما يطلب لانه وسيلة للحصول على
ما يرغب وكما قال « ميل » « ليس في النقود ذاتها ما يرغب فيه
أكبر مما في كمية من الخرز اللامع . وانما قيمتها تنحصر فيما يمكن
أن يشتري بها أى في الرغبة في الاشياء التي هي واسطة لتحصيلها »
ولكن قد ينسى الانسان ذلك « ويرغب في النقود لذاتها وتصير
الرغبة في كسبها أشد من الرغبة في انفاقها » وكذلك الشأن
في السلطان والشهرة فان « سبب حبهما ما لهما من القوة الهائلة
في مساعدتنا على نيل رغباتنا . وان الارتباط الشديد بينهما وبين
تلك الرغبات هو الذي جعل لهما تلك المكانة التي تفوق عند بعض
الناس كل الرغبات الاخرى ^(١) »

ليس المال في ذاته شيئاً حسناً انما هو حسن أو قبيح حسب
استعماله ، فهو حسن في يد من يحسن استعماله ، وقبيح في يد من
من يسيئه . ويجب أن تتعلم فن استعمال المال وطرق كسبه وتوفيره ،
ولذلك علاقة كبيرة بالاخلاق . فكثير من الفضائل والردائل
عمادها المال . فالكرم والامانة والاحسان والاقتصاد — والطمع
والبخل والارتشاء والاسراف كلها تتصل بحالة الانسان المالية

« ١ » مقابلة من كلام جون ستورت ميل في كتابه مذهب النعمة
utilitarianism

بل هناك فضائل وورذائل تنتج عن المال من طريق غير مباشر ،
فكثيراً ما يضطر المدين الى الكذب ، وتحمله ديونه على تليفيق
الاعتذار لدائنه ليماطله . واثيراً ما يكون الفقر سبباً للاجرام
وعدواً للحرية وكذلك العكس ، وادخار شيء من المال يبعث
في النفس قوة يجعلها أبعد من المذلة والهوان ، وأكثر مطابفة
بالحقوق وأصلب أخلاقاً فن الحق عد تدير المال وحسن التصرف
فيه أساساً من أسس الاخلاق الفاضلة . وقد الفت الكتب
العديدة في تدير المال وتنمية الثروة ونحو ذلك من الشؤون المالية
ولكن لا تتعرض هنا الا لما عس الاخلاق

كل انسان عرضة لاختار ومتاعب تصادفه في الحياة من
مرض أو شوب نار أو اعتزال منصب ، فلا بد من اقتصاد جزء
من المال ندخره لوقت الحاجة . ونحفظ به أنفسنا من الدين ومن
المذلة -

كذلك قد يكون للانسان أغراض في الحياة أعلى من حياته
الحاضرة ولا يستطيع الوصول اليها الا بما يوفره ، وهذه قواعد
أولية لا بد من مراعاتها في استعمال المال

- (١) يجب أن تقدم - عند اقتناء الاشياء - الضروري
منها على الكلى فليس من الصواب أن نعمل وليمة ونحمن
وأهلنا محتاجون الى ما كل وملبس كما لا نزين الحجره قبل فرش أثارها
- (٢) لا يصح أن نشترى شيئاً يضرنا أكثر مما ينفعنا فالتدخين

والمسكرات تضر صحتنا ضرراً أشعر به في مستقبل حياتنا ويكون
لذلك من الألم أكثر مما نجده من اللذة الحاضرة

(٣) لا يصح اقتناء شيء قد ينفعا ولكن يضر غيرنا ضرراً
كبيراً فإذا قل صنف في بلد كالبيترول أو القمح فلا يصح لنا أن
نشترى منه أكثر من حاجتنا الضرورية - ولو كانت ماليتنا
تسمح بذلك - لأن ترفنا بالزائد عن حاجتنا يمنع قوماً من نيل
الضروري لهم ، وإذا اعتصب عمال الترام مثلاً واعتقدنا أنهم
مصيبون في اعتصابهم لا يحق لنا أن نركب الترام إذا سيرت
الشركة بعض القطارات لأن ذلك يضر بمصلحة العمال المنصفين
في اعتصابهم

(٤) يجب أن نحسب دخلنا وخرجنا بالدقة . وألا يسمح
الإنسان لنفسه أن ينفق أكثر مما يكسب لأنه بذلك يعيش
من دخل غيره . ولا يلبث طويلاً - إذا عاش على هذا النمط -
أن يركبه الدين . ويقع في هوة يصعب خلاصتها منها - بل لا يصح
أن يكون المخرج مساوياً للدخل إلا عند الضرورة وفيما عدا ذلك
يجب توفير شيء من الدخل لما بيننا من قبل

يتطلب الاقتصاد الحمود أن يكون الإنسان وسطاً بين
الاسراف والتقتير ، فالأغنياء الذين لا ينفقون شيئاً من مالهم
في المنافع العامة كالمستشفيات والمدارس . ويحبون المال حبا جماً
ويتلذذون من جمعه وبألمون من انفاقه بخلاء . لا مقتصدون . هؤلاء

قد تجاوزوا الاقتصاد إلى الشح . واتخذوا جمع المال مقصداً وليس هو إلا وسيلة لاسعاد الفرد والامة

كذلك ضرر الامة من اسراف أبنائها ضرر بليغ . اعتبر ذلك بما يصيبها من المسكرات ، فان الاموال التي تستهلك فيها كثيرة ولو أنفقت في مشروعات نافعة لانتجت نتائج عظيمة . ويزيد في ضررها أن الاموال المنفقة فيها يخرج أكثرها من جيوب فقراء الامة الذين هم في حاجة إلى ضروريات العيش . أضف إلى ذلك ما يستوجبه الافراط في شربها من الامراض والوفيات وفي ذلك خسارة على الامة عظيمة

مضار الدين والقمار : لعل أضر الاشياء بمالية الانسان

الدين والقمار

أما الدين فانه يعرض الشرف للخطر . وعواقبه وخيمة من ذلك

(١) تأثيره السيء في الصحة بسبب ما يصحبه من اضطراب

الفكر وقلق البال

(٢) اضراره بأفراد الاسرة الابرياء

(٣) قد يؤدي دين الشخص الى فساد أعمال آخرين كما اذا

أفلس المدين فان ذلك يؤثر في تجارة دائنيه

(٤) كثيراً ما يحمل الدين صاحبه على الخيانة والكذب اذا

ضاقت به الحال وألح عليه الدائنون

وسبب الدين قد يكون عوارض تصادف الانسان في حياته

كمريض أو فقد منصب أو نحو ذلك . وهذا أشرف الاسباب لان هذه العوارض خارجة عن طوقه . وان كان صاحبه محلاً للوم اذا كان في استطاعته أن يدخر شيئاً في وقت سمته ولم يفعل وكثيراً ما يكون السبب داخل في مقدورنا . وفي استطاعتنا أن نتجنبه . فكثير ممن يستدينون انما حملهم على دينهم عدم العناية ، لا يعرفون دخلهم ولا خرجهم ، ولا يقارنون ما يكسبون وما ينفقون . ولا يعرفون ان كان ما يشترون مما تتحمله ماليتهم أو لا حتى إذا جاء وقت الحساب تبين أنهم وقعوا في الدين وصعب عليهم الخلاص منه ، ومن هذا النحو الرفاهية والترف ، فهي سبب لاستدانة كثيرين ، يودون أن ينعموا بما لا يستطيعون ، ويظلمون أن يروا كل شئ ، في حياتهم لذياً ساراً ، ويتطلبون السرور من أى طريق ، ولا يضبطون شهواتهم فاذا هم مدنون يجب أن نتعود ألا نسرف في النعيم ونحجب الى أنفسنا بساطة العيش

كذلك يدعو الى الدين الخيلاء ، وحب الظهور بمظهر أكبر من الحقيقة وهو ضرب من الكذب العملي يجب أن نتبعه عنه ومن أهم أسباب الدين القمار وليس أدل على ضرره مما نشاهده حولنا من خراب بيوت كانت عامرة ووقوع أسرغنية في الفقر بسببه ، أضف الى ذلك أنه يفسد على اللاعبين حياتهم العملية فلا يصاحون لاداء أعمالهم أداء حسناً ، فمن أمل أن يفتنى في لعبة

يصعب عليه أن يصبر على عمله الهادى، حتى يربح أجره القليل،
يجب أن نفهم أن ربح المقامر لا ينشأ الا من خسارة آخرين ومن
أجل هذا لم ترض عنه الشرائع وليست كذلك المعاملات المالية
الحلال فأجر العامل انما يأخذه لانه أفاد المؤجر في نظير أجرته
والبائع يتبادل مع المشتري الاخذ والعطاء ولكن في المقامرة
لا يربح أحدا لا بخسارة آخر وبقدر الربح تكون الخسارة،
واللاعبون يتبارون في أغراق بعضهم بعضاً، ولا يخفى ما في ذلك
من الضرر الاخلاقى

المحافظة على الزمن

الزمن كالمال، كلاهما يجب الاقتصاد فيه وتدييره وان كان
المال يمكن جمعه وادخاره لوقت الحاجة بخلاف الزمن
قيمة الزمن كقيمة المال، كلاهما قيمته في جودة انفاقه وحسن
استعماله، فالبخيل الذى لا ينفق من ماله الا ما يسد رمقه فقير كما
اذا كانت أمواله مزيفة، كذلك من لم ينفق زمنه فيما يزيد في سعاده
وسعادة الناس فعمره مزيف

انا نعيش في زمن محدود، ليل ونهار يتعاقبان بانتظام، ليس
يطغى أحدهما على الآخر، وحياتنا مقسمة تقسيماً محدوداً، صبا
فشباب فكهولة فشيخوخة، واكمل قسم عمل خاص لا يلبق أن
يعمل في غيره، كل زرع إذا فات أوانه لم يصح أن يزرع في غيره،

وحياة محدودة فاذا جاء الاجل فلا مفر من الموت
وما فات من الزمن لا يعود، فالصبا اذا فات فات أبداً،
والشباب اذا مر مر أبداً، والزمن المفقود لا يعود أبداً
وإذا كان محدوداً وكان لا يمكن أن يمد فيه أو يقصر وكانت
قيمته في حسن انفاقه وجب أن نحافظ عليه ونستعمله أحسن
استعمال

وليس لاقتصاد الزمن والمحافظة عليه الا طريق واحد،
ذلك أن يكون لك غرض في الحياة ترضى عنه الاخلاق فتتفق
زمنك في الوصول اليه وتوسيعه - وضياح الزمن لسببين
الاول الا يكون للانسان غرض يسعى اليه قال عمر بن الخطاب
« انى لا كره أن أرى أحدكم سهيلاً ، لافى عمل دنيا ولا فى عمل
آخرة » - فما أضيع زمن قارىء يقرأ ما يقع فى يده من الكتب
من غير أن يكون له غرض معين كبحث موضوع خاص أو
دراسة مسألة خاصة - وما تعب من يمشى فى الداريق لا لغرض
يسير من شارع لشارع وينتقل من حانوت لآخر لا لغرض
معين - وتحديد الغرض يوفر من الزمن الشئ الكثير ويسير
الانسان فى الحياة على هدى ، كلما صادفته أمور عرف كيف
ينتخب منها ما يغذى غرضه ويتجنب ما لا يتفق معه، ان الذين
لا يحددون أغراضهم ويتركون الزمن يمر عليهم كما يمر على الجماد
قلما يصدر عنهم خير كبيراً أو يأتون بعمل عظيم - والانسان بلا

غرض كالسفينة في البحر بلا مقصد -- متروكة في يد الامواج
تلعب بها

ويلاحظ أن أكثر الناس عملاً أو سعيهم زمناً، ذلك لانهم
محدودو الغرض فهم يوجهون أعمالهم لنيله ولا يصرفون زمنهم
في التردد والاختيار، ولا يكونون كرة في يد الظروف تلعب بهم
كما تشاء بل هم الذين يخلقون الظروف ويتصرفون فيها حسب
أغراضهم في الحياة

الثاني مما يضيع الزمن أن يكون للانسان غرض محدود
ولكنه لا يخلص لغرضه فلا يجد للوصول اليه ولا يعمل ما يتفق معه
عدم الغرض وعدم الاخلاص له هما اللذان يسرقان
الزمن ويضيعان فائدته

ومن نتائج هذين العدوين التأجيل وعدم الدقة في مراعاة
الوقت المحدود للعمل وعدم المواظبة - فتأخر دقائق عن البدء
المحدد معناه ضياع دقائق من وقت العمل، وذلك يؤدي الى احدى
نتيجتين اما الاسراع في العمل وعدم الدقة فيه ليعوض الزمن
الفائت، وأما التعدي على أوقات خصصت لواجبات أخرى - ومن
هذا النحو تأجيل العمل الى وقت غير وقته، فالعمل المؤجل قلما
يعمل واذا عمل فقلما يعمل باتقان كما اذا كان في وقته

وليس يتطلب الاقتصاد في الزمن والمحافظة عليه أن نعمل
باستمرار والا نترك وقتاً للراحة، انما يتطلب أن نستعمل أوقات

الراحة والفرغ استعمالاً يجعلنا أقدر على العمل، فإذا صرفنا وقت
الفرغ في كسل وشمول لم ننتفع به ولم يفدنا في العمل، وإذا نحن
صرفناه في لعب مفيد وحركة جسم أو في رياضة أفادنا ذلك في
عملنا، وأنالنا من القوة ما نستطيع أن نخدم بها غرضنا وكان هذا
تديراً واقتصاداً

الزمن هو المادة الخام للإنسان كالخشب الخام في يد النجار
والحديد الخام في يد الحداد، فكل يستطيع أن يصوغ منه حياة
طيبة بجده وحياة سيئة باهماله - ولأجل أن نجعل حياتنا قيمة
يجب أن نقضى أوقانتنا فيما يتفق مع أغراضنا

ومما يعين على الانتفاع بالزمن أن نعرف - بعد تحديد
الغرض - هاتين المسألتين (١) كيف نبتدىء العمل (٢) وكيف
نستمر فيه حتى تنتهي منه

لعل من أشق الأشياء معرفة الإنسان كيف يبتدىء عمله،
وكثير من الزمن يذهب سدى في التفكير في ذلك - ترى الطالب
يريد مذاكرة دروسه فيفكر بهم يبدأ، فيرى أن يبدأ بالرياضة
ويشرع في ذلك ثم يستصعبها فيشرع في غيرها وهكذا فهو يصرف
زمنًا طويلاً قبل أن يبدأ بجده - أضف إلى ذلك أن بدء الشيء
صعب عادة لعدم المران أو لانه انتقال من راحة لذيذة إلى عمل
يشق عليه

وعلاج الامر الاول - وهو بـم يبدأ - أن يفكر - قبل العمل - في أولى الاشياء بالبدء ويدرس وجوه الترجيح ثم يرتب مايليه وهكذا ثم يعزم عزمًا قويا لا يشوبه تردد، ولا يسمح لنفسه بتغيير ما عزم عليه مهما صادفه من الصعوبات، أما من يرى أن البدء صعب عليه ويرى نفسه منصرفه عن العمل فما يفيد في ذلك أن يقرأ فصلا من كتاب يشجعه على العمل، أو قطعة من الشعر تثير ميله الى الجهد وتعيد اليه نشاطه، أو يستحضر في ذهنه نتائج الكسل والجهد، أو يتذكر أشخاصا جندوا فنبنفوا في الحياة - وعلى الانسان اذا بدأ العمل أن يبدأه بكل قلبه فيختار مكانا بعيداً عن الضوضاء، ليس فيه من كثرة المناظر ما يشغله عن عمله وليس فيه من المغريات ما يصد عنه

فاذا بدأ فقد قطع شوطا بعيداً للنجاح، بعد ذلك يجب أن يستمر، وإنما يستمر بالعزم القوي الثابت، ويشجعه على ذلك أن يكون العمل الذي يختاره عملاً يتفق مع نفسه أعني أن عنده استعداداً له وميلاً اليه ويشعر منه بفائدة ولذة - فأكثر أسباب الملل يرجع الى سوء اختيار العمل

أوقات الفراغ - ان استعمال أوقات الفراغ استعمالاً حسناً من أهم مسائل الحياة التي يجب العناية بها والتفكير فيها، فإن أكثر أعمارنا تذهب سدى لانا لانعرف كيف نستعمل أوقات الفراغ، يقضيها الاطفال في الحارات والشوارع بلا فائدة ويقضيها الشبان

والشيوخ على القهوات حيث لاهواء نقيا ولا منظرأ حسنا ولا
رياضة بدنية ولا فكرية - أوقات طويلة تذهب في كلام لاقيمة
له ، أو لعب لايفيد ، ولا يقصد منه الا «قتل الوقت» - وأثر
ذلك في أوقات العمل كبير، فمن لم يعرف كيف يلهو لم يعرف
كيف يجد

لعل من أهم الاسباب لذلك أن الأمة والحكومة لم تتعاونوا
على إيجاد أندية للرياضة البدنية في الاحياء المختلفة، ففي أكثر
الاحياء لا تجد مكانا يرتاض فيه الا الشارع والقهوة - يجب أن
تكون أندية اللعب والحدائق والمكاتب في كل حي من الاحياء
أضف إلى ذلك أن جهل الأمة وعدم التربية الصحيحة يفسد
ذوقها، وهذا هو السبب في انك تجد القهوة والروضة والمكتبة
والمعب في حي واحد ثم تجد القهوة وحدها هي العامرة بالزائرين
وسبب ثالث وهو أن فقدان السعادة المنزلية في بيوتنا جعل
الرجال يفرون من البيوت - التي كان يجب أن تكون أعز شيء
عندهم - الى الاندية العامة يعضون فيها أنفسهم أوقاتهم - وسبب
فقدان السعادة المنزلية يرجع في الاغلب الى انتشار الفقر وجهل
الزوجين - وعلى الاخص المرأة - وعدم معرفتهما «فن الحياة»
كيف ينبغي أن تقضى أوقات الفراغ (١) أول ما يقضي فيه
أوقات الفراغ الالعب الرياضية على اختلاف أنواعها في الهوا

الطاق والجو المفتوح فان ذلك يزيد في الصحة ويجدد النفس
ويشوقها الى العمل

(٢) الكتاب - ينبغي أن يكون الكتاب رياضة للناس في
بعض أوقات فراغهم ، لافرق في ذلك بين عامل وموظف وطبيب
ومهندس فانه نعم الجليس المفيد ، وينبغي من أجل ذلك أن تنشأ
المكاتب العامة في كل حي من أحياء المدينة - وينبغي أيضاً أن
تتعلم كيف نقرأ الكتاب فان قصرنا في ذلك ضاعت الفائدة منه :
يجب أولاً أن نعمل الفكر في اختيار الكتاب الذي يناسب أو
نسترشد بذوى الرأى في ذلك فاذا أتمنا الاختيار وشرعنا في
القراءة وجب الاتحول عنه - مهما صادفنا من العقبات ومهما
اعترانا من السآمة - حتى تنمه ولا ننتقل من صفحة إلى أخرى
حتى نسيطر عليها وتصبح ملكا لنا قد هضمتها عقولنا ، قال رسكن
« قد تقرأ كل ما في دار الكتب الانجليزية وتصبح بعد كما كنت ،
انسانا غير متعلم ، ولكن اذا أنت قرأت عشر صفحات بامعان في
كتاب طيب كنت - الى درجة ما - انسانا متعلما » وقال
جون لوك « لاتعمل القراءة أكثر من تزويد العقل بالمعرفة أما
التفكير فيما نقرأ فهو الذي يجعل ما نقرأ جزءاً من أنفسنا - ان
من طبيعتنا أن نتم النظر ونفكر ، و ليس يكفي أن نثقل أنفسنا
بالمعلومات الكثيرة نكدسها ، فالنمضعها ونهضمها لم تغدنا ولم
تكسبنا قوة »

(٣) الجرائد - يصرف جزء من زمن الفراغ في قراءة الحرائد ، وهذا باب حسن من أبواب صرف الزمن ، فهي معرض الافكار والحوادث ومنبهة الشعور والعقول ، بها يكون الانسان ابن يومه ، مطلعاً على ما يجري حوله ، - ولكن لا يصح أن يستكثر من قراءتها الى حد أن يصرفه ذلك عن عمله الواجب

(٤) السينما والتمثيل - لو أن الحكومة راقبت السينما والتمثيل ولم تسمح الا بالروايات المهذبة لكان ذلك من خير ما تصرف فيه أوقات الفراغ ولاصبحت دور السينما والتمثيل مدرسة لذيذة تعلم طبائع الانسان وتعرض أجمل المناظر وترقى الشعور وتهذب العواطف وتقدم صورة جميلة لآداب اللياقة وتشرح عادات الناس المختلفة ، الى كثير من أمثال ذلك

(٥) ومن خير ما يصرف فيه وقت الفراغ أن يكون للانسان هوى (غية) في شيء مفيد كأن يكون له هوى في تربية الطيور أو الزهور ، أو استعراض الآثار في العصور المختلفة ومقارنة بعضها ببعض ففي ذلك لذة كبرى وفائدة عظيمة

وشر ما يصرف فيه الوقت « القهوات » والاندية العامة ، أن من يصرف كل يوم ساعة في هذه المحال يضيع خمسة عشر يوماً - ليلاً ونهاراً - في السنة ، فيضيع خمسة أشهر في عشر سنين ، وهي مدة كافية لتعلم لغة جديدة أو معرفة علم أو التخصص من علوم فكيف بمن ينفقون كل يوم ساعتين أو ثلاثاً

العدل

العدل نوعان : نوع يوصف به الفرد فيقال انسان عادل ونوع يوصف به المجتمع ، ولنتكلم على كل قسم :

فالعدل في الافراد اعطاء كل ذى حق حقه ، ذلك أن كل انسان لما كان عضواً من أعضاء الجمعية كان له الحق في التمتع بنصيب من الخير الذى ينال المجتمع ، فأخذ الانسان نصيبه لا أكثر واعطاؤه الناس حقوقهم لا أقل هو العدل ، فالغصب والسرقه ظلم لان في كليهما أخذ ما للغير ومنعه عن حقه ، والبائع الذى يكيل للمشتري أو يزنه أقل مما اتفقا عليه ظالم لانه لم يعطه حقه وهكذا

ومن أعدى أعداء العدل التحيز وهو ميل الانسان لاحد المتساويين ميلاً يجعله يعطيه أكثر من حقه وينقص الآخر حقه فالقاضي مثلاً يجب ألا يميز في سيره مع الخصوم بين غنى وفقير ، وأسود وأبيض ، وذى جاه وعديم الجاه ، لان عمله انما هو أن يطبق القانون على الافراد ، والناس أمام القانون سواء ، فيجب ألا يجعل مجالاً لجهه أو كرهه ولا لغيره الخصب أو فقره ونحو ذلك وكثيراً ما يتحيز الانسان لآخر ويخطئ ، في أحكامه لتحيزه وهو مع ذلك غير شاعر بأنه متحيز ، ومعتقد الانصاف فيما يرى

ومن أجل هذا يجب على الانسان شدة مراقبته نفسه وحذره
من الوقوع في الخطأ

ويحمل على التحيز أمور :

(١) الحب فن يحب انساناً يتحيز له كالوالدين قله ايريان الخذاً
في عمل اولادها

(٢) المنفعة الشخصية فاحساس المرء بأن أحد الجانبين يكسبه
منفعة لا تكون في الجانب الآخر يجعله يتحيز لاحد الجانبين

(٣) المظهر الخارجى فحسن منظر شخص وحسن هندامه
وفصاحة قوله وآدابه في الحديث كثيراً ماتبعث على التحيز وتبعد
عن العدل

وواجب يقظة الانسان في حكمه واجتهاده ألا يتغلب عليه
هوى أو ميل يصدده عن العدل

وقد كان قدماء الرومانيين يمثلون آلهة العدل بامرأة معصوبة
العينين ممسكة ميزاناً ذا كفتين بأحدى يديها وسيفاً باليد الاخرى،
ويرمزون بعصب عينها الى أن العادل ينبغي أن يعى عن
الاعتبارات التي تجعله يتحيز من غير حق كغنى وجاه، وبالميزان
الى أنه يجب أن يزن لكل انسان حقه بالقسط، وبالسيف الى
أنه يجب أن يلجأ إلى القوة في تحقيق العدل عند الحاجة اليها

وفى ذلك يقول الله تعالى « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات،
وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا

الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس «

وما يحمل على العدل :

(١) عدم التحيز فالذى ينظر إلى الشيء مجرداً عن الهوى أقرب إلى تحقيق العدل

(٢) توسيع النظر ورؤية المسألة من وجوهها المتعددة فعند الخلاف في أمر يجب على كل من المتنازعين أن ينظر إلى محل النزاع من الجهة التي ينظر إليها خصمه أيضاً، والقاضي عند فصله في الخصومة يجب أن ينظر إلى وجهة كل خصم

(٣) أن نجعل مدار الحكم على الباعث للعامل على عمله لا على مظهره الخارجى فقد يكون ظاهر العمل سيئاً ومستفزاً للغضب ولكنه صادر عن باعث شريف ونية حسنة ، كالذى يقسو على ولده ليربيه

*
* *

والمجتمع العادل هو المجتمع الذى له من النظم والقوانين ما يسهل لكل فرد من أفراده أن يرقى نفسه على قدر استعداده فلا يكون المجتمع عادلاً حتى تتوفر لكل طائفة من الناس وسائل رقيهم ، فى الامة مثلاً طائفة من التجار يحتاجون فى تجارتهم إلى تلغراف و بريد وسكك حديدية وهكذا ، وطائفة من الناشئين يحتاجون إلى مدارس يتعلم فيها كل من أراد أن يتعلم ، وفيها من

النظم والعلوم مايسد حاجة كل طاب ، وطائفة من المتخاصمين
تحتاج إلى قضاة وقوانين تردع الجناة وتحفظ حقوق الناس وهكذا،
فاذا قامت الامة بكل هذا حق لها أن تسمى مجتمعاً عادلاً
والا فظالم

والمطالب بتحقيق العدل في المجتمع كل فرد من أفراد ، فكل
انسان مطالب أن يعمل لتحقيق العدل في مجتمعه على قدر
استطاعته ، فاذا احتاجت مدينة الى مستشفيات منلاف على الخطيب
أن يخطب حائناً على انشائها ، وعلى كتاب الجرائد أن يكتبوا ، وعلى
الشعراء أن يشعروا ، وعلى الاغنياء أن يتبرعوا ، وعلى كل ذى قدرة
وجاه أن يستعمل قدرته وجاهه في مساعدة المشروع ، ثم على من
في يدهم تنفيذه أن ينفذوا

فاذا لم يعمل كل فرد ما عليه فالامة كلها آثمة ظالمة حتى
الافراد الذين أدوا ما عليهم ، لان المجتمع كما قدمنا جسم عضوى
وذلك هو شأنه ، فلو أن القلب أدى ما عليه ولكن المعدة لم تؤده
عوقب كل عضو في الجسم حتى القاب

العدل والمساواة : كثيراً ما يقرن العدل بالمساواة ويعتقد
أن العدل في المساواة والظلم في عدمها ، وقد أخذت هذه الكلمة
محلاً كبيراً في العقول من عهد الثورة الفرنسية ، فقد كان شعارها
« الحرية والمساواة والاخاء » « كل الناس أحرار ، كل الناس

متساوون ، كل الناس اخوان »

في الدنيا وسائل كثيرة من وسائل الحياة الطيبة ، كالتعلم
والثروة التي لا بد منها « للاكل الطيب والملبس الطيب والمسكن
الصالح واقتناء الكتب النافعة والقدرة على الرياضة البدنية والعقلية »
ونحو ذلك فهل من الحق والعدل أن نتساوى الناس في هذه
الوسائل أو الحق والعدل في عدم المساواة ؟ قد اختلف العلماء
والفلاسفة في الاجابة على هذا السؤال ففرق يؤيد المساواة ويرى
العدل فيها ، وفرق يدحضها ويرى فيها الظلم ، ونحن نورد هنا
حجج الفريقين باختصار

حجج القائلين بعدم المساواة : (١) ان الناس مختلفون
بطبيعتهم في قواهم وملكاتهم ، فمنهم الذكي والغني والحاظق والابله
والكفء وغير الكفء ، هكذا خلقهم الله وهكذا ولدوا ، فمن
الخرق أن تمكن الاغنياء والبله وغير الاكفاء من ادارة الاعمال
الواسعة وان تمنحهم منحا كبيرة لا يستطيعون ان يتمتعوا بها ، انا
اذا منحناهم ذلك أساءوا استعمالها ولم ينتفعوا بشئ منها مع اننا لو أعطيناهم
ضروريات العيش فحسب وأعطينا ما زاد للكفء القادر سعد
الجميع ، لذلك يجب أن نقصرهم على الضروريات بآية طريقة ، وقد
كانت الطريقة عند الاقدمين الاسترقاق وفي العصور الحديثة
الاجور اليومية ونحوها

(٢) ان الاختلاف بين الناس يبعثهم على الجدل ، فالفقير اذا

رأى الغنى يتمتع بأكثر مما يتمتع به هو جد في العمل ليكون مثله،
وحامل الشهادة الثانوية إذا رأى حامل الشهادة العالية يمتاز بميزات
أكثر منه رغب وعمل ليكون مثله، وتمتع بعض الناس بالملبس
الجميل والمسكن العظيم والسيارات الفخمة يثير في النفس حب العمل
ليصل إلى النتيجة المنشودة، ويبعث على الاختراع ويرغب المتراحمين
في استكشاف خير الطرق لنجاح عملهم، وفي ذلك خير عظيم
للإنسانية علي العموم، أما ان نحن سويتنا بين الناس لم نجد ما
يحملهم على الجهد وقد فطر الناس - متوحشهم ومتمدنهم - على
أن الامل يسيرهم والرغبة في عيش خير من عيشتهم هي التي تشجعهم
(٣) لا يمكن انتظام شؤون الدنيا الا إذا وجدت طائفة
تخصص للعمل في المزارع ولا تتمتع بالقراءة في الكتب ودراسة
العلوم بينما يتفرغ آخرون للشعر والعلم والفلسفة ونحو ذلك، أما إذا
اشتغل جميع الناس بالعلم على السواء لم نجد مواد الحياة الاولية كافية،
ولو كلفنا الناس جميعاً أن يكونوا عمالاً ولو في بعض أوقاتهم لخرمنا
العلم الوافر والابحاث المفيدة، فلا بد من التفاوت وعدم المساواة
في ذلك

ورد دعاة المساواة على هذه الحجج بما يأتي :

(١) ان الناس قد خلقوا متساوين، قال شيشرون الخطيب
الروماني « الناس سواء، وليس شيء أشبه بشيء من الانسان
بالانسان، لنا جميعاً عقل ولنا حواس، وان اختلافنا في العلم فنحن

مستوون في القدرة علي التعلم »

وقال هوبز Hobbes الفيلسوف الانجليزي «سوت الطبيعة بين الناس في قوائم الجسميه والعقليه ، قد نرى بعض الناس اقوى جسما من بعض ، وبعضهم اذكي من بعض، ولكن اذا نظرنا نظرة عامة لانجد هناك فرقا يخول لانسان حقاً ليس للآخر ، خذ مثلاً ضعيف الجسم فان عنده من القوة ما يستطيع به ان يقتل القوي اما بمكيدة أو بمؤامرة مع آخرين يشعرون شعوره » وكذلك جاء جفرسن Jefferson واتباعه فأيدوا القول « بان الناس مخلوقون سواء »

وليسوا على ما يظهر يريدون ان يقولوا ان الناس لا يختلفون في كفاءتهم وذكائهم فذلك ظاهر البطلان ، فكل انسان يسلم بذلك ويختار لعماله من يصلح له دون من لا يصلح ، وانما يريدون ان يقولوا ان الناس لم يخلقوا منقسمين الى طبقة اشراف وطبقة عامة ، وان ليس لاحد حق السيطرة على الناس بسبب ما يجري في عروقه من دم ملوكي بقطع النظر عن كفاءته وذكائه ، بل خلق الناس طبقة واحدة ، اصلحهم ا كفوهم ، كذلك يعنون ان الناس متساوون في الحقوق كحق الحياة وحق الحرية وليس لاحد حق اكثر مما للآخر

(٢) وردوا على الحجة الثانية بأن التزاحم واختلاف الناس باعث غير شريف وهي لا تصلح الا أن تكون باعثاً للمتوحشين

والمنحطين ، أما الراقون المهذبون فيجب أن يحملهم على العمل شعورهم الطيب وحبهم للعمل ، وكثير من المستكشفين انما بعثهم على استكشافهم الرغبة في خير الناس ونفعهم

(٣) وردوا على الثالث بأن ذلك كان في الزمن القديم ، أما وقد استكشفت المخترعات الحديثة والآلات البخارية والكهربائية العديدة فانا نستطيع أن نسعد الناس جميعاً وكثرة الحاصلات بواسطة هذه الآلات تمكننا من أن نعلم الناس جميعاً

والظاهر ان المساواة المطلقة في كل شيء ، لا تمكن وليست من العدل - خصوصاً بعد ظهور أن الناس مختلفون بالطبيعة - انما هناك أشياء تعقل فيها المساواة وهي عدل وعدمها ظلم ، من ذلك : (١) المساواة أمام القانون بمعنى أنه لا فرق أمامه بين غني وفقير وشريف ووضيع ، كل يعاقب على جريمته إذا أجرم ، وعند وضع القانون ينبغي ألا تفضل طبقة على طبقة

(٢) المساواة في الحقوق ، فكل انسان له من حق الحرية وحق الحياة ونحو ذلك ما للآخر ، ليس لاحد الحق في أن يخطب أو ينشر رأيه دون الآخر ، بل الكل في ذلك سواء ، للامير من الحق ما لأحد الرعية وللغني ما للمفقر

(٣) المساواة في المناصب ، أعني أن ليست المناصب قاصرة على فئة خاصة بل كل من تتوفر فيه الصلاحية للمنصب له حق فيه وليس للاعتبارات الاخرى كالغنى والجاه دخل في التفضيل

(٤) المساواة في التصويت في الانتخاب فليس ذلك من حق الاغنياء دون الفقراء وهذا النوع موضع خلاف بين العلماء ولم تتبع الامم نمطاً واحداً في السير عليه

العدل والرحمة : كثيراً ما يقول الناس « الرحمة فوق العدل »
يعنون بذلك أن العمل حسب ما تقتضيه الرحمة أفضل من العمل حسب ما يقتضيه العدل - وهذا ليس بصحيح على العموم بل قد يكون صواباً وقد يكون خطأ ونحن نذكر أمثلة مما تستعمل فيه هذه الجملة

(١) مدرس في مدرسة ليس كفوفاً في عمله، لا يحسن التدريس ولا يفيد تلاميذه، أريد الاستغناء عنه من أجل ذلك، ولكنه كبير في السن ورب أسرة وفقير فيقال « الرحمة فوق العدل » أي أن العدل يقضى بالاستغناء عنه والرحمة تقضى ببقائه في عمله وهذا صحيح ولكن يجب هنا أن نطبق العدل لا الرحمة فالعدل هنا فوق الرحمة، ذلك لان الضرر الذي ينال التلاميذ من المدرس مع كثرة عددهم كل سنة يفوق الضرر الذي ينال المدرس وأسرته، ولان المدرسة ليست ملجأ للاحسان يرتق منها مع عدم كفاءته، بل هو يأخذ أجره في مقابل عمله فما لم يحسن عمله لم يستحق أجره، وكونه رب أسرة وفقيراً يجعله يستحق الاحسان لان المدرس ولكن من معاهد الاحسان

(٢) عامل ترام « كمسارى » تريد أن تشفق عليه فتعطيه
ثمن التذكرة ولا تأخذها منه « لان الرحمة فوق العدل » وهذا
أيضاً خطأ لان ثمن التذكرة ليس ملكك ولكن ملك الشركة
ولا يصح أن تحسن من مال غيرك الا برضاه ، فاذا أردت
الاحسان فأعطه من مالك الخاص بعد أن تدفع ثمن التذكرة
(٣) اص قبض عليه وهو ينتشل « محفظة » فأخذ يستعطف
الناس ويبكى ليفرج عنه فيقولون « الرحمة فوق العدل » وليس
ذلك بصحيح لان معاقبة السارق من حق الامة فلا يملك العفو
عنه بعض الافراد

(٤) مسجون سجن ظالماً وعدواناً يراد العفو عنه فيقال « الرحمة
فوق العدل » وهو خطأ أيضاً لان العدل يقتضى كذلك ألا
يسجن فالرحمة والعدل يتفقان في المطالب وليست الرحمة فوق العدل
نعم فى بعض المواضع يكون استعمال الجملة صحيحاً كما اذا
كان لك دين على آخر فرحمته وتركت دينك أو أجلته حتى يوسر
فالعدل أن تأخذه والرحمة أن تتركه أو تؤجله والرحمة فوق العدل
وجملة القول أن الجملة صحيحة اذا كان الذى يرحم هو الذى
يملك حق العدل ثم هو يتنازل عن حقه فى العدل ويرحم ، أما الرحمة
حيث يكون العدل من حق غيره نخطأ بين كما مثلنا

الامراض الاخلاقية وعلاجها

حياة الانسان قد تتجه نحو تكميل النفس وطهارتها وهذا ما وجهنا اليه أكثر كلامنا في الفصول المتقدمة ، وقد تتجه نحو الشرور واقتراف الجرائم والآثام وهذا ما نبحت فيه في هذا الفصل تنشأ الآثام والجرائم في كثير من الاحيان عن ضيق العالم الذي تعيش فيه نفس الانسان ، فان من ضاق عالمه حتى لا يرى إلا شخصه وأقرب الناس اليه كان عرضة لارتكاب الجريمة عند ما يرى أن خيره في ارتكابها ، فكثير ممن يسرقون يضيق نظرم فلا يرون الا أن ما يسرق يزيد في خيرهم وخير أسرهم ، ولا يتسع نظرم حتى يدركوا ما يحيط بالمسروق منه وأسرته وأمته من الضرر . وقد يرتكب الجريمة لانه وقت ارتكابها كان ضيق العالم فاذا اتسع نظره بعد ندم لان عالمه وقت ندمه أوسع من عالمه وقت اقتراف الجريمة

ضيق النظر يجعل الانسان يرى أن مصلحته ومصلحة أمته تتناقض فيفضل مصلحته على مصلحتها ولكن واسع النظر يرى أن مصلحته في مصلحة أمته وفي ضررها ضرره

وعلاج هذا أن يوسع نظره كما يذا ذلك عند الكلام على الخلق وقد تصدر بعض الشرور عن المصلحين وذوى الاخلاق القوية : وسبب ذلك في كثير من الاحيان انهم يحصرون نظرم

في جهة واحدة من جهات الإصلاح فيغفلون عن النظر الى جهات
أخرى، كالذى حكى عن سقراط أن اهتمامه بإصلاح الناس جعله
يهمل اصلاح بيته، وكما ترى في تاريخ عظماء الرجال من أغلاط
يرتكبونها، ويجب لصحة الحكم عليهم ألا تقصر نظرنا على أغلاطهم
بل ننظر الى جهات نقصهم وجهات كلهم جميعاً، ويجب هنا ألا ننسى
ما أشرنا اليه قبل من وجوب النظر الى الباعث فقد يصدر عملان
متشابهان من شخصين ويكون الباعثان مختلفين أحدهما طيب
والآخر سيء، فلا نحكم على الشخصين حكماً واحداً

(الآثام والجرائم) يهتم الاخلاقيون بنية الانسان الباطنية
وغرضه من عمله كما يهتمون بالعمل الخارجى، وفي كليهما تبحث
الاخلاق، فهي تبحث في الصفات النفسية والنية ولو لم يترتب عليها
عمل خارجى وتبحث في الاعمال الخارجية أيضاً

والعمل اذا كانت الاخلاق تستقيحه فهو اثم سواء كان عملاً
خارجياً أو نفسياً ولكن لا يسمى جريمة الا اذا كان عملاً خارجياً
نهت عنه قوانين البلاد وعاقبت من ارتكبه، فالآثام اعم من
الجرائم

ولم توضع كل الآثام في قوانين البلاد لاسباب عديدة أهمها:
(١) ان كثيراً من الآثام لا يصح وضعها في قانون كمنكران
الجميل وعدم الرحمة والشفقة اذ لو وضعت لها عقوبة لقلل ذلك من قيمة

الفضائل المقابلة لها أعنى انه يقلل من قيمة الشكر على المعروف والرحمة والشفقة لأن قيمتها في انها منبعثة عن القلب، فاذا عرف انها عملت خوفاً من عقوبة القانون ضاعت قيمتها

(٢) ان كثيراً من الآثام لا يمكن تحديده حتى يوضع في القانون وتحدد العقوبة له ، فعدم الاحسان اثم وليكن مقدار ما يجب يختلف باختلاف الاشخاص في الغنى وبمقدار ما يطلب منهم من النفقات ونحو ذلك

(٣) عندما تكون نتيجة الآثام عائدة على الشخص نفسه مباشرة وعلى المجتمع تبعاً لا يصح تدخل القانون كمن يعمل عملاً يتلف صحته ، اذ لو تدخل القانون في هذا لسلب الناس حريتهم، ولما استطاع أن يستقصى ذلك

(علاج الجريمة) : للجريمة علاجان : الاصلاحات الاجتماعية

كانشاء الاصلاحيات للاحداث ، ونشر التعليم العام ، ومقاومة السكر والبغاء ، ومنع التشرذ واستئصال ما يجرض الشبان على الفجور ، وغير ذلك — والثاني العقوبة ، وسنتكلم عليها كلمة

(العقوبة) للشر الذي يرتكب ضرران (١) ضرر يصيب فاعل الشر ، وذلك هو انحطاط نفسه ، ونزولها عن شرفها ، وتوبيخ الضمير ، والندم على ما حصل ، فان من أتى بالشر يتسع عالمه بعد صدور الشر عنه ، فيتجلى له سوء عمله ، فيألم ألماً يختلف شدة وضعف باختلاف وجدان الناس ومثلهم الاعلى ، فكلما كان

الوجدان حساساً وكان العمل لا يتفق مع مثل الانسان الأعلى
كان الندم أشد ، وقد يصل بالانسان الى حد أن يرتبك حاله ،
وتضطرب أعصابه ، وينقبض صدره ، فلا يري ملطفاً لهذا الألم
الا أن يتوب ، أعنى انه يسترد ارادته ويسترجع نفسه الى موقفها ،
ويعزم على أن يحافظ عليها من أن تسقط سقطتها الاولى — أما
من مات وجدانه وانحط مثله الاعلى فلا يندم كثيراً بل قد لا يندم
أبداً كعتادي الاجرام

(٢) وضرر يصيب المجنى عليه والمجتمع معاً — وقد كان
الناس قديماً يرون أن المجرم جنى على المجنى عليه فحسب ، فلما راقوا
عدوه قد جنى على المجتمع كله أيضاً لان السارق مثلاً اذا سرق
أزعج الناس وهدد كل مالك وجعله يشعر بأنه عرضة لان يسرق
منه كما سرق من غيره ، أضف إلى ذلك ما تنكبده الامة للاحتياط
من السارقين والنفقات التي تنفق في سبيل ذلك ، ومن
أجل هذا قالوا أن صالح المجتمع يجب أن يقدم على صالح الافراد
وأصبحت العقوبة من حق الهيئة الاجتماعية التي تمثلها الحكومة
وصارت الجرائم تقاس بالضرر الذي ينشأ عنها للمجتمع
وقد كان الغرض أولاً من عقوبة المجرم الانتقام منه ، فلما
ارتقى الناس رأوا أن الغرض ينبغي أن يكون :

(١) منع الناس من ارتكاب الجرائم فانهم إذا رأوا أن المجرم
يعاقب على اجرامه خوفاً فهم ذلك من ارتكابها

(٢) ايقاع ألم بالمجرم يتناسب مع لذته من اجرامه - لانه بأجرامه قد ألم المجتمع فمن العدل أن نؤلمه كما فعل ، قد تلذذ هو فأجرامه لذة باطله فيجب أن نسترد منه لذته بإيلامه إيلاماً مناسباً للذته

(٣) اصلاح المجرم - وهذه النظرية أكثر مراعاة في أيامنا هذه - وغنها نشأ كثير من النظم مثل اصلاح السجون، وذلك بتقسيم المجرمين إلى أقسام بحسب قوة الاجرام عندم وفصل كل قسم عن الآخر حتى لا يعدى مبتدى مبتدى. الاجرام من معتاده ، وتعليم المجرمين صنائع يكتسبون منها فاذا خرجوا من السجن لا يلجئهم فقرهم وتشردم إلى السرقة بل يتكسبون من الحرفة التي تعلموها ، وایجاد دروس وعظ وإرشاد ديني في السجون ، وانشاء اصلاحيات للاحداث تهذب من نفوسهم وتعديل بهم عن الاجرام وهكذا



وقد تجرم المجتمعات كما تجرم الافراد ، فالامة التي تضع لنفسها من النظم ما ينشأ عنه وجود طائفة تعيش على حساب غيرها - لا تعمل أي عمل وتتمتع تمتعاً كبيراً - مجتمع قد أجرم ، ذلك أن الانسان انما خلق ليعمل ، فمن لم يعمل لم يؤد ما خلق له وكان عالة على من يعملون ، وكان كالنبات الطفيلي يتص ما أعده غيره من

غذاء ، فالكسالى والاغنياء الذين يتمتعون فحسب ولا يعملون أى
عمل ، والمجرمون الذين يعيشون من السرقات ونحوها ، والمتسولون
كلهم قوة مستهلكة يتلفون جزءاً كبيراً مما يحصله العاملون ،
ويسببون التماسه والشقاء للعاملين ، والمجتمع اذا لم يتخذ الوسائل
للاحتياط من هذا المرض كان مجرماً ، وموضع البحث فى هذه
الامراض وعلاجها علم الاجتماع



الكتب التي اعتمدت عليها واقتبست منها

ويرجع اليها من شاء التوسع في العلم

« الكتب العربية »

تهذيب الاخلاق لابن مسكويه

الاحياء للغزالي

أدب الدنيا والدين

« الكتب الانجليزية »

Mackenzie, Manual of Ethics .

Ryland, Ethics, an introductory manual.

W . R . Sorley The moral Life

Everett, Ethics for young People.

The Teacher ' s Text book of practical Ethics.

Moral Instruction Series.

Moral Education Series.

J. Howard moore, The New Ethics.

» » » , The Universal Kinship.

» » » , High School Ethics.

John Stuart mill Utilitarianism.

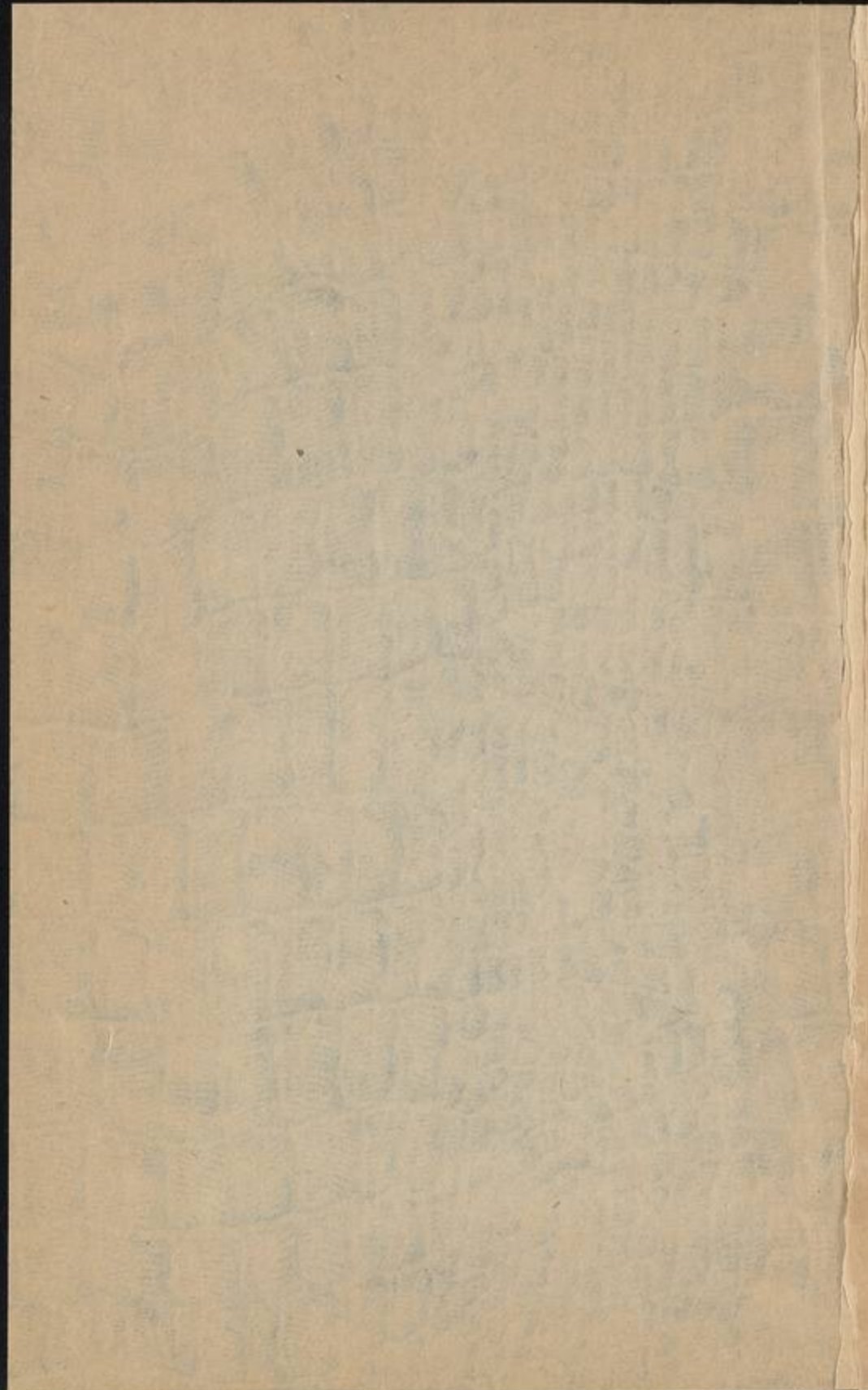
Spencer. Data of Ethics.

- Sidgwick, History of Ethics.
Sisson, The Essentials of Character.
Rappoport, A. primer of philosophy
Tufts. Our Democracy. its origin and its task.
Bain. Moral Science,
Muirhead. The Elements of Ethics.
Cabot, Every day Ethics
Blackm.r. Ele nent: of Sociology.
James Drever the Psychology of Eveyday life
D. E. Philips, Elementary Psychology
Ed. J. S. Lay Citizenship



The first thing I noticed
 when I stepped out of the
 train was a sense of
 freedom. The air was
 fresh and the sun was
 shining. I had been
 waiting for this moment
 for so long. It felt like
 a weight had been lifted
 from my shoulders. I
 took a deep breath and
 smiled. This was my
 chance. I was going to
 make something out of
 this. I was going to
 live. I was going to
 be happy. I was going
 to be free.

The end of the world





893.7991
Ah515

DEC 1 1966

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58847090

893.7991 Ah515 Kitab al-Akhlaq.